عبد المجيد سباطة



• رواية •

• رواية •

• رواية •

المركز الثقافي العربي

t.me/qurssan

t.me/qurssan

عبد المجيد سباطة



رواية



t.me/qurssan

الكتاب
الملف 42
تأليف
عبد المجيد سباطة
الطبعة
الأولى، 2020
عدد الصفحات: 424
القياس: 14 × 21
الترقيم الدولي:
ISBN: 978-9953-68-962-3
جميع الحقوق محفوظة
© المركز الثقافي العربي
الناشر
المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء ـ المغرب
ص.ب: 4006 (سيدنا)
42 الشارع الملكي (الأحباس)
هاتف: 303339 0522 ـ 307651 0522
فاكس: 305726 522 212+
Email: markaz.casablanca@gmail.com
بيروت ـ لبنان
ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء
شارع جاندارك ـ بناية المقدسي
هاتف: 750507 01 ـ 352826 01
فاكس: 343701 1 961+
Email: cca_casa_bey@yahoo.com

حصل مشروع الرواية على منحة تفرُّغ للكتابة من قِبل مؤسسة «مفردات» التي تدعم الفنانين في ومن العالم العربي.
مفردات
Mophradat

t.me/qurssan

إلى المناضلة رقية بلمامون والحكيم عابد سباطة.

كالعادة...

t.me/qurssan

t.me/qurssan

الحياة فقط تقلد الروايات...

ربيع جابر - البيت الأخير (رواية) - 1996

المغربي أسوء حظاً من سيزيف، يفني عمره دافعاً صخرة قهره إلى القمة، ثم ينتهي به المطاف مسحوقاً تحتها...

خالد رفيقي - أحجية مغربية (رواية) - 1989

t.me/qurssan

t.me/qurssan

(0) لو أن مسافراً في ليلة شتاء

لا راحة لكاتب أبداً، فإمّا أن يكتب،
او أن يفكّر فيما سيكتب.

يوجين يونيسكو

الأربعاء 6 نوفمبر 2019
بين محطة القطار وتجزئة المكينسية - سلا:

لا فرق عندي بين الكاتب ولاعب الشطرنج، كلاهما يخوض معركة عقلية عنيفة ضد غريمه، وعلى رقعة تتّسع مساحتها الصغيرة المخادعة لتشمل العالم بأسره!

ولأنّ حسابات الربح والخسارة في لعبتَي الشطرنج والكتابة نسبية ولا تخضع لأيّ منطق، فقد وجدتني مجبراً على رفع الراية البيضاء عوض مواصلة القتال في معركةٍ اجتمعت كلّ الظروف لتقودني إلى خسارتها، وإن احتميتُ لبعض الوقت بعبارة مضحكة يلجأ إليها كلّ المهزومين: الانسحاب التكتيكي...

لكنني لستُ رجل سياسة يكذب على جماهيره لإخفاء الحقيقة، أنا كاتبٌ يكذب ليكشف لقرائه الحقيقة!

t.me/qurssan

ولا مناص هنا من توقيع صكّ الاعتراف بها، وإن كانت إقراراً صريحاً مني بالاستسلام.

أنا عاجز عن إتمام مشروع رواية بدأتُ كتابتها يوم الاثنين 1 أبريل 2019، ما يعني -إذا نزعتُ عني ثوب الكاتب وارتديتُ ثوب المهندس المدني الذي خلعته منذ سنوات لأنه لا يناسب مقاساتي- انهيار بناء بذلتُ كلّ ما في وسعي لتقوية أساساته واحترام الجدول الزمني لتقدّم أشغاله.

انهار البناء مخلّفاً تحت أنقاضه ضحية واحدة فقط: أنا!

سوء تخطيط؟ نقص في التمويل؟ أم أنّ التربة غير صالحة للبناء أصلاً؟

كلّ ما أستطيع الجزم به هو أنني وقعتُ فريسة غرورٍ مَقيت أوهمني بأنني سيد كلماتي، وثِقَة خرقاء زيَّنت لي قدرتي على الإمساك بخيوط الحبكة ومتابعة تطور شخصيات كبّلتها بقيود تتحكم في حركتها بما يوافق رغبتي أنا، ففاجأتني بتحالفها سرّاً فيما بينها لتحطيم أغلالها وإشعال ثورة شعارها الأوحد: نحن نملك الحق في تقرير مصائرنا بأنفسنا...

انهارت هدنة أعلنت عنها من طرف واحد، وفشلت محادثات سلام دعوتُ إليها باقي الأطراف الرافضة لأيّ شكلٍ من أشكال الحوار السلمي، فلم يعُد هنالك بدّ من المواجهة المباشرة والحاسمة.

لكن الكثرة تغلبُ الشجاعة، ولا قدرةَ لقلمٍ أعزَل على مواجهة حصار كائنات ورقية قررت مواصلة ثورتها حتى النهاية، محمّلة إياه مسؤولية التلاعب بماضيها وحاضرها ومستقبلها.

دفعني تعنّتها إلى التهديد بإصدار حكم إعدام نهائي لا يَقبل

t.me/qurssan

النقض، أنقلُ بموجبه ملفّ مسوّدة الرواية غير المكتملة بعوالمها وشخصياتها وأحداثها إلى سلّة مهملات الحاسوب، وبضغطة زرّ واحدة.

كان الجواب واضحاً وصريحاً: إذا الشعب يوماً أراد الحياة، فلا بد أن يستجيب القدر!

واستجاب القدر، لكن بطريقته الخاصة...

*

محطة قطار شبه فارغة، شاشة هاتف محمول تُشير ساعتها إلى التاسعة وأربع وعشرين دقيقة ليلاً، وأمطار عاصفية قوية يستحيل معها الوصول إلى المنزل سيراً على الأقدام، رغم القصر النسبي للمسافة بين المحطة وتجزئة المكينسية.

وأنا متعب جداً، ولا حاجة لي بالمرآة حتى أُصدَم بشحوب وجهي وسواد الهالات حول عيني وبروز عظام وجنتي، بعد مرور أسابيع طويلة قلّت فيها ساعات نومي وامتلأت خلالها مذكرتي الصغيرة بالخطوط والأسهم والملاحظات والجمل والكلمات غير المفهومة، حتى يخيل لمن يطّلع عليها خلسة أنها دفتر خربشات أطفال، دون أن يمكّنني ذلك من العثور على القطعة الناقصة، بما يسمح لي بإضافة سطر واحد إلى ملف المسودة غير المكتملة في حاسوبي المحمول.

لم يقتنع الناشر (الذي قابلته في الدار البيضاء) بمبرّراتي، وتحدّث عن تحمّسه للفكرة عندما عرضتها عليه لأول مرة أواخر عام 2018، واستحسانه لاختياري سنة 2002 كمنطلق للأحداث، وحاول مراجعة بعض تفاصيل الرواية معي لعلّه يفيدني بشيء، لينتهي به المطاف إلى التعبير عن أسفه ومنحي حرية فعل ما أريد.

t.me/qurssan

احتضنت حافظة جلدية تضم حاسوبي المحمول ومذكرتي الزرقاء خوفاً من تعرّضهما للبلل، ثم غادرتُ المحطة مسرعاً، ملوّحاً بيدي إلى سائق سيارة الأجرة.

آخر سيارة أجرة تستعد للانطلاق...

- تجزئة المكينسية من فضلك.

رسَمَ على وجهه ملامح الامتعاض، كما يفعل كلّ سائقي الأجرة، من المعتادين على رفض نقل الركاب من محطة القطار إلى التجزئة بسبب قرب المسافة، لكن حالتي المزرية بفعل غزارة أمطار بدأت أشعر ببرودة قطراتها المتسلّلة إلى عنقي وصدري، دفعته إلى القول:

- حسناً، هيا بنا.

انتبهت لوجود سيدة في منتصف العمر تشغَل المقعد الأمامي، فاتّخذتُ مكاني في المقاعد الخلفية الشاغرة ثم أغلقتُ الباب بسرعة.

- سأوصل السيدة إلى إقامة ديار، ثم ننطلق من هناك إلى المكينسية.

لم أجِبْه، منشغلاً بمسح زجاج نظارتي المبلّلة، فأضافَ بعد صمتٍ قصير:

- أعتقد أنّ مهنة سائق الأجرة هي أصعب مهنة في العالم، فاجأ المخاض زوجتي الحامل بطفلنا الثالث، وعوض مرافقتها إلى المستشفى والوقوف إلى جانبها، أجدني مجبَراً على الخروج في هذه الأجواء الماطرة جرياً وراء لقمة العيش، المهم أنّ والدتي معها، ستكون فرصة مناسبة لعَقد صلحٍ أو هدنة مؤقتة بينهما، بعد شجار سابق تسبّب في...

t.me/qurssan

تفاعلت السيدة مع كلامه، فيما أجبته أنا بهمهمة غير مفهومة، أدركَ معها بأنني غير مهتمّ بمعرفة تفاصيل حياته الشخصية، لتواصل ثرثرتهما لبعض الوقت، تقطعها الضربات الكئيبة لماسحات الزجاج على النافذة الأمامية، والصوت المشوّش والمتقطّع لأغنية شعبية تصدح بها أمواج جهاز الراديو.

توقفت السيارة أمام باب العمارة، فسلّمته السيدة دراهم أجرته ثم ودّعته متمنية التوفيق له والسلامة لزوجته وطفله الثالث.

أدار عجلة القيادة بحركة فجائية تسبّبت في غمر متشرّد رثّ الثياب بالمياه الملوثة، فاحتجّ الرجل مطلِقاً سيلاً من الشتائم المقذعة، فضّل السائق تجاهلها، والبحث عن فتح قناة ثرثرة جديدة معي:

- برأيك، هل استعدّ فريق برشلونة لحقبة ما بعد ميسي؟ لن يتمكّن من حمل الفريق على أكتافه إلى الأبد، وهو الآن في الثانية والثلاثين من عمره!

يا إلهي، أنا فاقد للتركيز، رأسي يكاد ينفجر، ولا أفكر الآن سوى في فراش دافئ ينتظرني، وأنت تسألني عن ميسي!

ثم تدخّل رنين هاتفه المحمول ليُنقذني من مشقّة نقل هذا الجواب إلى لساني.

- أهلاً أمي، هل من جديد؟ ما أخبار نعيمة والمولود؟ ستضطرّ لإجراء عملية قيصرية! غير معقول! حسناً، أنا قادم حالاً...

أنهى الاتصال باضطرابٍ ملحوظ، فتحوّل نفاد صبري إلى تعاطفٍ حقيقي وأنا أقول:

- اطمئنّ، ستكون بخير...

- مستحيل! نعيمة أقوى امرأة عرفتها في حياتي، لم تشك من

t.me/qurssan

أيّ ألم قطّ، ومرَّ حملها الأول وبعده الثاني في ظروف طبيعية للغاية!

اقتربنا من مدخل التجزئة، فطلبتُ منه التوقف والذهاب إلى المستشفى لمساندة زوجته في محنتها، ما دمتُ قادراً على المواصلة سيراً على الأقدام.

شكَرَني بحرارة، وطلب مني الدعاء لزوجته وابنه، ثم انطلق مبتعداً وإطارات سيارته المحتكّة بالإسفلت تطلق صريراً مزعجاً.

تابعته ببصري لبضع لحظات، ثم ابتسمتُ في إرهاق وأنا أراه يتجاوز إقامة أم هاني ويتوقف أمام شخص آخر، وبالفعل، لم يتردّد في السماح له بالركوب إلى جانبه في المقعد الأمامي، ليواصل انطلاقته كالصاروخ في شوارع سلا المقفرة.

نعم، هو مشتّت الذهن، ويخشى على زوجته وابنه من أيّ مكروه يمكن أن يصيبهما، لكنه لن يتخلى عن دراهم إضافية ستوفّرها توصيلة أخرى في طريقه إلى المستشفى!

درتُ على عقبي متوجّهاً بخطوات متسارعة نحو حيّ الخوارزمي، باحثاً عن مفاتيح باب المنزل في الجيب الأيسر لسروالي المبلل.

لكن يدي لم تُواصل طريقها إلى الجيب، بعدما أمرها عقلي بالتوقف بحركة مباغتة لم أستوعب مغزاها المرعب إلّا بعد فوات الأوان...

لقد تركتُ حاسوبي المحمول ومعه مذكّرتي الزرقاء على المقعد الخلفي لسيارة الأجرة!

* * *

t.me/qurssan

مجلة الثقافة العالمية – عدد شهر مايو 2002:

كاتبة الشهر: كريستين ماكميلان (الولايات المتحدة الأميركية)

إشارة: لم تُترجم أيٌ من روايات الكاتبة إلى اللغة العربية حتى لحظة كتابة هذه السطور.

أسيرة القسم رقم 12 (رواية) (1999)

«بأسلوبها الرائع، ومشاعرها الصادقة، قدمت لنا كريستين ماكميلان تصويراً دقيقاً لواقع مجتمع لا ندري ما الذي ينتظره في القرن الواحد والعشرين». – الواشنطن بوست.

تبذل جينا، أستاذة التعليم الثانوي، كلّ ما في وسعها لإنقاذ أسرتها من الانهيار، كما تكافح للسيطرة على طلبتها من المراهقين الرافضين لأيّ حوار أو تفاعل مع توجيهاتها التربوية.

تصدم الثانوية بهجوم مسلّح ينفّذه طالب يُدعى إيدي، يحتجز طلبة القسم رقم 12 ويهدّد بقتل زميلته كاترين بعد فشل علاقتهما الغرامية، فتجد جينا نفسها في مواجهة مباشرة وغير مأمونة العواقب مع طالبها المندفع وغير المتّزن. مواجهة محفوفة بالذكريات المؤلمة لكليهما، ومقامرة دموية يصعب التنبؤ بنتيجتها النهائية.

فهل تتمكّن جينا من إقناع إيدي بالتراجع عن جنونه، أم أنها ستدفع حياتها ثمناً لمحاولتها؟

253 صفحة من القطع المتوسط

الثمن : 16,00 دولاراً

t.me/qurssan

أسرار العتمة (رواية) (2000)

«كريستين ماكحيلان: رائدة الواقعية الأميركية الجديدة بلا منازع» - النيويورك تايمز.

تفقد لورا والديها وبصرها في حادثة سير مروعة نجَت منها باعجوبة.

تعجَز الشابة العشرينية عن تجاوز معاناتها، وتفكّر جدياً في الانتحار، لكنها تجد سنداً حقيقياً من شابّ غامض يزورها في المستشفى بانتظام، دون أن تكون بينهما أيّ معرفة سابقة. وبالفعل، تتمكّن لورا من مجابهة مخاوفها، وتُجري عملية جراحية تعيد إليها بصرها، لتصدم بمفاجاة غير متوقّعة تضعها أمام خيارين في غاية الصعوبة، فإمّا أن تتبع نداء قلبها، أو تخضع لتربيتها الصارمة وتعاليم والدها الراحل، العضو البارز في جماعة كو كلوكس كلان السرية.

فماذا ستختار؟ وما حقيقة عثور رجال الشرطة على دلائل قوية تشير إلى أنّ الحادث الذي أودى بحياة والديها كان مدبراً؟

223 صفحة من القطع المتوسط

الثمن: 15,00 دولاراً

t.me/qurssan

الملاك الصامت (رواية) (2001)

«تواصل كريستين ماكيلان إدهاشنا، بفكرة جديدة وأسلوب مختلف، بما يثبت علوّ كعبها وتفوّقها على معظم روائيي جيلها» – النيويوركر.

يعتقد الجميع أن أسرة شوارزر هي أسعد أسرة في العالم، توم ناجح في عمله كمستشار قانوني، زوجته فيرا حسناء من أصول اسكندنافية، وابنهما جوني طفل رائع في الخامسة.

ينقلب مسار الأسرة النموذجية رأساً على عقب بعد إصابة جوني بخرسٍ مرضيّ غريب.

مرض عضوي أم اضطراب نفسي؟

رحلة علاج طويلة تنكشف معها الكثير من الأسرار، ويطرح معها سؤال في غاية الأهمية:

هل كانت أسرة شوارزر بالفعل أسعد أسرة في العالم؟ أم أنّ ما يجري خلف الأبواب المغلقة بعيد كلّ البُعد عمّا يتصوّره الواقفون أمامها؟

200 صفحة من القطع المتوسط

الثمن: 13,00 دولاراً

t.me/qurssan

(1) أشياء تتداعى

أميركا بلد معقّد جداً، وإنْ كانت الأفكار المتداولة فيه بسيطة للغاية.

ماتي فيسنيتش

الخميس 26 سبتمبر 2002
مكتبة ستراند بوك ستور - مانهاتن:

لا يملك أحد حقّ التشكيك في موهبتكِ الأدبية يا كريستين، لكنك لا تفقهين شيئاً في دهاليز النشر وحِيَل عقود الاحتكار، أرجوك، لا تُطلقي وعوداً تعلمين جيداً بأنكِ ستعجزين مستقبلاً عن الوفاء بها...

جملة همس بها براندون في أذني ذات مرة قبل ثلاث سنوات، وأعترف اليوم بأنها حكيمة، صادقة، وحاسمة.

الخصال الرائعة نفسها التي يتمتع بها رجل استثنائي تربطني به (أو كانت تربطني به إن تحرّيت الدقة المؤلمة) علاقة ضبابية تقترب من إتمام عامها الثامن عشر.

لكنني تعاملتُ مع جملته (وربما معه أيضاً)، بغباء، تسرُّع، ولا مبالاة.

t.me/qurssan

كعادتي في مواجهة كلّ المنعطفات المهمة في حياتي...

استقبلت قارئاً شاباً يرتدي معطفاً واسعاً بابتسامة أنيقة، ثم سألته عن اسمه الكامل لكتابة الإهداء ومعه التوقيع في الصفحة الأولى من نسخته، فيما أشارت لي موظفة المكتبة بحركة خفيّة ومدروسة بأصابعها أنّ عدد الواقفين المتبقّين في الطابور يقترب من العشرين.

تكفيني إذاً ثلاثون دقيقة لإنهاء حفل التوقيع، يمكن أن أحتاج بعدها إلى عشرين أخرى تقريباً للّحاق بموعدي مع دافيد هيرش في السادسة، إن سمحَت حركة السير في شوارع مانهاتن بذلك...

تشنّجت أصابع يدي الممسكة بقلم الحبر، فبذلتُ جهداً خارقاً لتجاهل آلامي، مركّزة بصري على نقطة بعيدة في المكتبة الفسيحة.

جناح الروايات الأكثر مبيعاً، حيث تراجعت روايتي **الملاك الصامت** لمرتبة متأخرة، ولسببين يكمل أحدهما الآخر:

الأول يرتبط بمرور عامٍ كاملٍ على نشرها، وانصراف معظم الصحافيين والنقاد عن الاهتمام بها، باحثين عن عناوين أخرى غادرت نسخها المطبعة حديثاً.

الثاني يتعلّق بصدور كتاب **الأوهام** لبول أوستر منذ ثلاثة أسابيع، و **بويك رقم 8** لستيفن كينغ، قبل يومين فقط. ووجود هذين الاسمين اللامعين على غلاف أيّ كتاب (حتى لو كانت كلّ صفحاته بيضاء فارغة) كافٍ لتحقيق أرقام مبيعات قياسية واهتمام إعلامي ونقديّ لا مثيلَ له.

وقد أضيف سبباً ثالثاً، لكن كبريائي يرفض الاعتراف به...

أشارَت عقارب ساعة يدي إلى تمام الخامسة والنصف عندما وقّعت آخر نسخة قدمَتْها لي عجوز مكسيكية طلبت مني كتابة إهداء

t.me/qurssan

خاصّ لابنتها المقيمة في لوس أنجلوس، فلبّيت رغبتها وأنا ألمح بطرف عيني مدير المكتبة قادماً نحوي بهرولة جمعَت بين الحماس المصطَنَع والتردُّد المضمَر.

- باسمي وباسم كلّ موظفي مكتبة ستراند بوك ستور، نشكركِ جزيل الشكر على منحنا فرصة تنظيم حفل توقيع روايتك الجميلة **الملاك الصامت**، كما نهنّئك على النجاح الكبير للحفل، والذي يؤكّده العدد القياسي للحاضرين الشغوفين بأعمالك المتميّزة.

قال ذلك وهو يصافحني بحرارة كاذبة ونفاقٍ لا تغفله العين، فأجبته بابتسامة مزيّفة وكلمات شكر مجاملة شجّعته على المواصلة:

- ستواصل مع ناشركِ ووكيلكِ الأدبي لتسلّم دفعات جديدة من مجموع رواياتك الثلاث بعد نفاد الكمية السابقة، كما سيوزّع مسؤولنا الإعلامي بياناً مكتوباً على أهم الصحف الأميركية لنشره في ملاحقها الثقافية.

- معذرة، أنا مشغولة حالياً، يمكنكَ مناقشة كلّ التفاصيل مع مدير أعمالي.

قلتها بلهجة دبلوماسية حازمة، ثم حملتُ معطفي كإشارة واضحة على الملَل والرغبة القوية في المغادرة، لكنه استوقفني بحركة عصبية:

- مسز ماكميلان، أعتقد بأنّ منافَستنا الشرسة مع مكتبة بويلز بوكز في بورتلاند حول لقب أفضل وأكبر مكتبة مستقلّة في الولايات المتحدة الأميركية أشهر من أن أحدِّثك عن تفاصيلها، حفل توقيع اليوم نقطة إيجابية لصالحنا، لكننا نطمع في المزيد.

تظاهرتُ بعدم الفهم رغم أن عينيه فضحَتا ما يرمي إليه.

- نتمنى أن تتضمن روايتك المنتظرة القادمة إشارة لمكتبتنا

t.me/qurssan

ضمن أحداثها، لا شكّ في أنّ ورود اسمستراند بوك ستور في رواية لكاتبة تجاوزَت كلّ عناوينها السابقة سقف المليون نسخة سيشكّل دفعة قوية لحملتنا الدعائية.

خيل إليّ أنني أنفجر في وجهه صارخة:

- ومَن أنتَ حتى تفرض عليّ ما أضمّنه في رواياتي؟ أتريدون إخضاع كلّ شيء -بما في ذلك الإبداعات الأدبية- لقوانين العرض والطلب القذرة؟

تذكّرت غرقي حتى الأذنين في بحر تلك القوانين المَقيتة، فتمالكتُ أعصابي قائلة ببرود:

- حسناً، سأفكّر في الأمر.

انحرفَت عيناي بلا وعي مني نحو جناح الأكثر مبيعاً، عاجزة عن كبت شعوري بالغيظ، فلم أجد بداً من الانسحاب، مع تجاهلٍ متعمَّد لسخافات المدير المتملّق الذي لم يسمع إضافتي الهامسة:

- هذا إن فكَّرتُ أصلاً في كتابة رواية أخرى...

* * *

t.me/qurssan

تنويه

يسرّ إدارة مؤسسة الأوائل الابتدائية الخاصّة منح شهادة تنويه للتلميذ زهير بلقاسم تقديراً لتفوّقه وتميّزه طيلة الموسم الدراسي 1993–1994 الذي توجّه بالحصول على المرتبة الأولى على صعيد المؤسسة.

تمنياتنا للتلميذ النجيب بالتوفيق في مساره الدراسي الواعد.

إدارة المؤسسة

«كاسباروف المغرب» يفوز بالبطولة العربية للناشئين في لعبة الشطرنج

(صحيفة البيان – الصفحة الرياضية – عدد الاثنين 16 يونيو 1997)

فاز البطل المغربي الواعد زهير بلقاسم (14 سنة) الملقّب بكاسباروف المغرب بالبطولة العربية للناشئين في لعبة الشطرنج التي نظّمت بالرباط أيام 13، 14 و15 يونيو.

تفوّقٌ واضح للشاب العبقري الفائز أيضاً ببطولة المغرب للناشئين، فهل يصل بطلنا الموهوب برقعة الشطرنج المغربية إلى المحافل الدولية؟

---

t.me/qurssan

استدعاء

توجّه إدارة ثانوية **النجاح** لستدعاء عاجلاً لولي أمر التلميذ **زهير بلقاسم** الذي يتابع دراسته بمستوى **السنة الأولى** للاستفسار عن الأسباب الحقيقية وراء تغيّبه المتكرّر عن الحصص الدراسية المقرّرة ضمن الدورة **الثانية** من الموسم الدراسي 1998-1999.

ندعو ولي أمر التلميذ لموافاتنا بمقرّ الثانوية فور التوصّل بهذا الاستدعاء.

إدارة الثانوية

عراك بين مراهقين في ملهى ليليّ كاد أن ينتهي بمجزرة!

(صحيفة الغد - صفحة الحوادث - عدد الأربعاء 29 مارس 2000)

أكّد شهود عيان نشوب عراك عنيف بالآلات الحادة وزجاجات الخمر الفارغة بين مراهقين في ملهى Night Blue، لحد أشهر الملاهي الليلية بالعاصمة الرباط.

وقد دبّ الخلاف بين المراهقين (أحدهما ابن محامية معروفة) بسبب نزاعهما حول فتاة ليل رفضت الاستجابة لمحاولات ابن المحامية للتقرّب منها، ما دفع خليلها إلى التدخل، فتحوّل الشجار إلى معركة دموية زادَ من حدّتها السكر الطافح للجميع، انتهت بإصابة المراهقين بجروح، وتعرّض بعض الفتيات لإغماءات. كما أحصى الملهى خسائر مادية جسيمة. كلّ هذا وسطَ غيابٍ غير مفهوم لأيّ تدخل من المصالح الأمنية!

t.me/qurssan

توبيخ

قرّرت إدارة ثانوية **النجاح**، بعد مشاورات مجلسها التأديبي، توبيخ التلميذ **زهير بلقاسم** الذي يتابع دراسته بمستوى **السنة الثالثة** وحرمانه من الدخول إلى الثانوية لمدة **15 يوماً قابلة للتجديد**، عقاباً له على تشابكه بالأيدي مع عبد الرحيم الطالبي، أستاذ مادة الرياضيات، متجاوزاً بذلك كلّ قواعد اللياقة والاحترام الواجبين للأطر التربوية.

قرار يؤكّد حرص الثانوية على التزام جميع التلاميذ بالآداب العامة، وتوظيفها لكلّ الوسائل البيداغوجية اللازمة، بما يمكّنهم من متابعة دراستهم في أفضل الظروف.

إدارة الثانوية

امتحان نيل شهادة البكالوريا للسنة الدراسية 2000-2001:

الاسم الكامل	الرقم الوطني	المعدل النهائي	الميزة
زهير بلقاسم	2xxxxxxxx	8,45	راسب

t.me/qurssan

المراهق (1)

أعتقد أنّ كلّ جسد يروي بنفسه قصة شهواته ورعبه وخذلانه.

ميلينا بوسكيتس

الثلاثاء 14 مايو 2002

شاطئ سيدي العابد - الهرهورة:

شمس ساطعة، رمال ذهبية، ومياه باردة تتطلّع إليك بإغراء حقيقي راجية منك معانقتها، قبل امتلاء الشاطئ بمَن هبّ ودبّ، بعد شهر من الآن، أو ربما أقل...

أيّ شيطان رسم لأمي خطّة إرسالي إلى منزلنا الشاطئي في سيدي العابد، بذريعة استفادتي من أفضل الأجواء الممكنة للدراسة والتركيز، تحضيراً لاجتياز امتحانات البكالوريا مطلع شهر يونيو القادم؟

هي تعلم -كما أعلم أنا- بأنّ أبي سيرفض الفكرة جملة وتفصيلاً، وسيعتبر أنّ الأجواء في فيلتنا بحي الرياض مناسبة تماماً للتحصيل، وأن المشكلة فيّ أنا، بصفتي مراهقاً عابثاً ومدلّلاً رسب في امتحانات السنة الماضية، لا في المكان الذي سأراجع فيه دروسي.

t.me/qurssan

لكنها تعلم أيضاً بأن السبب الحقيقي لرفضه لا علاقة له بي، وأن المنزل الشاطئي الجميل تحوّل إلى حلبة يلهث فيها وراء شبابه الضائع مع الشبقات من زبونات عيادته والحسناوات من طالباته الباحثات عن النجاح بطُرق بعيدة عن المثابرة والاجتهاد، لكنها تتظاهر بعدم معرفتها بأمر غزواته، ولم تجد وسيلة أخرى لكبح جماح مراهقته المتأخرة إلّا بواسطتي أنا.

ولو كان ذلك لأيام معدودة فقط...

ولأنه يدرك أنّ معارضتها تعني الدخول بملء إرادته إلى حقل مليء بألغام ستمزّق شظايا انفجارها الجميع، فقد أذعنَ لرغبتها في نهاية المطاف، مفضّلاً الاستسلام والتنازل عن ملعبه السرّي لبعض الوقت.

هكذا هي حياتنا نحن الثلاثة: مسرحية رديئة نكذب فيها على بعضنا، ويعلم كلّ واحد منّا أن الآخر يعرف بأنه يكذب، لكننا نتظاهر بالعكس، مصرّين على لعب دور الأسرة السعيدة أمام الآخرين.

لعبة شبيهة بمباراة في التنس، قد تطول كثيراً، لكن مَن يتعب أولاً هو من سيدفع بها إلى النهاية...

وقفت طويلاً أمام غرفة النوم الرئيسة في المنزل الشاطئي. لم يكلّف أبي نفسه عناء ترتيبها بعد مغامرته الأخيرة، وانتبهت عيني الخبيرة لوجود قرط ملقى على الأرض، فدفعته بقدمي ليتدحرج تحت السرير، خشية وصول أمي وقد تناهى إلى مسامعي صوتها وهي تنهر خادمتنا الجديدة، لحثّها على الإسراع في نقل حقائبي إلى الغرفة.

- دعي النبرة الصارمة لمرافعاتك الصاخبة في المحاكم، بالكاد أكملَت الغالية أسبوعها الثالث معنا، وما زالت بحاجة إلى بعض الوقت للتعوّد على صراخكِ ومزاجيتكِ.

t.me/qurssan

أتبعتُ جملتي بضحكة ساخرة أيّدَتها هي بابتسامة لا تقلّ استهزاء.

- انظر إليها، رغم أنها في السادسة عشرة -كما قال السمسار الذي أحضرها- إلّا أنها تبدو قوية كبقرة حلوب، لا، أنا متأكدة من أنها كانت تشارك بقرة والدها الهزيلة حصتها من البرسيم.

لا، لقد تجاوزتِ حدودك يا أستاذة...

أسقطت الخادمة حقيبتي عن عَمد، في تعبيرٍ واضح عن الغضب، فتراجَعَت أمي عن سخريتها الجارحة، متنبهة ربما لخطئها، ثم تجاهلتها، مشيرة إليّ بطرف أصبعها لأتبعها نحو البهو.

- إنها السادسة مساء، لا أعتقد بأنّ لقائي بأعضاء الجمعية في فيلا لالة غيثة بضواحي تمارة سيطول، أنا أطمح للانقضاض على منصب رئيسة جمعية الوردة المتفتحة للدفاع عن حقوق النساء، ولن أفوت الفرصة لمبارزة نادية، وهي حثالة جديدة تحلم بخطف المنصب مني.

عن أي حقوق تتكلمين يا والدتي العزيزة؟ لقد سمعتكِ وأنت تحدّثين صديقتك عن سعيك للوصول إلى هدفك بغية توطيد علاقاتك النفعية بزوجات بعض المتنفذين، ممّن يملأن أوقات فراغهن بتفاهات لا تفيد أحداً بشيء.

تعليقٌ احتفظتُ به لنفسي، فلا شأن لي أصلاً بجمعيتها وصداقاتها وكلامها الفارغ...

- سأترك الغالية هنا لتُكمل تنظيف الغرف والحمام، على أن أعود في تمام الثامنة لاصطحابها.

كنّا أمام باب المنزل، ففاجأتني بمداعبتها لوجهي بيديها، في

t.me/qurssan

لفتة حنان لم أشهَد مثلها منذ زمن طويل، لتضيف بعدها بنبرة غريبة عنها، هي أقرب ما تكون للضراعة:

- حبيبي زهير، أنتَ أمام تحدٍّ صعب، بالكاد نجحت في إقناع صديقاتي بأنّ فشلكَ في الحصول على البكالوريا قبل سنة كان بسبب إصابتكَ بوعكة صحّية مفاجئة، فلا تخيِّب ظنّي مرة أخرى، إنها فرصتك الأخيرة، أرجوك، انسَ شجاراتك مع زملائك وسهركَ رفقة أصدقائك، ركِّز مع دروسك وامتحاناتك، وأعدكَ بأننا سنبذل كلّ ما في وسعنا، سنستغلّ شبكة معارفنا لتُكمل دراستك بإحدى الجامعات الفرنسية، علاقتي بوالدك ليست في أفضل أحوالها، لكنني متأكدة من أنّ نجاحك سيُعيد المياه إلى مجاريها بيننا.

ختمت توسّلها بقبلة حارّة على خدي، فتظاهرتُ بتوديعها بعد ركوبها السيارة، ثم صفقتُ الباب خلفي بعنفٍ ارتجّت له أركان المنزل الصغير.

اذهبا إلى الجحيم، فأنتما المسؤولان الحقيقيان عن تلوّث هذه المياه، ولا فائدة من عودتها إلى مجاريها ما دامت غير صالحة للاستعمال!

عدت إلى غرفة النوم، فوجدت الغالية مشغولة بمسح غبار النوافذ، بهمة ونشاط تحسد عليهما، بعد بذلها مجهوداً رهيباً في تنظيف زرابي فيلا حيّ الرياض صباح اليوم، وقد رفعت إلى مستوى ركبتيها سروالاً بالياً كشف عن ساقين قويتين برزت عروقهما من شدّة بياضهما، كما انحسَر ثوبها الوردي عن زندبها الممتلئين، فيما زيّنت نحرها قلادة من حبّات العرق التي تسلّلت بعضها بتؤدة، مفضّلة موقعاً آخر يطلّ على منبت صدرها.

t.me/qurssan

سابحة في عوالمها، صدحت حنجرتها بصوتٍ شجيّ تسلّلت إليه بحّة غريبة لم تَزِدْه إلّا روعة وإثارة:

أ لاباس ولاباس ولاباس
الشاوية كواتني وزادت ما بيا
وا فراق حبابي وجاني صعيب

استندت إلى أخمص قدميها الحافيتين في محاولة منها للوصول بمنشفتها إلى أعلى نقطة في النافذة المطلّة على الشاطئ، فانزاح وشاحها المزركش عن شعرٍ ناعم أذهلني امتلاكها مثله، لكنها واصلت غناءها غير آبهة بخصلاته التي غطّت جبينها، ضاغطة على مخارج الحروف بتلذّذ:

خربوشة ماشي قصارة وركزة
خربوشة نخوة وعزة
تشفي الجراح وقت الحزة

حافظتُ على هدوئي محاذراً إثارة انتباهها لوجودي، ومقاوِماً في الوقت نفسه رغبة حارقة في الاقتراب منها أكثر فأكثر.

عمر الظالم ما يروح سالم
وعمر العلفة ما تزيد بلا علام
ورا حلفت الجمعة مع الثلاث يا عويسة فيك لا بقات

استفزّني المقطع الأخير وإن وجدتني عاجزاً عن فَهم معناه، فوجَّهتُ ركلة عنيفة لباب الغرفة.

- ماذا تفعلين هنا؟

فاجَأتها صرختي، فاستدارَت نحوي مطلقة شهقة اتّسعت معها عينان استعصى عليّ فكّ شفرتهما.

شفرة استطاعت الجمع -وبسهولة تامة- بين الذعر والغنج.

t.me/qurssan

- أمامَكِ المنزل كلّه لتنظيفه قبل عودة أمي، هيا!

قلتها بصوتٍ هامس فضَحَ اضطرابي، لكنها أطاعتني وغادرَت الغرفة من دون التفوّه بكلمة واحدة.

ألم تجد سوى قنبلة موقوتة مثلها لتزرعها في قلب بيتنا أيها السمـار الغبي؟

* * *

t.me/qurssan

بعض بنود العقد الأصلي الذي يربط الكاتبة الأميركية كريستين ماكميلان بمؤسسة سايمون آند شوستر للنشر - وقّعه الطرفان بمقرّ المؤسسة في 1230، الشارع السادس، مانهاتن، نيويورك:

> **Article 8**: The first party, represented by the Simon and Schuster Foundation, is committed to paying $250.000 in advance to the second party represented by Ms. Christine McMillan who will thereupon receive her annual earnings from the sales of her works in a specific date and according to a specific percentage of profits to be agreed upon in the coming article.

البند الثامن: يلتزم الطرف الأول ممثَّلاً بمؤسسة سايمون آند شوستر بدفع مبلغ 250 ألف دولار مقدّماً للطرف الثاني ممثّلاً بالسيدة كريستين ماكميلان، على أن يتوصّل الطرف الثاني بمستحقّاته السنوية من مبيعات أعماله في تاريخ محدّد ووفق نسبة معينة من الأرباح يتمّ الإشارة إليهما في البند الموالي.

> **Article 10**: The second party, represented by Ms. Christine McMillan, is committed to delivering a manuscript of one novel per year, and participating in the publicity rounds organized by the first party, represented by the Simon and Schuster Foundation, inside and outside the United States for four years starting from the date of signing this contract.

البند العاشر: يلتزم الطرف الثاني ممثَّلاً بالسيدة كريستين ماكميلان بتسليم مخطوط رواية واحدة كلّ سنة، والمشاركة في الجولة الدعائية التي ينظّمها الطرف الأول ممثّلاً بمؤسسة سايمون آند شوستر داخل الولايات المتحدة الأميركية وخارجها، ولمدة أربع سنوات تبدأ من تاريخ توقيع هذا العقد.

t.me/qurssan

Article 11: Any breach of this contract may expose the second party, represented by Ms. Christine McMillan, to legal liability and paying the penalty clause agreed upon in the next article.

البند الحادي عشر: أيّ إخلالٍ ببنود العقد قد يعرّض الطرف الثاني للمساءلة القانونية ودفع قيمة الشرط الجزائي المتّفق عليها في البند الموالي.

* * *

t.me/qurssan

(2) عناقيد الغضب

لا شيء أسخف من أن يسعى المرء
إلى إثبات شيء للأغبياء.
ميلان كونديرا

الخميس 26 سبتمبر 2002
مبنى مؤسسة سايمون آند شوستر - مانهاتن:

مَن كان يتخيَّل بأنّ بزوغ نجمي في سماء الإبداع الأدبي سيرتبط بمأساة اهتزّت لها مشاعر كلّ الأميركيين؟
طرحت السؤال على نفسي وأنا أتجاوز بسيارتي تقاطع الشارعين الثاني عشر وبرودواي حيث تتموقَع مكتبة ستراند بوك ستور، لأواصل طريقي عبر ميدان الاتّحاد.
كنت مجرّد أستاذة متخصِّصة في الآداب المعاصرة، تُزاول عملها برتابة في ثانوية كولومباين القريبة من مدينة ليتل تاون التابعة لولاية كولورادو، وتقترب اليوم من إتمام عامها التاسع والثلاثين.
امرأة ارتبطت في بداية شبابها بمايك، الذي أوهَمَها بقدرتِه على جعلِها أسعد إنسانة على وجه الأرض، فاعتقدَت بأنها غارقة في حبّه، لتكون سيندي وبعدها رونالد ثمرَتين سريعتين لزواج متعجِّل.

t.me/qurssan

والنتيجة: حياة مملّة مع زوجٍ يؤمن بأنّ السعادة هي التسمُّر أمام شاشة التلفاز بكرشٍ متدلية لمتابعة مباريات البيسبول وبجانبه سلة قمامة مليئة بعلب الجعة، وثمرتان فقدتا حلاوتهما مع دخولهما سنّ المراهقة اللعين بكلّ صعوباته ومشاكله.

ثم جاءت كارثة يوم الثلاثاء 20 أبريل 1999 لتطوي (أو تمزّق) هذه الصفحة الرتيبة من حياتي إلى الأبد...

لم يكُن وقتي يسمَح بالتوقف والتجوُّل قليلاً في منتزه ماديسون، وقد أشارت الأرقام الفوسفورية لساعة السيارة إلى الخامسة وثلاث وخمسين دقيقة، فأكملتُ طريقي عبر الشارع الخامس قبل الانحراف يميناً نحو الشارع الخمسين، تاركة ورائي مبنى الإمباير ستيت ومكتبة نيويورك العامة.

شكرتُ بارقة حظٍّ مكَّنتني من الوصول إلى الشارع السادس في الوقت المناسب، وبالفعل، ركبتُ المصعد في مبنى مؤسسة سايمون آند شوستر وصولاً إلى الطابق التاسع عشر، حيث استقبلتني السكرتيرة وفتحَت لي باب مكتب دافيد هيرش مدير النشر، في تمام السادسة.

- أهلاً بالسيدة كريستين ماكميلان، المبدعَة الحريصة على مواعيدها بدقّة ساعة سويسرية.

كان يوليني ظهره، لكنني ميَّزتُ في النبرة الرفيعة لصوته تهكّماً ساخراً هو أبعد ما يكون عن جدّية لم تَظهر إلّا في عبارته الموالية، بعدما دار على عقبيه واقترب مني بخطوات وئيدة ومدروسة:

- والتي أعجَبَتها حياة الشهرة والثراء والمجد الأدبي، فنَسِيَت بنداً صغيراً في عقدها مع مؤسسة سايمون آند شوستر العريقة، يُلزِمها بتسليم مخطوط روايتها الجديدة نهاية الشهر الماضي، بما يمكننا من إعدادها للنشر والمشاركة في الدخول الأدبي الحالي.

t.me/qurssan

شَعر ناعم أكثر من اللازم، مما يجعلني شبه متأكّدة من تردّد صاحبه على محلات الحلاقة النسائية لتصفيفه، جبين بارز يكاد يخلو من التجاعيد حتى مع تجاوز صاحبه لسنّ الرابعة والخمسين، عينان جاحظتان أظنّ بأنه انتزعهما من محجرَيّ حرباء مسكينة منسيّة في صحراء نيفادا، أنف لن أبالغ إن قلت بأنه أصغر من أنف بينوكيو بسنتيمترين أو ثلاثة فقط، وفم واسع يكشف عن أسنان ناصعة البياض، رغم أنّ علاقتها بالسجائر ترتقي إلى مرتبة زواج كاثوليكي لا طلاق فيه.

صحيح أنني أميركية أيضاً، لكنني أعتبر دافيد هيرش بملامحه المستفزّة النموذج الأمثل للأميركي الذي يكرهه الملايين حول العالم، بسببٍ أو من دونه...

كنت مستعدّة لمقدّمته النارية، فجلستُ على الأريكة العريضة بهدوء، متظاهرة بتفحُّص لوحة تشكيلية بشعة تحتلّ الجزء الأكبر من الجدار المقابل.

يا تُرى كم دفعَ الأخرق ثمناً لرسّامها حتى يتلاعب بزوايا الإضاءة وتفاصيل الملامح ليظهره بمظهر الوسيم الواثق من نفسه؟

قذفت بتساؤلي التافه نحو أبعد نقطة في ذاكرتي، ثم أجبته بما يشبه الاستظهار:

- سايمون آند شوستر مؤسسة نشر كبرى، سبق وأن تعاملت مع عمالقةٍ بحجم همنغواي وفيتزجيرالد وولف وإرفينغ وليسينغ وغيرهم، ويُشرّفني أن أتعاون معها، لكنك تعلم بأنّ نجاح أعمالي مصدره الأول جودة ما أكتب وقدرة كلماتي على النفاذ إلى قلوب وعقول القراء...

t.me/qurssan

قاطعني مطلقاً ضحكة ممطوطة ضربت هدوئي الظاهري في مقتل.

- جودة ما تكتبين؟ في الولايات المتحدة مئات الآلاف وربما الملايين من الموهوبين الباحثين عن ربع فرصتكِ، نحن انتشلناك من القاع مع دار نشرٍ متواضعة أصدرت أولى طبعات باكورة أعمالك، أسيرة القسم رقم 12، ثم خلّصناكِ من وكيلٍ أدبي أبله، توقّف عداد الزمن عنده في ثمانينيات القرن الماضي، مفضّلاً دور مكتشف المواهب المجهول والرافض لأضواء الشهرة، أليس كذلك؟

استفزّتني كلماته اللاذعة، فنهضتُ ودرتُ حول المكتب لأواجهه مباشرة:

- كنتُ حمقاء فعلاً عندما تخلّيتُ عن وكيلٍ اكتشف موهبتي وشجّعني على خوض مغامرة الكتابة والنشر، أمّا ما تسمّيها أنت حياة الشهرة والثراء فقد افتقدتُ طعمها في فمي بعدما حوَّلني عقد احتكاركم اللعين الذي يُجبرني على إصدار رواية واحدة كلّ سنة والمشاركة في جولات دعائية تجُوب معظم الولايات الأميركية وبعض الدول الأوروبية والآسيوية إلى ما يشبه الآلة المجرّدة من الأحاسيس البشرية والمُطالَبَة بالتخلي عن حياتها السابقة في دنفر والبقاء هنا في نيويورك لتأليف روايات لا أحسب بأنّ أسلوب كتابتها يختلف كثيراً عن طريقة تحضير الهمبرغر، لا يا دافيد، لم أعُد قادرة على المشاركة في لعبتك الانتحارية. . .

صُدِمَ مدير النشر بهُجومي، لكنه تمالك نفسه بسرعة عجيبة، مُشهِراً نسخة من العَقد في وجهي، بما يدلّ على استعداده المسبَق للدخول معي في لعبة مساومات يُدرك كلانا مَن الرابح ومَن الخاسر فيها.

t.me/qurssan

- اسمعيني جيداً، علّمتني التجربة الطويلة في هذا الميدان بأنّ مشكلة الروائي الكبرى هي في تعامله مع الحياة كما لو كانت رواية يمكنه التحكّم بها وتغيير مسار أحداثها كما يشاء، أنتِ مُلزَمَة بعقدٍ فمتِ بتوقيعه مع مؤسّستنا وأنتِ في كامل قواك العقلية، راجعي البندَين العاشر والحادي عشر.

اختطفتُ الورقة من يده بعنفٍ فَضَح حقيقة انفعالاتي، مُجبِرَة نفسي على إعادة قراءة وتمحيص ما أعرفه جيداً.

نعم، وقَّعت على العقد مغمَضَة العينين، ووافقتُ على شروطه بغباء، غير آبهة بالنصائح والتحذيرات، فقط لأنّ ما ورد في البند الثامن أسال لعابي وقتها. . .

- لن يفيدك الاتصال بوكيلك الحالي أو حتى مستشارك القانوني بشيء، العَقْد محصَّن وبلا ثغرات. أقنعت مجلس الإدارة بتأجيل موعد صدور روايتكِ المنتظرة إلى يناير القادم، هيا، استعيدي هدوءك وحماسك المعهودين، إقامتك الشاطئية الرائعة بضواحي ميامي بانتظارك، أمامك شهران لتسليم قسم المخطوطات مسوّدة عملك الجديد.

حسبت أنها آخر كلماته، لكنه أضافَ بمقت:

- أنصحكِ أيضاً بزيارة اختصاصي في العلاج النفسي، لعلّه يساعدك على مواجهة العلامات الأولى لبلوغك سنّ اليأس!

ضغطَت غصّة القهر على حلقي وأنا أندفع نحو الباب لفتحه بحركةٍ أثارت ذهول السكرتيرة، ثم لجأتُ إلى المصعد منتظرة إغلاق بوابته بسرعة، كما لو كانت كلّ شياطين العالم في أثري. . .

جلستُ خلف عجلة قيادة سيارتي، والتقطتُ هاتفي المحمول بأصابعَ مرتعشة.

t.me/qurssan

نعم، لن أتّصل بمستشاري أو وكيلي الأدبي الحالي، ولا حتى بمايك، بل برقمٍ لم أنسَه بعد مرور ثلاث سنوات على آخر مرة سمعتُ فيها صوتَ صاحبه...

صوت هادئ واثق، قال «آلو» بعد رنّتين فقط، مجبراً شلال دموعي على الانهمار.

- براندون، أنقِذني، أنا بحاجة إليك!

* * *

t.me/qurssan

تمرين في مادة الفيزياء – السنة الثالثة من التعليم الثانوي (البكالوريا) – المقرّر الدراسي المعتمد لوزارة التربية الوطنية المغربية سنة 2002:

يتكوّن التركيب الكهربائي الممثّل في الشكل أسفله من:

– G: مولد لتوتر مستمر ثابت قيمته $U0 = 10\ V$

– مكثّف سعته $C = 5\mu F$

– وشيعة (b) معامل تحريضها $Lb = 0{,}8\ H$ ومقاومتها مهملة

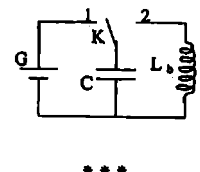
– K: قاطع التيار

1-1 نضع قاطع التيار في الموضع (1)، فيشحن المكثف. احسبْ قيمة الشحنة Q0 للمكثف.

2-1 نضع قاطع التيار في الموضع (2) في لحظة نأخذها أصلاً للتواريخ.

1-2-1 أثبت المعادلة التفاضلية التي تحققها Q شحنة المكثف.

1-2-2 أوجد تعبير الشحنة Q بدلالة الزمن.



* * *

t.me/qurssan

(2) الاعتداء

هي القصة نفسها التي تتكرّر دائماً، ذلك الشخص الذي لم يسمعه أحد، ولم يُعِرْه أحد أي اهتمام، فيعاقب الجميع بإجبارهم على متابعة ما يمكنه فعله.

ر.ج. إيلوري

الثلاثاء 14 مايو 2002
شاطئ سيدي العابد - الهرهورة:

مستلق على السرير، ألاعب قلم الحبر بأصابعي، وبجانبي دفتر تماريني، عاجزٌ عن حلّ مسألة سهلة في مادة الفيزياء، ولا غرابة في ذلك، ما دامت رغبتي في حساب قيمة الشحنة Q0 مصطدمة بانشغال ذهني بالبحث عن حلّ مسألة أخرى أكثر صعوبة:

لماذا تدهور مسار حياتي هكذا؟

أنا بالنسبة إلى البعض نموذج سيئ لأيّ فتى مدلّل أراحته حياة الثراء وأثّرت الرفاهية على قدراته العقلية، فكبّلته بقيود البلادة والكسل.

t.me/qurssan

لكن الحقيقة مجانِبَة تماماً لهذا التصوّر!

فزهير بلقاسم، ابن الطبيب المرموق يونس بلقاسم، والمحامية الصلبة حنان الفارسي، كان فتى مؤدّباً مطيعاً، على طريقة «كريم» الطفل النموذجي في مقرّراتنا الدراسية المضحكة.

تلميذ متفوّق، يهوى ركوب الخيل ويُتقن لعب الشطرنج، ويحظى بإعجاب وتقدير أصدقائه ومعظم أفراد عائلته.

لكنه ابتلي بوالدين أنانيين، أعماهما الطمع وأحلام الثروة والمقارنة مع فلان وعلان، ونسيا سنوات زواجهما الأولى، كشابين سعيدين يعيشان في منزل صغير بأثاث بسيط، فتسابقا نحو تسلّق سلالم النجاح، ولو كلّفهما الوصول إلى قمّتها اعتلاء ظهر أحبّ الناس إليهما.

ابنهما الوحيد، الأصغر من أن يفهم حقيقة ما يجري من حوله بحسب اعتقادهما...

الأب يستغلّ مهنته لاختبار فحولته، والأم تطوّع فصول القانون خدمة لمصالحها الغامضة!

والابن بينهما، يُعاني في انتقاله بين خانتَي الطفل المسالم والمراهق الشرس الذي يتعمّد إثارة المشاكل من حوله، كوسيلة احتجاج بلا جدوى، لتحذيرهما من غرقه في دوامة الضياع.

قلبت دفتر تمارين الفيزياء بين يديّ بازدراء، ثم رميته بعيداً بكراهية شديدة، كما لو أنه المسؤول المباشر عن مشاكلي، ثم هرعتُ إلى حقيبة ظهري، باحثاً بلهفة عن الحلّ السحري الجميل...

رشفة من زجاجة فودكا سرقتها من ثلاجة أبي السرّية، رغم عدم ملاءمتها لشهرٍ ارتفعت فيه درجة الحرارة لتبلغ مستويات قياسية.

t.me/qurssan

ما أعظمكم أيها الروس، صنعتم مشروباً أسطورياً يطير بصاحبه لسابع سماء!

لا بأسَ برشفةٍ واحدة أو رشفتين، قبل قدوم أمي لاصطحاب الغالية، لتبدأ بعدها سهرتي الحقيقية، ولتذهب تمارين الفيزياء وامتحان البكالوريا نفسه إلى الجحيم...

ستكون سهرتي أنا، بصحبة البحر والنجوم... والفودكا!

ألهبَ المشروب حلقي، لكنه استفزّني للاستزادة، فألصقتُ فوهة الزجاجة بفمي، متحدّياً نسبة كحوله العالية وخطورة فقدان السيطرة على نفسي قبل عودة أمي، لترتفع حرارة جسدي بعد دقائق معدودة، وينطلق لساني بما عجزَ ذهني عن تفسير معناه.

- الغالية! يا أفقر وأجمل مَن رأيت في حياتي... تعالي إلى هنا!

لم يستغرق الأمر سوى بضع ثوان لتظهر أمامي، متنبهاً لتحوّل إنهاك ملامح وجهها المليح إلى توجّس لن يكون سببه الرئيس سوى الزجاجة بعدما أخفيتها وراء ظهري.

- ما اسم القرية المعدَمَة التي تنجب فقيرات بمثل جمالك الخارق؟

رفعت حاجبها الأيمن تعبيراً عن دهشتها العارمة، أو دلالها الفطري لا فرق...

- متى ستعود لالة حنان؟ لقد تأخّرت كثيراً!

حملَ صوتها نبرة خوف واضحة، فحاولتُ طمأنتها بجوابٍ أكثر اتزاناً:

- هكذا هي أمي، لا شكّ في أنّ إغراء الثرثرة مع صديقاتها

t.me/qurssan

سيُنسيها موعد عودتها إلى هنا، لا مشكلة، ما رأيكِ بأن ننتظرها معاً؟

مدَدْتُ يدي نحو الفراغ، مفسحاً لها مكاناً للجلوس بجانبي، فلم تتزحزح قيد أنملة.

- لقد فشلت في حلّ تمرين الفيزياء، لكنني واثق من قدرتكِ على مساعدتي، رغم أنكِ مجرّد قروية جاهلة لا تفقه شيئاً في العلوم، يتعلق الأمر بمولّد للتوتر، ومكثّف ووشيعة. . .

- معذرة يا سيدي، أنا مضطرّة للذهاب.

تجاهلتُ عبارتها المقاطِعَة مواصِلاً:

- لنتخيّل معاً بأنّ مولّد التوتر هو أنا، والمكثّف هو الزجاجة التي أرعبتكِ. . .

ثم نهضتُ بحركة خاطفة للانقضاض عليها مضيفاً:

- والوشيعة ذات المقاومة المهملة هي أنت. . .

شَلّتها المفاجأة، بما سمح لي بتطويق وسطها بذراعي والاقتراب من عنقها بشفتي، لكنها تمكّنت بلياقتها المذهلة من التملّص مني ثم مواجَهتي بتحفّز:

- مَن تحسب نفسك أيها الحقير؟ ابتعِدْ عني وإلّا حطّمتُ أسنانك!

كانت صرخة هادرة تراجَعَت بعدها لتُغادر بما يشبه الهرولة، فيما ابتسمتُ أنا باستمتاع، مدفوعاً بإثارة صوتها المبحوح لتكرار المحاولة من جديد.

- يبدو أنّ معركة تطويع اللبؤة لن تكون سهلة، مما يؤكّد أنّ المرأة اختصار واضح لسرّ الحياة، لا تمنحك ما تريده إلّا إذا كنتَ جديراً به. . .

t.me/qurssan

كان كلاماً غريباً شعرتُ معه بأنّ ارتفاع درجة حرارتي يضغط بقوة على أنفاسي، فنزعتُ قميصي المبلَّل بالعرق ثم لحقتُ بها إلى البهو.

- لا تكوني عنيدة، أنا لا أفكّر سوى في مصلحتكِ، بم ستنفعك أشغال أمي الشاقّة إنْ لم يتخلّلها قضاء بعض الأوقات الممتعة معي؟ هل أنتِ...

لم أكمِل عبارتي، بل حوّلتها إلى ضحكة ساخرة بعدما التقَت نظراتي بعيني الغالية الجاحظتين وهي تعتصر مقبض سكين المطبخ بيدين مرتعشتين وتحتمي بطاولة الطعام في غرفة المعيشة.

- سأخبر لالة حنان بكلّ شيء!

شجّعني المشروب البارد الذي سرى في عروقي على تجاهل تهديدها والاقتراب منها أكثر، فنجحتُ مرة أخرى في الإمساك بمعصم يدها اليمنى، مطمئناً ربما إلى أنها أجبن من أن تهاجمني بسكينها.

ظنّ سخيف دفعتُ ثمنه بعد مرور ثانية واحدة فقط....

لم يكُن الجرح غائراً أو خطيراً، لكن الدماء القانية أغرقت ذراعي وأطارت صوابي، فصرختُ في هياج:

- أيتها الحشرة الوضيعة، كيف...

أعماني الغيظ، ولم أجد أمامي سوى المزهرية الخزفية الثقيلة لأقذفها بها، فنجحَت هي في تفاديها بصعوبة، لكن مؤخرة رأسها اصطدمت بمقبض النافذة المقابلة، لتسقط أرضاً فاقدة الوعي، وقد انبجست الدماء ملوّثة وشاحها المزركش.

منحني سعار الغضب وجنون الشهوة قوة إضافية أنستني آلامي،

t.me/qurssan

فحللتُ حزامها ومزّقتُ ثوبها الوردي المهترئ، كآخر عقبة قبل تحطيم بوابة الدخول إلى قلعتها الحصينة...

ألم أقُل لها بأنّ شرط حلّ تمرين الفيزياء هو وجود وشيعة مقاومتها مهمَلَة؟

* * *

t.me/qurssan

فيديو برنامج التقرير النهائي – حلقة خاصة عن مذبحة ثانوية كولومباين –قناة ناسيونال جيوغرافيك – إنتاج عام 2007

مقطع من الدقيقة 18 إلى الدقيقة 20:

(صوت المعلّق في الخلفية): إنه الثلاثاء 20 أبريل، عام 1999...

انتهت ثورة غضب التلميذين إيريك هاريس وديلان كليبولد في ثانوية كولومباين.

التلاميذ في صدمة!

(تلميذة تبكي بحرقة): كنت تحت الطاولة، وكان الناس من حولي يتلقّون الرصاصات!

(تلميذ يتحدّث وعلامات الصدمة بادية على وجهه): كانت معهما أسلحة أوتوماتيكية وبنادق وقنابل أنبوب...

اختطف الموت 12 تلميذاً (4 فتيات و8 شبان)، أستاذاً، والتلميذين مطلِقَي النار بعد انتحارهما.

في المدرسة وجد رجال الشرطة قنابل أنبوب وأغلفة رصاص، أدلّة تركت في المكان الذي شهد أسوء عملية إطلاق نار في تاريخ الولايات المتحدة الأميركية، وقد دفع مستوى العنف غير المسبوق رجال الشرطة ومسؤولي المدرسة إلى التساؤل:

هل لاحظَ الأساتذة في ثانوية كولومباين إشارات تحذير؟

في تلك الليلة، في منزلَي إيريك وديلان، عثر رجال الشرطة على كمّ كبير من الأدلة، تتضمّن ذخائر وأنابيب معدنية وفتيل مفرقعات، بالإضافة إلى مقالات ويوميات تحضّ على العنف.

وجدوا كذلك مجموعة من أشرطة الفيديو، أعدّها إيريك وديلان قبل أشهر من المجزرة.

تحوّلت المدرسة، بعد مرور أيام على عملية إطلاق النار، إلى نصب تذكاري تكريماً للضحايا...

ليبقى السؤال المحيّر جاثماً على أرواح كلّ المفجوعين بما حصل:

س : لماذا لجأ إيريك وديلان إلى هذا التصرّف الإجرامي؟

* * *

t.me/qurssan

(3) حكاية أميركية

إنّ المرأة لا تفهم الحب، وإذا أحبَّت
فإنها لا تحب إلّا الرجل الخطأ.

عبد الرحمن منيف

الخميس 26 سبتمبر 2002
سنترال بارك - مانهاتن:

لم يُخالف براندون توقعاتي بموافقته على مقابلتي، وبلا أدنى تردّد، متناسياً المشاكل السابقة التي دمّرت صداقتنا لثلاث سنوات، أراحني أنها لم تغيّره مطلقاً، بعدما حافظ على رفضه المعتاد لتناول وجبة العشاء معي في أحد مطاعم مانهاتن التي يسخر من فخامتها، مفضّلاً شراء علبتَي مياه غازية وشطيرتَي هوت دوغ، سنلتهمها -على حدّ تعبيره- في الهواء الطلق.

- موعدنا في سنترال بارك، بالقرب من البحيرة الجنوبية، بعد نصف ساعة من الآن.

ثلاثون دقيقة، كانت كافية لأستعيد جزءاً من ماضي علاقتي بهذا الرجل...

t.me/qurssan

التقيتُ به لأول مرّة في دنفر عام 1984، ضمن برنامج خاص يشارك فيه طلبة الجامعة لإعادة تأهيل الجنود الشباب العائدين من جبهات القتال ومساعدتهم على استكمال دراستهم والاندماج في الحياة المدنية بشكلٍ طبيعي.

شاب وسيم في مقتبل العمر، طويل القامة، عريض المنكبين، حليق الوجه، تحمل عيناه الخضراوان حزناً دائماً، ولا أصعب من رؤيته مبتسماً، ما منَحَه جاذبية فريدة من نوعها.

رجلٌ دمّرت الحرب حاضره بقتلها رفاقه، وأجهزَت على مستقبله بقطعها ساقه اليمنى...

أصيب براندون في تفجيرات ضربت مبنى تابعاً للقوات الأميركية في العاصمة اللبنانية بيروت سنة 1983، مدينة لا أعرف حتى موقعها على الخريطة، ولا أعتقد بأنه كان يعرف عنها الكثير أيضاً عندما أرسلوه إليها وهو بعد في التاسعة عشرة من عمره.

عاد الجندي الجريح من الجحيم اللبناني مصدوماً ومحطّماً، واضطرّ الأطباء لبتر ساقه وتعويضها بأخرى صناعية، سيكون مجبراً على التعايش معها مدى الحياة...

علمتُ بالأمر بعد مراجعتي للتقرير المرفَق بملفه، أمّا الاعتماد عليه هو للحديث عن ماضيه فكان أقرب للمستحيل.

وجدت فيه شاباً لطيفاً رغم وجومه الدائم، تفهّمت انطوائيته وحبّه للعزلة، فتعاطفتُ معه، باذلة كلّ ما في وسعي للتخفيف عنه، وبدافعٍ إنسانيّ يتجاوز ما كلفّتني به إدارة الجامعة.

عرّفته على مرافق الكلية، وقدّمتُ له بعض النصائح والإرشادات حول دروس السنة الأولى، كما ساهمتُ مع بعض الأصدقاء في

t.me/qurssan

الإعداد لحفلة صغيرة رحّب من خلالها زملاؤه الجُدد بقدومه، مصفِّقين له بحرارة، كبطلٍ تحدّى كلّ الصّعاب، مدافعاً عن العلم الأميركي بشجاعة وإقدام.

كلام عاطفي تفاعَل معه بشبحِ ابتسامة نادرة أدركتُ فيما بعد أنها مستهزئة لا مبالية...

انتهت مهمّتي مع البداية الرسمية للموسم الدراسي الجامعي، فالتحقتُ بأصدقائي في السنة الثالثة، تخصّص الآداب المعاصرة، دون أن يمنعني ذلك من التواصل معه من حين لآخر، حسب ما يسمح به وقتي أنا وربما رغبته هو أيضاً، ليقرّر فجأة فتح أوّل كوة في جداره المنيع، يوم عيد ميلادي الواحد والعشرين، ملبِّياً دعوتي لحضور الحفل، حاملاً بين يديه هدية صغيرة وأنيقة.

رواية السيدة دالواي لفيرجينيا وولف، بطبعة حديثة وتغليفٍ فاخر، وإهداء جميل لم أكن بحاجة إلى خبرة في علم الخطوط لأدرك بأنه كتَبَ بيدٍ خجولة مرتعشة.

كانت تلك البداية الحقيقية لصداقتنا الطويلة، بعد عثوري أخيراً على مَن يُشاطرني شغفاً لا يلقى أيّ اهتمام من شلّة أصدقائي.

القراءة...

ساعدني براندون على اكتشاف عوالمَ لم أدخلها من قبل، علّمني كيف أرقص مع زوربا، رافقني في جولة مرهِقَة مع ليوبولد بلوم في شوارع دبلن، كما فعل جويس في عوليس، دثّرني بمعطفٍ أعانَني على احتمال برد سانت بطرسبرغ في أثناء ملاحقتنا لراسكولنيكوف، الحائر بين الجريمة والعقاب، حاول فكّ رموز لاطمأنينة بيسوا معي، ثم قادنا تيه مئة عام من العزلة إلى لقاء سريع بـ الغريب، سبق عودتنا إلى وطننا، كائنين على الطريق مع جاك

t.me/qurssan

كيرواك، نبحث عن غاتسبي العظيم، ونتجنّب كلّ ما قد يجذبنا إلى دوّامة الصخب والعنف مع الحارس في حقل الشوفان.

سألته وقتها عن سرّ ولعه بالكتب فقال ببساطة أدهشتني:

– الأدب ليس خيالاً محضاً كما يتصوّر البعض، الأدب هو الحياة، وأجمل ما فيه تأرجحه على خيطٍ رفيع بين الواقع والخيال، ولا أحسبني قادراً على فهم عبثية حياة سلبَتني كلّ شيء، إلّا إذا أمسكت بطرف هذا الخيط الذي سيقودني إلى حلّ عقدتها!

وهكذا تطوّرت العلاقة بيننا، مع إصراري على إبقائها ضمن إطار محدَّد لم أكُن لأسمح له بالانزلاق نحو ما تريده سيناريوهات هوليوود...

تحدَّثَت والدتي عن العلامات الكونية والتاريخ الذي يُعيد نفسه، وكرَّرت على مسامعي قصة وقوعها في غرام والدي ثم زواجها منه مطلع الستينيات، بعد لقاء رتَّب له القدر بينهما في مدرج كلية دَرَسا فيها معاً، كما شجَّعني والدي على التقرّب منه، مُظهِراً إعجابه بمَن ذكَّره بشبابه كجندي قضى هو الآخر بضع سنوات من خدمته العسكرية خارج الولايات المتحدة، كان خلالها أفضل حظاً من براندون، بعمله في مناطق أكثر استقراراً، وعودته إلى بلده سليماً معافى.

فهمتُ قصدهما الواضح، وتظاهرتُ بالعكس، فهما يَعلمان بأنّ علاقتي بالشاب لن تتجاوز حدود الصداقة، ما دام قلبي محجوزاً ومشغولاً بشخصٍ آخر.

هل كان اختياري في محلّه؟

لا أدري...

t.me/qurssan

فات الأوان على طرح السؤال!

كلّ الفتيات يُعجَبن في البداية بمراهقٍ صِدامي متمرّد لا يُتقن سوى تمريغ كرامتهن في الوحل، ويحتفظن بفتى طيب ودود كـ«صديق»، وحدها الغبيّة التي تصرّ على تجاهل مشاعر الثاني، ماضية في علاقتها مع الأول حتى النهاية، معتقدة بأنّ السنوات ستغيّره ليصبح حبيباً ناضجاً ثم زوجاً مثالياً.

الأوّل هو مايك.

الثاني هو براندون.

والغبيّة هي أنا...

المهم أنّ نهر الحياة واصلَ جريانه الطبيعي، تخرَّجتُ من الجامعة بتقدير جيد، وحصلت على وظيفة أستاذةٍ في ثانوية كولومباين، تزوّجت ممّن اختاره قلبي، ثم أنجبت، لأغرق في الروتينية والرتابة التي تعيشها أيّ أم أميركية عادية.

أمّا براندون فكان أكثر حظاً (أو شجاعة) مني، رافضاً الخضوع لما سمّاها أغلال الرأسمالية المتوحشة، فاكتفى ببضع سنوات اكتسبَ فيها الخبرة محرِّراً ومدقِّقاً في دار نشر كبرى بنيويورك بعد تخرّجه من الجامعة، ثم انطلق لتحقيق حلمه بالعمل وَكيلاً أدبياً مستقلّاً، يقرأ المسوَّدات، يوجّه الكتّاب وينصحهم، ثم ينوب عنهم في الدفاع عن حقوقهم ومصالحهم مع دور النشر ووسائل الإعلام.

كان مؤمناً بأنّ السعادة هي في تحويل شغفه بالقراءة والأدب إلى عملٍ يَكسب به لقمة عيشه، ونجح في ذلك إلى حدٍّ بعيد، ما سمح له بالاشتغال أيضاً في وظيفة ثانية لا يقلّ شغفه بها عن حبّه للأولى.

أن يكون ملاكاً حارساً، يختفي طويلاً ثم يظهر في الوقت

t.me/qurssan

المناسب لإنقاذي من العواصف التي سلَّطها القدر على سفينة حياتي.

لم يكُن عقد التسعينيات رحيماً بي، فقد اختطفَت والدي نوبة قلبية مفاجئة في بدايته، وحرمني السرطان من والدتي في منتصفه.

ثم صعقتني مذبحة ثانوية كولومباين وانهار تماسك أسرتي الهشّ في نهايته...

اهتمّ الجميع بما جرى في اليوم المشؤوم، وحَظِيَ الضحايا الأبرياء بالتعاطف والتضامن، ولم يفهم أحد حقيقة دوافع إيريك وديلان لارتكاب المجزرة المروعة.

وأنا؟

مجرّد محظوظة أخرى، لم تفقد حياتها رمياً بالرصاص، ولم تُصَبْ بجروح، طفيفة كانت أو بليغة، وليست والدة أو قريبة قتيل أو جريح. لن يهتمّ أحد بانطباع صور القتلى ورائحة الدماء وأصوات إطلاق النار في ذاكرتها، أو عجزها عن التخلّص من رعبٍ مُميت سيطَرَ عليها، يوم اختبأت تحت الطاولات مع طلبتها، تترقّب وصول المراهقين المسعورين إلى الطابق الذي يضمّ حجرتها الدراسية.

أدخلتني آثار الحادثة في نوبة اكتئاب حادّة، تطلّبت خضوعي لعلاج نفسي مركّز استغرق أسابيع طويلة، واستنزَفَ من جهدي وطاقتي الكثير، وسط لامبالاة مقرفة من زوجٍ حقير استخفّ بي، ولم يكلّف نفسه عناء الوقوف بجانبي في محنتي، معبِّراً عن ضيقه التام من دخولي في حلقة مفرغة تتأرجح بين الأرق والاستسلام للكوابيس، ثم الإدمان المرضي على تناول المهدّئات القوية.

نقطة أفاضَت كأس احتمالي الطويل لأنانية رجلٍ لم أشعر ولو لثانية واحدة خلال سنوات زواجنا بأنه يهتمّ لأمري، فطلبتُ الطلاق

t.me/qurssan

وانتقلتُ للعيش وحدي في منزل والدي، مفجوعة بتفضيل سيندي ورونالد البقاء مع والدهما.

ثم ظهرَ براندون فجأة ليُنقذني من ضربة قاضية لم تكُن لتقودني إلّا إلى الجنون أو الانتحار.

جاء حاملاً معه الحلّ، أو القلم الذي كتبتُ به فصلاً جديداً من حياتي...



t.me/qurssan

جمعية «الوردة المتفتّحة» للدفاع عن حقوق النساء تعقد لقاء تواصلياً للتحسيس بمعاناة خادمات البيوت

(صحيفة الرأي – صفحة قضايا المجتمع – عدد الاثنين 1 أبريل 2002)

عقدت جمعية «الوردة المتفتحة» للدفاع عن حقوق النساء، يوم الجمعة 29 مارس الماضي، لقاء تواصلياً مع أعضائها وباقي فعاليات المجتمع المدني، وذلك بمقرّ الجمعية في حيّ أكدال بالرباط، لمناقشة موضوع معاناة خادمات البيوت، القاصرات منهن على الخصوص، والبحث عن السُبل الكفيلة لحمايتهن من كلّ أشكال التمييز والاستغلال النفسي والجنسي التي قد يمارسها المشغّل.

وفي هذا الصدد، دعت المحامية والناشطة الحقوقية البارزة حنان الفارسي إلى محاربة الفوضى التي يعرفها القطاع غير المهيكل، مؤكّدة على ضرورة الإسراع بإصدار قوانين تنظيمية تؤطّر عمل الخادمات وتلحق عقوبات جزرية قاسية بأيّ منتهكٍ لكرامتهن، كما أشارت أيضاً إلى مسألة خضوع بعض الآباء لجشع السماسرة، خاصة في المناطق القروية المنسيّة، ممّن يدفعهم الفقر إلى المتاجرة ببناتهن القاصرات وإجبارهن على مغادرة مقاعد الدراسة في سنّ مبكرة، المعضلة التي تتطلب -بحسب المحامية- حلاً عاجلاً للحدّ من آثارها وتداعياتها الخطيرة على المكتسبات الحقوقية للمرأة المغربية في العهد الجديد.

t.me/qurssan

السقوط (3')

الخير والشرّ هما معيار حكمنا على الإنسان، ولكن، هل هذا كافٍ؟

دوناتو كاريتشي

الثلاثاء 14 مايو 2002

شاطئ سيدي العابد - الهرهورة:

كانت بضع ثوانٍ كافية لتُدرك الغالية -بعد استعادتها لوعيها- فداحةَ ما اقترفتُه بحقّها، فأخرَسَتها الصدمة لدقائق اهتزّ فيها جسدها بنشيج خافت، رافقه سعيها المحموم نحو ستر ما ظَهَرَ من صدرها وكتفيها وفخذيها بالأسمال التي مزّقتُها في أثناء اعتدائي عليها، مستسلماً لفورة شهوة شجّعها السُّكر على ارتكاب ما لم يدُر بخلدي يوماً أنني سأمتلك القدرة على فعله.

أجل، أقرّ بتسبّبي في قائمة طويلة من المشاكل الصبيانية:

سهرت حتى أوقات متأخرة في العلب الليلية، مضيعاً بذلك الكثير من الحصص الصباحية.

تشاجرتُ مع أصدقائي لأتفه الأسباب، ما عرّضني للتوبيخ داخل أسوار الثانوية وخارجها.

t.me/qurssan

وبطبيعة الحال، لم يكن الرسوب في امتحانات السنة الماضية سوى تصرف متعمّد مني. . .

أمّا اغتصابي لخادمة لا حول لها ولا قوة، وفي مشهد سريالي وحشيّ امتزج فيه العرق بالدماء، والأنين باللهاث، فلا تفسير له سوى اقترابي من نقطة اللاعودة، إن لم أتجاوزها أصلاً!

لم يكُن خوفي أقلّ من جزع الغالية، فعجزتُ عن منع جسدي من الارتجاف، مترقّباً عودة أمي وردّة فعلها الغاضبة بعد اكتشافها لما حصل في غيابها.

أقنعتُ نفسي بأنّ الفتاة ستُغلق فَمَها بإحكام، ولن تجسر على فَضْح نفسها، إلّا إذا دفعها الجنون إلى المغامرة بسُمعةٍ أعلم أنها أغلى ما تملك في عُرفِ وَسَطٍ مُغلَق تنتمي إليه، فاقتربتُ منها حاملاً منديلاً أبيض غمرته بالكحول، في محاولة لتنظيف جرح رأسها ومساعدتها على النهوض.

تصرّف أخرق أشعَلَ فتيل سعارها، وأطفأ بسرعة وميض قناعة سخيفة لجأتُ إليها بحثاً عن استعادة هدوئي. . .

دفعتني الغالية لأسقط أرضاً، وشَلَّ الشعور العارم بالنّدم حركتي، مستسلماً لضرباتها وصفعاتها الهستيرية، ومصدوماً بقدرتها المذهلة على قراءة ما يجول في ذهني من أفكار.

- قد أكون قروية فقيرة كما تقول أنتَ وأمك، لكنك ستدفع ثمن ما فعلته، ولن يهدأ لي بال إلّا برؤيتكَ خلفَ قضبان السجن!

قالت ذلك بنبرةٍ قاسية لا تتناسب مع حالتها المزرية والدموع التي سالت على خديها، ولا علاقة لها بخادمة خانعة نعتَتْها أمي بالبقرة البكماء طوال أسابيع معدودة قَضَتْها معنا.

t.me/qurssan

هل أخطأنا باعتقادنا أنها أمّية جاهلة، لا تَفقَه شيئاً ولم يسبق لها الجلوس على مقاعد الدراسة قط؟

تساؤل تبخَّر بسرعة البرق عندما تراجَعَت فجأة عن ضربي، واندفَعَت نحو باب المنزل لفَتحه، فتبعتها صارخاً:

- الغالية! الغالية! عودي إلى هنا، لا تتهوّري، أرجوك!

ضاع صدى صوتي في الفراغ المخيّم على المنطقة المقفرة، فيما أطلقَت هي ساقَيها للريح، ضامّة طرفَي الثوب الممزّق لأعلى صدرها، وغير آبهة بخصلات شعرها المتطاير، ومنعني من اللحاق بها تيار هوائي بارد ذكَّرني بعدم ارتدائي للقميص، فعدتُ للبحث عنه، مضيّعاً وقتاً لم أفهم عندئذٍ أنه أثمن ممّا كنت أتصوّر.

تجاوزتُ منطقة المنازل الشاطئية الخالية من أيّ وجود بشري يُذكر، ووصلتُ إلى الممرّ الترابي المؤدّي إلى الطريق الرئيسة، مستعيناً فقط بضوء القمر، فسقطتُ مرّتين، استعدتُ خلالهما توازني بصعوبة بالغة، منادياً باسم الغالية، ومستسلماً ليأسٍ قضى على كلّ آمالي في إصلاح خطئي القاتل.

هل ستبحث عن أقرب مخفر للدرك أو الشرطة للتبليغ عني؟ أم أنّ الصدمة والجهل بالمنطقة الشاطئية المنعزلة سيعطّل تفكيرها، وربما يدفعها إلى الهروب نحو وجهة لا تعلمها هي نفسها؟

لم تدُم حيرتي طويلاً، بعدما باغتني ضوء مصباح يدوي في أثناء انهماكي في إزالة حبّات الرمل العالقة بقميصي، ما أجبرني على التراجع إلى الوراء والهتاف بخوف:

- مَن... مَن أنت؟

غطّى الظلام نصف وجهه الذي لم يظهر منه سوى شاربٍ كثّ وعينان لمستُ فيهما مكراً واضحاً، أيّدَته صرامة مصطَنَعة تكلَّم بها:

t.me/qurssan

- أعتقد بأنني المخوَّل لطرح السؤال، فأنا حارس منطقة الإقامات الشاطئية، وسأبلغ رجال الدرك حالاً، إذ يبدو لي أنك أحد أولئك العابثين الباحثين عن لحظات متعة خاطفة مع خليلاتهم بالقرب من شاطئ البحر، ولا شكّ في أنّ الأمور أخذت منحى آخر غير ما خطَّطتَ له، إذ لمحتُ شبح فتاة غريبة ابتلَعَها الظلام قبل أن أتمكّن من الإمساك بها.

الغالية بلا شك...

أيّد استنتاجه المنطقي احتماء الكثير من السكارى والعشاق بشاطئ معزول لا يهتمّ به أحد خارج فترة العطلة الصيفية، لكنه لم يَسمح لي بدحض ظنّه، مكمّلاً باستهزاء:

- لكن لا بأس، إن لم يُصِب الحجر عصفورين اثنين، فهو قادر على الإيقاع بعصفورٍ واحد فقط!

قَرَنَ كلامه ببحثه عن هاتفه المحمول، فانتبهتُ لإمساكه بعصا غليظة أشهَرَها في وجهي أولاً، ثم ألصقَ رأسها المدبَّب بصدري، في حركةٍ راودني شعور خفيّ بأنها استعراضية، لكن ضغطه على أزرار الهاتف ضاعَفَ من قلقي، فاضطررتُ للعب أوراقي كاملة:

- لا تفعَلها، أتوسَّل إليك، أنا زهير، ابن الدكتور بلقاسم، صاحب المنزل رقم 6، والهاربة هي خادمتنا، وقد فرَّت بعد شجاري معها...

ثم كشفتُ عن ورقتي الأخيرة بسؤاله:

- كما أنني لم أرَكَ هنا من قبل، المعطي هو الحارس المعتاد الذي أعرفه جيداً، مَن أنتَ إذاً؟

* * *

t.me/qurssan

رسالة إلكترونية توصّل بها رشيد بناصر، الطالب الباحث في سلك الدكتوراه تخصّص الآداب المعاصرة من الأستاذ المشرف على أطروحته:

MESSAGE INSERT OPTIONS FORMAT TEXT REVIEW

Send

From	abadrouni@wanadoo.net
To	rbennacer@wanadoo.net
Date	14-09-2002 16:11

مرحباً،

أشارك حالياً في ندوة علمية بالعاصمة التشيكية براغ، ولا يسمح وقتي بالردّ على رسائلك واستفساراتك الكثيرة بشكلٍ مفصّل.

لا أتّفق مع رغبتك في تناول رواية **أحجية مغربية** بالتحليل في أطروحتك، فهي رواية بوليسية رديئة ومجهولة، يمكن إدراجها في خانة أدب الرصيف، ولا تستحقّ في نظري إخضاعها لمقاربة نقدية رصينة.

ابحَثْ عن نموذجٍ آخر، واقترح من جهتي رواية **رغبة دفينة** لأنها مناسبة لموضوع البحث، وأستطيع ربط الاتصال بينك وبين مؤلفها، فهو صديق شخصي لي.

تحياتي.

t.me/qurssan

رسالة إلكترونية توصّل بها رشيد بناصر، الطالب الباحث في سلك الدكتوراه تخصص الآداب المعاصرة من الدكتور فابيان بيدو، الباحث الفرنسي المتخصص في الدراسات العربية بجامعة السوربون بباريس:

MESSAGE INSERT OPTIONS FORMAT TEXT REVIEW

Send

From fbedos@wanadoo.net

To rbennacer@wanadoo.net

Date 20-09-2002 23:18

الصديق العزيز رشيد بناصر،

تحية طيبة.

لعلك تتساءل عن سبب مناداتي لك بالصديق، رغم أنني لا أعرفكَ بشكلٍ شخصي، لكنك على علم -بلا شك- بقاعدة يحفظها كلّ عاشق حقيقي للأدب:

ان تعتبر كلّ مَن قرأ كتاباً تعرفه صديقاً حميماً لك...

بالعودة إلى موضوع رسالتك، هي أول مرة يتواصل معي فيها باحث مغربي مهتمّ بـ **أحجية مغربية**، رواية متميزة اعتبرني محظوظاً بقراءتها وترجمتها إلى الفرنسية وتقديمها لطلبتي كنموذج يستحقّ الدراسة والتحليل.

الرواية مناسبة لأطروحتك، وتتضمّن عناصر تتلاءم بشكلٍ كبير مع مقاربتك النقدية حول موضوع تقنيات السرد في الرواية الجديدة، وأستغرب سبب تهميشها وانتقاص أستاذك من قيمتها، رغم أنها تكشف عن موهبة صاحبها ومتابعته الدقيقة للتحوّلات المجتمعية في بلده.

t.me/qurssan

لكنه قَدَر الأدب الرفيع، أن يبقى خالداً ويفاجئك دوماً بانبعاثه من العدم، متحدّياً غبار التجاهل والنسيان، ولنا عبرة بفرانز كافكا الذي أوصى صديقه ماكس برود بإحراق مخطوطات أعماله، فخالف الصديق الوصية ونشرها، لنجدَ أنفسنا أمام أديب فذّ تَرَكَ بصمته القوية في الأدب العالمي الحديث، رغم أنّ معظم قصصه ورواياته غير مكتملة.

اعتبرها إذاً رسالة تعارف أولى، وتأكّد بأنني سأبذل ما في وسعي لمساعدتكَ على التقدّم في بحثك الأكاديمي.

مع المودّة والتقدير.

صديقك فابيان.



(4) الدرجة الصفر للكتابة

الكتابة مثل الألعاب السحرية: لا يكفي إخراج الأرنب من القبعة، بل يجب عمل ذلك بأناقة وبطريقة ممتعة.

إيزابيل الليندي

الخميس 26 سبتمبر 2002

سنترال بارك - مانهاتن:

لاح شبح القادم من بعيد، بالتزامن مع وصولي إلى تلك النقطة من ذكرياتي، فنهضتُ مستعدّة لاستقباله، قائلة بمرحٍ مصطنع أخفيتُ به لهفتي الشديدة لرؤيته:

- المعطف الشتوي الطويل، والقبعة السوداء، يخيّل إليّ بأنك...

- المحقق الخاص «أزرق» في رواية الأشباح، الجزء الثاني من ثلاثية نيويورك لصديقنا بول أوستر.

علّقتُ على جوابه بضحكة صافية وأنا أعانقه بحرارة، ثم دعوته للجلوس على المقعد المقابل للبحيرة، مستغلة بعض الثواني الخاطفة لتفقّد ما غيّرته السنوات الماضية في ملامحه.

t.me/qurssan

كان قد أضافَ لوجهه لحية خفيفة مبعثرة قليلاً، كما سمحَ للتجاعيد بالتسلُّل إلى جانبَي عينيه، وعندما نزعَ قبعته اكتشفتُ ظهور بعض الشيب على فوديه، ما ضاعَفَ من وسامته أكثر.

آه يا عقلي الأحمق، أين كنتَ يوم فضَّلتُ مايك على براندون؟ أين!

- أعترف بأنني لن أمانع إن وضَعَ قاموس أكسفورد البريطاني صورتي مقابل كلمة «غباء»، فهذا أقلّ ممّا أستحق...

لم أجد أفضل من هذه العبارة لأبدأ بها كلامي، منتظرة رداً عنيفاً يُحاسبني على كلّ ما فعلته، لكنه أكَّد لي ما أعرفه عنه منذ ثمانية عشر عاماً، باكتفائه بابتسامة هادئة، ودفع شطيرة الهوت دوغ وعلبة المياه الغازية ناحيتي.

أثَّر الانفعال على تماسكي الظاهري، فالتقطتُ سيجارة من علبةٍ أضعها في جيبي، وأطبقتُ على مبسمها بشفتَيّ، لكنه انتزعها مني بسرعة، قائلاً بسخرية:

- لا تصدِّقي أيّ كلام فارغ يربط التدخين بالإبداع، لن تساعدك السيجارة على تجاوز أزمتك، بل ستفاقمها أكثر، تخيّلي معي صورة تعريفية لكِ على ظهر غلاف عملكِ القادم، بشفاه مزرقّة وشعرٍ متقصّف وهالات سوداء حول عينيك، سيفكّر القراء ألف مرة قبل شراء النسخة!

فغرتُ فاهي بدهشة، فأضاف بجدية:

- الواقع أنني لم أفاجَأ أبداً باتصالكِ، فتدهور علاقتكِ بسايمون آند شوستر نتيجة طبيعية لقبولكِ بعقدهم الاستغلالي المغلَّف بإغراءات مادية، وظهر ذلك جلياً في أسرار العتمة والملاك الصامت.

t.me/qurssan

- قرأتهما حقاً! وما رأيك بهما؟

فضح الهتاف شوقي لمعرفة انطباعه عن الروايتين اللتين كتبتهما بعد انقطاع علاقتنا، فغمزّني بعينه اليمنى، ثم قضمَ قطعة من شطيرته، مُجيباً بفمٍ مملوء:

- أيّهما تفضلّين، الصدق أم المجاملة؟

قرأ الجواب الواضح في عيني، فأكمل بلهجة تأرجَحَت بين الحزم والاستهزاء المبطّن:

- تافهتان، لا تنخدعي بأرقام مبيعات تخفي تراجعاً مخيفاً في مستوى أعمالك الأدبية.

ثم فتح علبة المياه الغازية، وأفرَغَ نصف محتواها في جوفه، متعمّداً تجاهل صدمتي.

- تطوّرت الأحداث في أسرار العتمة بشكلٍ مقبول، لكنك أفسدتِها بنهاية سخيفة لا تصلح سوى لروايات الدرجة الثالثة.

زاد تعليقه الجاف من حنقي، فقلتُ بنبرةٍ متحدّية:

- القرّاء بحاجة إلى نهايات سعيدة تُعيد لهم الأمل بمستقبلٍ أفضل، لأنهم...

قاطعني مستعيداً بعض صرامته:

- ومَن قال بأنك مُجبرة على كتابة ما يريدونه؟ كان بإمكان همنغواي مثلاً إنهاء وداعاً للسلاح بوصول فريدريك وحبيبته إلى الجبال، هاربين بحبهما بعيداً عن أهوال الحرب، لكنه اختار قتل كاترين وجنينها بعد الولادة، عكس رغبة القراء. فالرواية القوية قادرة على محاكاة الواقع الأخرق، بسوئه وظلمه ومرارته، وإن كانت أحداثها من نسج الخيال.

- وماذا عن الملاك الصامت؟

t.me/qurssan

أجابني ببساطة:

- لم تأخذ وقتها الكافي من التحضير، بسبب إجبارك على كتابة رواية واحدة كلّ سنة، فجاءت حبكتها ضعيفة مهلهلة، الشخصيات كاريكاتورية لا تُشعرك بصفتك قارئاً بإمكانية وجود مثلها على أرض الواقع، كما أنّ سرعة إنجازها أسقطتكِ في بعض الأخطاء الهيكلية، واعذريني إن قلتُ صراحة بأنها لم تحقّق مبيعات جيّدة إلّا لوجود اسمكِ وصورتكِ على الغلاف، وهي حيلة لا أضمَن نجاحها مرة أخرى.

أفقدتني عبارته الأخيرة تحكّمي بما يعتمل في أعماقي من مشاعر متناقضة، فدافعتُ عن وجهة نظري بأسوء طريقة ممكنة:

- أنت تشكّك بموهبتي لعدم تقبّلك قرار الاستغناء عن خدماتك بعد نجاح روايتي الأولى ودخول سايمون آند شوستر على الخطّ لاحتضاني بعَقد لا يُرفض...

تسبّبت عصبيتي في دلق القليل من المياه الغازية على ملابسي، فاقتربَ منّي حاملاً منديلاً ورقياً لتنظيفها، متحدّثاً ببرودِ مَن لا تعنيه قسوة ما قلته:

- بل أواجهك بحقيقة تحوّلكِ إلى كاتبة على مقاس تفاهات عصر ما بعد الحداثة، نجمة شباك يهتمّ القراء بحياتها الخاصّة وصورها المثيرة على أغلفة مجلات الموضة، أكثر من اهتمامهم بما تكتب، نعم، سيحقّق لكِ النجاح المزيف ثراء فاحشاً، بما يمكّنك من شراء منزلٍ فَخم بضواحي نيويورك وإقامة شاطئية رائعة تطلّ على شواطئ ميامي، لكنه لن يضعكِ ضمن مصافّ العظماء، لستِ بالنسبة إلى ناشرك سوى فقاعةٍ، نلتِ إعجاب وتعاطف القراء بعد نجاح روايتكِ الأولى التي مَزَجْتِ فيها بين الخيال الإبداعي والواقع المرير

t.me/qurssan

لتجربتك مع المجزرة المروعة، فقامت باستغلال نجاحك، وأقنعتكِ بأنّك أكبر من التعامل مع وكيل مغمور مثلي، واعتمَدَت أيضاً على تقاسيم وجهك الجميل لتزيين أغلفة كتبكِ ومضاعفة أرباحها، وستكون أوّل مَن يرميك بعد تراجع الاهتمام باسمك، إلّا إذا استعدتِ زمام الأمور، بما يجعل من روايتك القادمة ميلاداً جديداً لقلمكِ، لا إعلاناً رسمياً عن وفاته.

انتابتني سعادة خفيّة لتضمينه عبارة «تقاسيم وجهك الجميل» في كلامه، ولعنتُ في سرّي انجرافي السخيف وراء مزاجيتي، فاقتربتُ منه بدوري، مختصرة لبضعة إنشات ما تبقّى من مسافة بين ركبتي وساقه الاصطناعية.

- أوستر وكينغ أصدرا روايتيهما الجديدتين، فيما أجوب أنا صحراء قاحلة، باحثةً عن ربع فكرة تصلح لاستغلالها روائياً، من دون جدوى، والمصيبة الكبرى هي في إجباري على تسليم مخطوطٍ لَعين لم أكتب فيه حرفاً واحداً بعد شهرين فقط من الآن، ماذا سأفعل؟

لانَت أساريره، مستسلماً لنظراتي المتوسّلة، وأطبقَت أصابعه الطويلة على أنامل يدي، كمَن يحميني من خطرٍ قادم لا يدري أيّ منّا كنهه بالضبط.

- لقد آمنتُ بموهبتك يا عزيزتي منذ اليوم الذي سمحتُ فيه لنفسي بقراءة نصوص وقصص وخواطر كنتِ تكتبينها في شبابك، وتذكرين بأنني شجّعتك وقتها على إبراز قدراتك، ففضّلت الاختباء وراء رضاك بدور القارئة، واستسلامك لحظّ رَبَطَكِ بزوجٍ أبله، لم يكن ليتقبّل تفوّقك، ما تطلّب مني صبراً استغرق سنوات قبل استغلالي إيجابياً للأزمة التي مرَرت بها، مُعيداً إحياء حلم تقديمك

t.me/qurssan

للجميع ككاتبة متميزة، ومطمئناً لثقتي بأنّ الكتابة ستنجح في ما فشلَت فيه الأدوية وجلسات العلاج النفسي المدمِّرة.

شجّعني حنانه على المضيّ قُدُماً في لعبة استفزاز رجولته بضعفي الأنثوي، فقلتُ برجاء طفلة تبحث عن دميتها المفقودة:

- أنا بحاجة إلى فكرة خارج الصندوق. . .

التهم ما تبقّى من شطيرته، ثم كوَّر المنديل الورقي قائلاً بغموض مَن يثق بامتلاكه حلاً لكلّ شيء:

- خارج الصندوق، وربما خارج الولايات المتحدة الأميركية كلها. . .

- ماذا تقصد؟

نجحت عبارته الملغزة في استثارة فضولي، فتظاهرَ باللامبالاة، مستعرضاً مهارته في رمي المنديل المكوّر نحو سلة المهملات، وانتظر طويلاً ليُجيب عن سؤالي بكلمة واحدة لم تزِدْ حيرتي إلّا اشتعالاً:

- المغرب!

* * *

t.me/qurssan

مقتطف من مجموعة القانون الجنائي المغربي، (حسب القوانين والتعديلات المعمول بها سنة 2002):

الفصل 475

من اختطفَ أو غرَّر بقاصرٍ يقلّ سنّها عن الثامنة عشرة، من دون استعمال عنفٍ أو تهديد أو تدليس أو حاول ذلك، يُعاقب بالحبس من سنة إلى خمس سنوات وغرامة مالية تتراوح ما بين 200 و500 درهم. ومع ذلك فإنّ القاصر التي اختطفت أو غرّر بها، إذا كانت بالغة وتزوّجت مَن اختطَفَها أو غرَّر بها، فلا يمكن متابعته إلّا بناء على شكوى من شخصٍ له الحقّ في إبطال الزواج، ولا يجوز الحكم بمؤاخذته إلّا بعد صدور حكمٍ بهذا البطلان حقاً.

وإذا رفضت الضحية الزواج من الجاني فإنّ والدها أو الوصيّ عليها قد يُجبرها على ذلك.

الفصل 486

الاغتصاب هو مواقعة رجل لامرأة دون رضاها، ويعاقب عليه بالسجن من خمس إلى عشر سنوات.

غير انه إذا كان سنّ المجني عليها يقلّ عن ثماني عشرة سنة أو كانت عاجزة أو معاقة أو معروفة بضعف قواها العقلية أو حاملاً، فإنّ الجاني يعاقَب بالسجن من عشر إلى عشرين سنة.

الفصل 487

إذا كان الفاعل من أصول الضحية أو ممّن لهم سلطة عليها أو وصياً أو خادماً بالأجرة عندها أو عند أحد من الأشخاص السالف ذكرهم، أو كان موظفاً دينياً أو رئيساً دينياً، وكذلك أيّ شخص استعان في اعتدائه بشخص أو بعدّة أشخاص فإنّ العقوبة هي:

– السجن من عشر إلى عشرين سنة، في الحالة المُشار إليها في الفقرة الأولى من الفصل 486.

– السجن من عشرين إلى ثلاثين سنة، في الحالة المشار إليها في الفقرة الثانية من الفصل 486.

* * *

t.me/qurssan

(4) الأم

القوانين شبيهة بشباك العنكبوت: يجتازها الذباب الكبير ويعلق فيها الذباب الصغير.

أونوريه دي بلزاك

الأحد 28 يوليو 2002

حي الرياض - الرباط:

رميت الكرة البلاستيكية بعيداً، فانطلق سبايك، كلب الراعي الألماني، كالسهم باحثاً عنها بين شُجيرات حديقة الفيلا الواسعة.

كلب متوسط الحجم، سريع الحركة، شديد الذكاء، يرافقني منذ خمس سنوات.

ولم أجد أفضل منه ليكون صديقي الوحيد...

عاد إليّ حاملاً الكرة في فمه، وتمايل ذيله في تعبيرٍ عن سعادته بتنفيذ المهمة، فداعبتُ ظهره وقمة رأسه، مشاطراً إياه هاجساً أقضَّ مضجعي لأسابيع طويلة:

- برأيك يا سبايك، أين اختفت الغالية؟

تطلّع إليّ بعينين متسائلتين، ثم أيّد حيرته بنباحٍ أبدى من خلاله استعداده لخدمتي بأيّ شيء سوى الاستماع إلى كلامي، فقذفتُ

t.me/qurssan

الكرة البلاستيكية نحو أبعد نقطة ممكنة، مستغلاً الفرصة للدخول عبر الباب الصغير قبل تمكّنه من اللحاق بي.

قادتني قدماي نحو غرفة مكتب أمي، ثم توجّهت كالمنوَّم مغناطيسياً نحو مكتبتها، باحثاً عن مرجعٍ قانوني ضخم بين المراجع المتراصّة على الرفوف.

وضعته على الطاولة ثم تصفّحته بسرعة، وصولاً إلى فقرات صرت قادراً على استظهار محتواها مغمض العينين.

كل فصول القانون الجنائي ضدي، وكان بإمكان الحادثة أن ترمي بي في غياهب السجون وتؤدّي إلى دمار مستقبلي، إن ثبت لرجال الشرطة والقضاة بأنني مذنب.

وحتى لو تدخّلت أمي لإنقاذي من المصير الكارثي المحتوم، فلا أستبعد تفضيلها الموت على القبول بتسوية زواجي من الخادمة، لكونها فضيحة ستجرّ عليها سخرية وتشفّي صديقاتها، لالة فلانة ومدام علّانة.

ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث. . .

لم تصل القضية إلى المحاكم، ولم يعلَم بتفاصيلها أحد، ولم يظهَر للغالية أيّ أثَر بعد هروبها من المنزل الشاطئي، رغم تهديدها بإبلاغ الشرطة والانتقام لشرفها المنتهَك!

أزحتُ المرجع جانباً، ووضعتُ يديّ المرتجفتين على رأسي، مستنداً بمرفقي على سطح المكتب، ثم أغمضتُ عيني، منتظراً انطلاق البثّ اليومي لشريطٍ تسجيليّ أخرجته ذاكرتي باحترافية منقطعة النظير، موثّقة بدقّة تامّة تفاصيل ما وقع في تلك الليلة.

*

نجحَت عبارتي الأخيرة في كبح جماح أصابع الحارس

t.me/qurssan

المتحفِّزة لإجراء الاتّصال، فاستعدّ لمحاصرتي بأسئلة أخرى، لكن صوت إطارات سيارة تحتك بالتراب والحصى، والأضواء الكاشفة المسلطة على وجهينا، أجبرَت كلينا على الالتفات.

وعادت أمي أخيراً.

متأخّرة عن موعدها بما يفوق ساعة كاملة...

- ما بكَ يا زهير؟

هرعَت نحوي بوجلٍ حقيقيّ بعد انتباهها للدماء المتخثرة في ذراعي، وتجاهلت وجود الحارس بعد تراجعه قليلاً إلى الوراء، فلجأتُ إلى حضنها كطفلٍ في الخامسة، متناسياً فارق الطول بيننا، واحتبستُ الكلمات في حلقي، مخفقاً في تحويل أيّ منها إلى صوتٍ مسموع.

انفكَّت عقدة لساني أخيراً تحت تأثير الاستجواب الجنوني لأمي، ففاجأتها بانهياري واعترافي الصريح باغتصاب الخادمة تحت تأثير السُكر، ولم أغفل صدمتها بعد علمها بهروبها، لكنها استعادَت رباطة جأشها، مستفيدة من خبرتها الطويلة، فأمَرَتني بركوب السيارة، ثم طلبَت من الحارس -وقد سمع كلّ شيء تقريباً- اللحاق بها إلى المنزل، فأطاعَها بلا تردّد.

أشارت الساعة عند عودتهما إلى تمام العاشرة ليلاً، محمّلين بالحقائب التي أحضرناها قبل ساعات قليلة، وبدت أمي أكثر هدوءاً (أو أنها نجحت في التظاهر بذلك ببراعة)، مكتفية بهزّة سريعة من رأسها لتحيّة الحارس الذي لوّح بيده مودعاً، ولم تتكلم إلّا بعد قطعنا عدة كيلومترات عبر الطريق الرئيسة المؤدّية إلى الرباط.

- التهامي، مجرد حارس مؤقّت بلا عملٍ ثابت، قام بتعويض شقيقه المعطي بعد سفر الأخير إلى قريته لزيارة أمهما المريضة...

t.me/qurssan

أدهشتني عبارتها البعيدة تماماً عن الموضوع، بعد انتظاري لمرافعة مملّة تلومني فيها على تهوّري وعدم تقديري لخطورة ما أقدمتُ عليه، لكن نبرتها المحايدة التي يصعب كشف مغزاها أكّدت لي بأنها لا تخاطبني أنا، وإنما تمارس عادتها الأثيرة بالتفكير بصوتٍ عالٍ، فانكمشتُ في مقعدي، مفسحاً المجال لجُمَلها القصيرة والمباشرة:

- لم تلجأ الغالية إلى الصمت لمداراة ما وقع، بل هدَّدت بإبلاغ الشرطة، ما يؤكّد كلام السمار عندما حذّرني من قساوة طباعها رغم تمتّعها بقوة بدنية هائلة تسمح لها بالقيام بأكثر الأعمال المنزلية صعوبة بلا كلل أو شكوى. . .

- نسيَت الغالية جرح رأسها وحالتها المزرية بعد تمزيق ثيابها، ما يعني إصرارها على تنفيذ تهديدها. . .

- أكّدت أسابيع قليلة قضتها الغالية معنا تمتّعها بذاكرة بصرية ممتازة، لا أستبعد توظيفها لتسجيل تفاصيل الطريق الرابطة بين حيّ الرياض وشاطئ سيدي العابد. . .

- سألتها أكثر من مرة وأجابتني بأنها قاصر، لا يتجاوز عمرها ستة عشر عاماً. . .

كنا قد اقتربنا من الفيلا، ولم تعد تفصلنا عنها سوى بضع عشرات من الأمتار، عندما أوقفت السيارة بالقرب من عمود إنارة، وختمت تفكيرها أحادي الجانب بكلمة واحدة:

- حسناً!

قالتها ثم التفتَت نحوي قائلة بلهجة باردة بثّت الرعب في أعماقي:

- اسمعني جيداً يا زهير، لقد تجاوزتَ حدودك هذه المرة،

t.me/qurssan

لكنني لن أحاسبك على ما فعلته الآن، ليقيني من قدرتك على تنفيذ ما سأطلبه منك حرفياً، مفهوم؟

منعني الذعر من الإجابة، فتابعَت:

- سأتولى زمام الأمور، لن يمسّك أحد بسوء، ولن تنفّذ الخادمة تهديدها، إن التزمتَ بشروطي، ألّا يعلم مخلوق بتفاصيل ما جرى، أن تنسى الغالية تماماً ولا تتدخل فيما لا يعنيك من أمر التعامل مع مشكلة هروبها، وأن تتوب إلى رشدك وتركّز مع دروسك لاجتياز امتحان البكالوريا، كمقدِّمة لإرسالك إلى الخارج لمتابعة مسارك الجامعي بعيداً عن هنا.

ثم استندت بيدها اليمنى إلى مقعدي، بما مكّنها من مدّ اليسرى لفتح باب السيارة والإشارة بسبابتها نحو آخر نقطة في الشارع.

- وهنالك شرط آخر، أن تنزل وتفرغ الصندوق الخلفي من الحقائب، وتعود إلى الفيلا وحدك، فأنا مجبَرة على وضع عددٍ كبير من النقط على الحروف المناسبة، اطمئن، أبوك غير موجود، إذ أخبرني بذهابه للسهر مع بعض أصدقائه، وسأقنعه أنا برحيل الخادمة فيما بعد، هيا، اغربْ عن وجهي الآن!

*

انتشلتني دقات الساعة الحائطية من شرودي، فنهضتُ بتثاقل لإعادة المرجع القانوني إلى مكانه ومغادرة المكتب.

أسابيع طويلة مرّت، عادَت فيها الحياة إلى مسارها الطبيعي المألوف، باستئناف والدي لمسلسل مغامراته، ومواصلة أمي توزيع وقتها بين مرافعاتها في المحاكم، وسعيها الدؤوب نحو الفوز برئاسة جمعيتها السخيفة، ممتنعة عن التفوّه بكلمة تعيدنا إلى تفاصيل ليلة اختفاء الخادمة، فبدت كذكرى سيطويها النسيان بسرعة.

t.me/qurssan

نفّذتُ الجزء الخاص بي من الاتّفاق، فتمكّنت من اجتياز امتحان البكالوريا في الدورة الاستدراكية بنجاح، محافظاً على سكوتي والتزامي التام بعدم إثارة مشاكل جديدة، مع إظهار ما يمكن اعتباره تغييراً جذرياً في شخصيّتي الصدامية العنيفة.

ولم يكُن هذا كافياً لتخليصي من شبح الغالية...

تحوّل خوفي إلى ما يشبه الهوس، فمع كلّ اتصال هاتفي أو رنّة في جرس الفيلا، تحاصرني هلاوس أتصوّر معها بأنّ الشرطة قادمة لاقتيادي إلى المخفر لاستجوابي، أو أن الخادمة القروية عادت حاملة معها سكيناً أكبر لقتلي، عوض الاكتفاء بإصابة ذراعي.

رفضَت أمي إطلاعي على الطريقة التي تعاملَت بها مع سير الأحداث بعد إعادتي إلى الفيلا في تلك الليلة، وبحثتُ في عينيها بإلحاحٍ عن حلّ اللغز، فلم أجد سوى برودٍ مستفزّ أثبت لي اعتمادها خيار الصمت كعقاب مبتكَر على ما فعلته بحق الغالية، مع التأكيد عليّ أنّ محاسبتها تتعلق هنا بتعريض مستقبلي وسمعتها للخطر، لا اغتصابي لخادمة لا يمكن أن تساوي عندها أيّ قيمة تُذكر.

تحكّمت المحامية المحترفة بكلّ التفاصيل، باستثناء نقطة واحدة لم أكن أعلم وقتها بأنها ستكون كافية لنقل كلمة المستقبل نحو موقع جديد في معجم حياتي...

أدّى فشلي في اجتياز امتحان البكالوريا في دورته العادية إلى رفض ملفّ ترشيحي للقبول في عددٍ من الجامعات الفرنسية بباريس وبوردو وليون، ولم يكن الوضع بأفضل حالٍ في ليبج وبروكسيل ببلجيكا، ما جعلَ وعدَها بتمكيني من متابعة دراستي في الخارج موضع شكٍّ كبير.

وأمام إصراري على فكرة رحيلٍ أعلم بأنه السبيل الوحيد

t.me/qurssan

لتخليصي من عذابٍ نفسيّ رهيب أعيشه كلّ يوم، لم يجد والدي لتلبية رغبتي (وربما رغبته أيضاً في التخلّص مني) سوى حلٌّ واحدٍ. . .

صعدتُ إلى غرفتي باحثاً عن سويعات نوم خالية من الكوابيس، متجاهلاً نباح سبايك الذي تركته وحيداً في الحديقة، ثم فتحتُ دُرْجاً في خزانة ملابسي وتحسَّستُ بأصابعي وشاحاً مزركشاً تركته الغالية في المنزل الشاطئي بعد هروبها، وحملته معي في أثناء ملاحقتي اليائسة لها.

وشاح لم تفلح الأسابيع الطويلة الماضية في محو الآثار الباهتة لدماء قانية لطخته، كعلامة على أنّ الزمن لن يتمكن من طمس أحداث ليلة الثلاثاء 14 مايو الماضي بسهولة. . .

أعدته إلى الدرج بحرصٍ شديد، عاجزاً عن فهم السبب الذي دفعَني إلى الاحتفاظ به كلّ هذا الوقت، ثم استلقيتُ على السرير، وإلى جانبي ملفّ برتقالي اللون، انهمكتُ في تصفّح ومراجعة ما يضمّه من وثائق إدارية ومدرسية.

ملفّ يحمل عنواناً كتبته قبل أيام قليلة بخطٍّ عريضٍ واضح:

أكاديمية موسكو سيتشينوف الطبية - روسيا الاتحادية
ملف الترشيح

* * *

t.me/qurssan

(صحيفة المساء – صفحة التحقيقات – عدد الخميس 14 يوليو 2011 – بقلم محمد لحداد)

(...) في عز اشتعال فتيل الحرب العالمية الثانية، وبالضبط في سنة 1942، وبعد أن بدا أنّ ألمانيا، بزعامة أدولف هتلر، تحقّق انتصارات في مختلف الجبهات، قرّرت الولايات المتحدة الأميركية التدخّل لمساندة الحلفاء. تدخّل كانت أميركا تتوخى من ورائه تشديد الخناق على المدّ النازي عبر السيطرة على المناطق الاستراتيجية. ولذلك فإنها قامت بإنزال عسكري مكثّف على الجبهة المتوسطية وأصبح المغرب، بذلك، قاعدة جوية أساسية لاحتضان القوات الأميركية بالنظر إلى موقعه الجغرافي الاستراتيجي. (...)

t.me/qurssan

(مجلة زمان – ملف خاص عن القواعد العسكرية الأميركية بالمغرب – عدد شهر يونيو 2015 – بقلم خالد الغالي)

تطلب الأمر سنة كاملة كي يقبل الأميركيون مجرد الجلوس على طاولة المفاوضات، وسنة ثانية كي يقبلوا مبدأ الجلاء، ثم ثالثة للوصول إلى اتفاق على موعد الجلاء. كانت هذه هي مسيرة المغرب بين عامَي 1956 و1959 في مفاوضاته مع الولايات المتحدة حول قواعدها العسكرية، نجح بعد ذلك في إقناعها بالرحيل بمتم سنة 1963.

يومها قاد المغرب مفاوضات مريرة قبل أن ينجح في إخراج الأميركيين. فلمّا حصل المغرب على استقلاله، رسمياً، في مارس 1956، وجد نفسه أمام 5 قواعد عسكرية أميركية، من بين أكبر القواعد العسكرية في العالم، جاثمة فوق أراضيه: النواصر، سيدي سليمان، بنسليمان، بنكرير والقنيطرة. أنشئت جميعها بناء على معاهدة لم يكن المغرب طرفاً فيها: اتفاق 22 ديسمبر 1950، خلال عهد الحماية، بين جورج بيدو وزير الخارجية الفرنسية وجيفرسون كافري، سفير واشنطن في باريس. مباشرة بعد الاستقلال، أعلنت الحكومة المغربية أنها لا تعترف بشرعية القواعد الأميركية، وإن كان وجودها على التراب المغربي أمراً واقعاً، داعية الإدارة الأميركية إلى الجلوس على طاولة المفاوضات. قابل الأميركيون الدعوة المغربية بتجاهل مطلق طيلة أكثر من سنة (مارس 1956 مايو 1957) ، قبل أن يقبلوا في الأخير الدخول في مسلسل المفاوضات (...)

t.me/qurssan

(5) اسأل الغبار

إن رؤية الشجرة لا ينبغي أن تُذهلنا
عن منظر الغابة.

عبد الفتاح كيليطو

الجمعة 27 سبتمبر 2002
دنفر - ولاية كولورادو:

سارَ كلّ شيء بسرعة بعد ذكر براندون لكلمة المغرب وإطلاعي على جزء ممّا يدور في ذهنه.

استفسرنا هاتفياً عن موعد أقرب رحلة جوية تضمّ مقاعد شاغرة، وتربط نيويورك بدنفر، ثم غادرنا سنترال بارك نحو مطار جون إف كينيدي، ومنَعَنا الحماس حتى من الذهاب إلى منزلي أو التفكير في حمل حقائب أو أمتعة لن نكون بحاجة إليها.

انطلقَت الطائرة في تمام العاشرة مساء، لتحطّ عجلاتها بعد أربع ساعات بمطار دنفر الدولي، حيث تجاوزت عقارب الساعة منتصف الليل بدقائق معدودة، في رحلة قمنا باستغلالها لإعادة دراسة الفكرة المقترَحَة من كلّ جوانبها...

فكرة العودة إلى حقبة قضاها والدي كجندي في المغرب،

t.me/qurssan

خلال خمسينيات القرن الماضي، ودراستها بتمعّن لكتابة رواية تمتح من فضاء وزمان بعيدين تماماً عن السائد.

- ستجدين في كلامي الآن تناقضاً مع ما ذكرته آنفاً عن عدم خضوع الكاتب لهوى قرائه، لكن وجب الاعتراف أيضاً بأنّ الأميركيين ملّوا جملة مواضيع مكرَّرة استهلكتها روايات الرصيف وقتلتها سينما هوليوود، وجاءت أحداث الحادي عشر من سبتمبر لتؤكّد لهم وجود أناس آخرين على كوكب الأرض، بعادات وتقاليد وثقافات مختلفة، لا يتّفق معظمهم مع كلّ ما يفعله العم سام، الذي أوهَمَتْه حداثته المعطوبة بقدرته على فرض أسلوب حياته على العالم بأسْره.

كان يتحدّث بصوت مرتفع، متجاهلاً تحذيراً صامتاً من إحدى المضيفات، فضغطتُ على يده وأنا أجيبه بهمس، محاذرة إزعاج أو إيقاظ المسافرين القريبين منا:

- بعيداً عن السياسة التي لا أفهم سبب إصراركَ على حشرها في كلّ موضوع تتناوله، لا أنكر بأنّ الفكرة جديدة تماماً وغير مألوفة، لكن تطبيقها صعب للغاية، ولعدّة أسباب أرى بأنك ستوافقني عليها.

التقطت نفساً عميقاً، ثم أكملت:

- توفي أبي منذ سنوات، وحتى لو بقي على قيد الحياة، فلا أظنّه سيفيدنا بشيء، سألته ذات مرة عن فترة خدمته العسكرية بالمغرب، فحدّثني بنوع من الاستخفاف عن الأمر، وقال بأنه لا يدري إن كان محظوظاً فعلاً بعمله في منطقة مملّة لا حروب فيها ولا حوادث تُذكر. هو يعتبر بأنّ حياته الحقيقية ابتدأت بعد عودته إلى الولايات المتحدة وتعرّفه على أمي في الجامعة. ما يعني أننا أمام

t.me/qurssan

رجلٍ بلا مغامرات أو انعطافات حياتية مهمّة تستحقّ نقلها إلى الورق. ما رأيك لو كتبنا رواية عن فترة وجودك بلبنان في بداية الثمانينيات؟ ستكون أكثر حيوية وتشويقاً!

ومرة أخرى، لم أنتبه لسخافة جملتي الأخيرة إلّا بعد فوات الأوان...

حاولتُ تدارك الموقف، لكنه سبقني إلى الكلام، متجاهلاً تلميحي بتكرار عبارة قالها ونحن جالسان على المقعد المقابل للبحيرة في سنترال بارك.

عبارة أيقظت وحش الفضول الكامن في أعماقي...

- علّمتني الحياة يا كريستين أننا لن نعرف أبداً ما يمكن للآخرين فعله، خاصة مَن نعتقد بأننا نعرفهم حقّ المعرفة. ما يجعل من ذهابنا إلى دنفر أمراً حتمياً.

بدأت معالم قصده الأول تتضح، فأضَفتُ عقبة أخرى في طريقه:

- لعلمكَ يا عزيزي، لن يكون حظّنا مشابهاً لأبطال روايات تبدأ مقدّمتها بعثور أحدهم على مذكّرات مدفونة أو مخبّأة في مكان ما، كمحرّكٍ رئيسٍ للأحداث. اقتصرت علاقة والدي بالمطالعة على قراءة سجلّات الفواتير المتراكمة وصفحات الرياضة في الجرائد، ولم يسبق له حمل القلم إلّا لتحديد قائمة المشتريات اليومية، أمّا كتابة المذكرات، فهو ما أستبعده بشكلٍ قاطع تماماً.

أصابه كلامي الأخير بالإحباط، فسحب يده من يدي، وأشاحَ بوجهه عني، منشغلاً بمتابعة أضواء ضواحي دنفر وقد بدأت تظهر عبر النافذة الصغيرة، ليختم النقاش بقوله:

t.me/qurssan

- لا أحد يندم على ما فعله، كلنا نندم على ما لم نفعله. لن نخسر شيئاً ببحثنا عن المفيد في منزل والدك.

تناسينا بعد وصولنا تعب السفر المفاجئ واضطراب فارق التوقيت بين المدينتين، وأشرنا لسيارة أجرة استفادت من عدم وجود ضغط كبير على حركة السير، لتقطع بنا خمسة وعشرين ميلاً تفصل بين المطار ومنطقة أوبتاون القريبة من قلب المدينة في وقت قياسي.

والوجهة: منزل والدي الذي هجرته بعد انتقالي للعيش في نيويورك.

لم يكُن ضيق الوقت ليسمح لي بالاستسلام للحنين وذكريات الطفولة الهادئة، فتجاهلتُ شعوراً قوياً بالألفة مع كلّ ركنٍ من أركان بيت جميل أجبرتني حياة الأضواء النيويوركية الجديدة (أو المزيفة) على تركه، وانطلقتُ في بحثي المحموم من غرفة النوم لأتبعها بباقي غرف المنزل.

ما أعجَبَ فكرة أن تبحثَ عن شيء أنتَ أوّل مَن لا يدري كنهه بالضبط!

ملابس قديمة، أشرطة أفلام من زمن هوليوود الجميل كنّا نتابعها سوية، أسطوانات لفِرَقٍ موسيقية أغرمتُ بها في مراهقتي المتزامنة مع سنوات السبعينيات الصاخبة، لوازم لعبة بيسبول كان أبي من عشاقها، وشغوفاً بمتابعة أخبار مبارياتها، مجلات متخصّصة في الموضة والطبخ حرصَت أمي على دفع اشتراكاتها السنوية، كتبي المدرسية ودفاتري الجامعية، وكومة كتبٍ لم أنقلها معي إلى نيويورك أو إقامتي الشاطئية في ميامي.

كلّ قطعة ألمسها تفوح برائحة الماضي الجميل، ويترك الغبار أثرها على أصابعي كذكرى ترفض الاستسلام لسلطة النسيان.

t.me/qurssan

انتبهتُ فجأة إلى أنّ براندون لا يشاركني البحث، مفضّلاً الجلوس على الأريكة ومراقبتي بنظرات غامضة لم تتمكن علاقة دامت ثمانية عشر عاماً من سبر أغوارها.

- العلّية هي المكان المفضل في كلّ الروايات والأفلام لإخفاء شيء ما...

لم أغفل الحسّ التهكّمي فيما قاله، فأجبته بعصبيّة تعوّدتُ على الخضوع لها كلّما واجهتُ موقفاً مشابهاً:

- نحن نحيا هنا واقعاً صريحاً، ولسنا شخصيات في رواية يتلاعب كاتبٌ بسَيْر أحداثها كما يشاء!

نهض بخفّة لا تتناسب مع إعاقته، واقترب مني حتى كادَ يلتصق بي، ليهمس في أذني:

- ربما، ولكن مَن قال بأنّ الحياة مختلفة تماماً عن الروايات؟

كدتُ أستسلم لأنفاسه التي شلّت قدرتي على التفكير بعقلانية، وأيقظَتْ مشاعر اعتقدتُ بأنني دفنتها إلى الأبد، لكن جبال المشاكل التي تحاصرني وتهدّد مستقبلي أجبرتني على مقاومة رغبة حارقة في معانقته وإراحة رأسي على صدره، فتراجعتُ بصمتٍ إلى الوراء، ثم صعدتُ درجات السلم، متوجّهة نحو علية أيدت في أعماقي احتمال إخفائها لما أرجو أن يكون مفيداً لبحثنا.

وكان رهاننا خاطئاً...

عثرنا فقط على كومة أخرى من الكتب المهمَلَة والأغطية البالية والإطارات المكسورة وآلة جزّ عشب معطّلة لا أدري لماذا منعتني الانشغالات والكسل من التخلّص منها.

استفزّ الغبار رئتي، فسعلتُ بقوة، ودمعت عيناي بتأثيرٍ مُضاعف

t.me/qurssan

من الحساسية والحزن المضمر، بعد ضياع جهد استغرق ثلاث ساعات بلا طائل.

سلّمني براندون منديله لتغطية أنفي، ثم قالَ بتعاطف لا يخلو من حسرة:

- هيا بنا، لن نجد هنا سوى طبقاتٍ متراكمة من الغبار تكفي لإصابة كلّ سكان ولاية كولورادو بالربو!

وسرعان ما عادت السخرية إلى نبرته:

- سألقيَ قبل ذلك نظرة خاطفة على الكتب، تعلمين بأنّ أيّ شغوف طبيعي بالقراءة يهوى التلصّص على ترسانة العناوين التي يمتلكها الآخرون!

لم أجِبْه، مفضِّلة المغادرة، دون أن أكلّف نفسي عناء الالتفات ورائي.

نحن نضيِّع وقتنا في عبثٍ لا فائدة منه، والدي شخص بسيط جداً، حتى لا أقول بأنه مملّ، عاد من المغرب وأكمل دراسته الجامعية، تزوّج من أمي وحصل على وظيفة عادية في شركة عقارية، حياته أبعد ما تكون عن المغامرات والأسرار، ولا يوجد فيها تفصيلٌ واحد يمكن أن نَبْني عليه صرحاً روائياً متيناً.

لقد أخفقَ حلّال المشاكل هذه المرة، ولم ينجح في تقديم المساعدة التي انتظرتُها منه، رغم الحماس الأول الذي أركَبَنا طائرة من نيويورك إلى دنفر بلا تردّد.

لا حلّ أمامي سوى تشغيل حاسوبي والجلوس إلى طاولة العمل للبحث عن أيّ فكرة من هنا أو هناك وكتابة رواية مرتَجَلَة أسوّي بها خلافي مع سايمون آند شوستر قبل انقضاء مهلة الشهرين اللعينة.

t.me/qurssan

لم يُجانِب براندون الصواب في نقطة واحدة فقط: قوله إنّ الأمور ستكون أسهل لو أننا مجرد شخصيات روائية سيهتمّ مؤلفها بحلّ مشاكلها، ولن يسمح لنفسه بتركها وحيدة...

هل كانت آنا كارنينا أفضل حظّاً مني عندما اكتفى تولستوي برميها تحت عجلات قطار كحلٍّ جذريّ لمُعاناتها؟

نفثتُ دخان سيجارتي أمام النافذة القريبة من المطبخ، محاولة استعادة زمام أعصابي المنفلتة، وقد تحوّل رأسي إلى ما يشبه منعطفاً صاخباً في أحد شوارع مانهاتن من شدّة ازدحامه بالأفكار المتشابكة.

- سؤال المليون دولار للمشارِكَة كريستين ماكميلان، مَن القائل: يبحث المُسرِع عن الباب ثم يمرّ من أمامه؟

أضجرتني سخريته، فأجبته من دون التفات:

- سأتّصل بشركة الطيران لحجز تذاكر العودة إلى نيويورك بعد شروق شمس الغد، أو شمس اليوم إن صحّ التعبير. سأخلد للنوم في غرفتي السابقة، وأنت تدبَّر أمرك، البيت كله تحت تصرفك.

ربّتَ على كتفي، فتملّصتُ منه، واستدرتُ نحوه قائلة بصبرٍ نافد:

- لا تلمسني...

تحوّلت عصبيتي إلى استغراب شديد، وأنا أراه يحمل كتاباً بين يديه، ويقول بأسلوبٍ استعراضي مسرحي:

- الجواب الصحيح هو غوته، صحيح أنه عاش بين نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، إلّا أنني لا أستبعد تفكيره فيكِ عندما قالها، أليس كذلك؟

t.me/qurssan

ثم وضع الكتاب على طاولة المطبخ، مكملاً بلهجة محايدة يصعب تميز مغزاها:

- معكِ حقّ، لم يكن والدكِ مولَعاً بالمطالعة مثلكِ، لكن هذا لم يمنعه من توظيف الكتب لأغراضٍ لن تخطر على بال أحد!

* * *

t.me/qurssan

عظام بشرية تستنفر الدرك الملكي بشاطئ سيدي العابد

الثلاثاء 3 مايو 2016 – 09:43

باشرت مصالح الدرك الملكي تحقيقاتها الأولية قصد معرفة ظروف وملابسات عثور عمال بناء على عظام بشرية بقطعة أرض محانية لشاطئ سيدي العابد بالهرهورة.

وبحسب مصدر مطّلع، فإنّ فصول القضية الغامضة بدات صباح يوم أمس، مع انطلاق أشغال بناء فيلا شاطئية بقطعة أرضية تعود ملكيتها لزوجة برلماني معروف، حيث فوجئ عمال الحفر بوجود عظام ذات طبيعة بشرية دفعتهم إلى تبليغ عناصر الدرك، مع الإشارة إلى رفض بعضهم فكرة استكمال العمل بالورش بعد انتهاء التحقيقات، إيماناً منهم بفكرة الفأل السيئ واللعنة التي قد تلاحقهم مدى الحياة.

وفور توصّلها بالخبر، حلّت عناصر السلطات المحلية والدرك الملكي بالمكان، للقيام بجميع الإجراءات اللازمة، وجمع كافة المعطيات الضرورية، مع نقل العظام إلى المختبر قصد تحليلها ومعرفة هوية صاحبها أو صاحبتها، كخطوة أولى نحو فكّ لغز قضية اهتزّت لها مشاعر ساكنة المنطقة، على بُعد أسابيع قليلة من انطلاق موسم الاصطياف.

التعليقات (0) الآراء الواردة في التعليقات تعبّر عن آراء أصحابها وليس عن رأي الموقع

t.me/qurssan

(5) الحياة في مكان آخر

آه... هذه الدنيا ليست لنا!

ميخائيل ليرمنتوف

الخميس 3 أكتوبر 2002

أكاديمية سيتشينوف الطبية - موسكو:

هل أكون قاسي القلب إن قلت إنني لم أحزن على مغادرتي لمغربٍ لم أشعر يوماً بما يطلقون عليه اسم «المواطنة» وحسّ «الانتماء» له؟

لا أدري...

أنا واثق فقط من أنّ مؤلّف مقولة «قطران بلادي ولا عسل البلدان» كان ذا مخيّلة خصبة، ولم يذُق في حياته لا القطران ولا العسل ليُقارن بينهما!

أقترب من إتمام شهري الأول في هذا البلد، ويراودني شعور قويّ بأنني خُلِقتُ لأعيش هنا، ولن أبالغ إن عبّرت عن رغبتي في إعادة توزيع أوراق اللعب من جديد، لربما حظيت بوالدين أفضل من اللذين تخلّصا مني (أو تخلّصتُ منهما لا فرق) في المغرب.

t.me/qurssan

كنت بالنسبة لهما ضرساً مؤلمة، اختارا تجاهلها وإهمالها عوض الاعتناء بها قبل استفحال خطرها، ما وضعهما في النهاية أمام خيار لا مفرّ منه...

اقتلاع الضرس ورميها نحو أبعد نقطة ممكنة:

روسيا!

وعندما تمّ قبول ملفّ ترشيحي لمتابعة دراستي الجامعية بأكاديمية موسكو سيتشينوف الطبية، أدركتُ في قرارة نفسي أنّ الأمر يتعلّق بنقطة تحوّل ستُعيد زهير بلقاسم إلى سيرته الأولى، المفعمة بالطموح والرغبة الصادقة في اتّباع جادّة الصواب، ما دام بعيداً بآلاف الكيلومترات عن الجرّاح المتصابي والمحامية المهووسة بشهوة السلطة...

والغالية التي لم يظهر لها أيّ أثرٍ كما...

كما لو أن الأرض انشقّت وابتلعتها!

*

قادني مزاجي الانعزالي إلى تجنّب أيّ احتكاك مع الطلبة المغاربة، عوض التقرّب منهم والاستفادة من تجربة مَن سبقوني في التعامل مع النظام التعليمي المختلف وفهم عادات وتقاليد شعب لا نعرف عنه الكثير.

قرار أعلم أنه غير صائب، ولكن، ألم يكُن هدفي الأول من مغادرة المغرب الابتعاد عن كلّ مَن وما يمتّ إليه بصلة؟

فضَّلتُ إذاً تقاسم غرفة السكن الجامعي مع طالبٍ روسي يُدعى سيرجي كرياتشكوف، قال إنه قادم من ضواحي موسكو، لكنه ينحدر من مدينة سيبيرية لم أسمع بها في حياتي، تدعى تومسك. وضع

t.me/qurssan

إصبعه على اسمها في الخريطة، فاكتشفتُ أنها تبعد عن موسكو بما يفوق 3500 كيلومترا!

شاب نحيف جداً، يخيّل لمن يراه أنه يعاني من مرض يتطلّب تدخّلاً طبياً عاجلاً يسبق تفكيره أصلاً في دراسة الطب. شقرة شعره الخفيف تشبه إلى حدّ كبير لون حقول القمح، كما يضع نظارات كبيرة سوداء، تمنح عينيه الخضراوين وملامح وجهه الحليق شكلاً طفولياً وديعاً.

باختصار شديد، لو كان الفنان الأميركي الشهير وودي آلان روسياً، لكان اسمه بلا شكّ سيرجي كرياتشكوف!

هو في السنة الأولى، أي أنه يسبقني بسنة كاملة (حيث يشترط النظام الجامعي على الطلبة الأجانب تخصيص سنة تحضيرية تتضمّن دروساً مكثّفة لإتقان اللغة الروسية يتبعها بدء التخصّص العلمي في السنة الموالية)، غير أنني لم أجد صعوبة في التواصل معه، بل بالعكس، كان مفيداً لكلينا المزج بين الروسية والإنجليزية في الحوار، بخاصة مع اهتمامه بهواية اعتقدتُ أنني نسيتها تماماً: القراءة...

رغم ازدحام جدول سيرجي بمحاضرات ودروس تتطلب تحضيراً مضنياً ومراجعة مستمرة، إلّا أنني أعجبتُ إلى حدٍّ كبير بعادة أثيرة لم يتخلَّ عنها طوال فترة تعارفنا، بتخصيص ساعة واحدة يومياً للقراءة، يخلد بعدها إلى النوم مباشرة.

كلما ألقيتُ نظرة على الطاولة الصغيرة المحاذية لفراشه إلّا ووجدتُ كتاباً صغيراً من روايات الجيب، يتغيَّر بشكلٍ أسبوعي، وأحياناً مرتين في الأسبوع نفسه.

أثارت كتب سيرجي فضولي، وعندما سألته عنها قال إنها نسخ

t.me/qurssan

مستعملة متوفرة في مكتبة الجامعة، ويستقرّ معظمها في رفوفها منذ السبعينيات والثمانينيات، أيام الاتحاد السوفياتي المنهار!

نسخ قديمة، اصفرّ ورق بعضها، وامتلأت صفحاتها بملاحظات وخربشات قرّاء سابقين، لكنها تحمل رائحة غريبة محبَّبة، تُجبرك على التمسّك بالكتاب حتى آخر سطر، مستمتعاً بفكرة وقوعه قبلك بين يدي حسناء عاشقة في سان بطرسبرغ، أو شيخ وحيدٍ في دار إيواء منسية في موسكو، أو حتى سجين تمّ نفيه نحو أبعد نقطة في سيبيريا!

صعوبة وحيدة واجهتني، وكانت في التعامل مع لغة روسية لم أتقنها بعد، لذلك نصحني رفيق السكن بالتسجيل في المكتبة الجامعية، متحدّثاً بحماسٍ عن توفّر كلّ روائع الأدب الروسي الكلاسيكي، والصادرة في طبعات خاصة بالأجانب، تضع لكلّ صفحة بالروسية صفحة مقابلة بالإنجليزية.

استحسنتُ الفكرة، فما دامت سنتي الأولى مخصَّصة فقط لإتقان لغة أهل بلد أدرس في كليته، فلن أجد أفضل من الأدب لتحسين مستواي، مستعيناً بأدباء روسيا لتعبيد الطريق نحو مُرادي.

ذلك ما توقعته في البداية، لكن الحياة بعبثيّتها المعهودة اختارت أن تزرع لغماً متفجّراً على جانب الطريق!

*

- لا أزعم توفّري على معرفة دقيقة بالأدب العالمي، لكنني متأكّد من أنه لا أحد يكتب مثل الروس، ستكتشف ذلك بنفسك.

قال سيرجي ذلك ونحن على وشك الدخول إلى مكتبة الجامعة، وقد انشغلتُ عن كلامه بإعادة لفّ الكوفية الصوفية حول عنقي، مغمغماً:

t.me/qurssan

- ما يهمني الآن هو التحضير لمواجهة وحش اسمه شتاء موسكو الرهيب، أنا عاجز عن احتمال درجتين مئويتين فقط في شهر أكتوبر، وأنتم تعتبرونها لعب أطفال تستعدّون معه لموجة الصقيع القادمة، بالله عليك، أيّ طقس هذا؟

ضحك سيرجي معلّقاً:

- إذا كان برد روسيا قادراً على النفاذ إلى عظامك، فلا أشكّ في قدرة كلمات أدبها على بثّ الدفء في روحك، لأنها...

بَتَرَ عبارته دفعة واحدة، وبطريقة لا تتناسب مع طبعه الهادئ والأقرب للخجل، فتابعتُ نظراته بعيني، لأكتشف وجود فتاة بالقرب من حاجز الاستقبال في المكتبة.

لم أغفَل علامات الاضطراب في سكنات سيرجي، وهالَني تحوّل لون وجهه إلى الأحمر، حتى يخيّل لمن يراه أنه كرع محتوى زجاجة فودكا دفعة واحدة!

- ماذا هناك؟

تجاهلَ رفيق السكن سؤالي، رغم سهولة ردّ قد لا تنقصه سوى بعض المعلومات البسيطة لصياغته كاملاً.

اقتربنا أكثر، فبادر سيرجي الفتاة بالتحيّة، فيما انشغلتُ أنا بدراسة أدقّ تفاصيل جسدها، من الأسفل إلى الأعلى، كمنظار مزوّد بماسحٍ ضوئي.

ساقان طويلتان تغطيهما جوارب سوداء، فوقهما تنورة حمراء قصيرة تظهر امتلاكها خصراً رفيعاً وصدراً لم تفلح الكنزة الصوفية البيضاء في إخفاء امتلائه، فيما اختارت تغطية عنقها الطويل بشالٍ أحمر مطابق للون التنورة.

t.me/qurssan

انتهزتُ فرصة حديثها مع سيرجي لمتابعة حركة شفتيها والتفرّس في ملامحها بالتأنّي الذي تستحقه.

مررتُ بسرعة على خديها المتوردين وأنفها الصغير وذقنها الدقيق، لأتوقّف عند لون شعرها الأشقر القريب من لون شعر زميلي، والمصفّف بطريقة أعتقد أنها تشبه تسريحة الأميرة البريطانية الراحلة ديانا، أمّا عيناها فلم أجد وصفاً يليق بهما سوى القول إنهما جميلتان بلون زرقة البحر، رغم كلاسيكية الوصف وتكراره.

انطباعي النهائي أنها لاعبة جمباز أو راقصة باليه أو حتى لاعبة تنس، لا فرق، المهم أنها تزاول رياضة معينة تتطلب منها مجهوداً بدنياً وتدريبات شاقة كافأتها في نهاية المطاف بجسدٍ متناسق قادرٍ على إفقاد كلّ مَن يراه صوابه، لتتكفّل ملامحها بمهمّة الإجهاز على الرائي بالضربة القاضية.

كانت تمسك بين يديها كتاباً مشابهاً لنسخ الجيب التي يواظب صديقي على قراءتها، أشار هو بأصبعه نحوه، قائلاً شيئاً ما بالروسية، لم أفهم منه حرفاً واحداً، وإن بدا لي أنّ التلعثم أثّر على كلماته.

سارعت الفتاة بعد إجابته إلى وضع الكتاب في محفظتها والمغادرة، مكتفية بابتسامة مجامَلة ناحية سيرجي، ونظرات باردة خالية من أيّ تعبير تجاهي.

وضعتُ يدي على كتف الروسي، وهمستُ في أذنه:

- شهر واحد تقريباً، ووقعتَ في غرامها بهذه السرعة؟

- أنت لا تفهم شيئاً، إنها أولغا كوزنيتسوفا، زميلتي منذ أيام الدراسة الثانوية، وشاءت الظروف أن نتابع دراستنا الجامعية في التخصّص نفسه والفوج نفسه.

t.me/qurssan

- ولم تجسر على مصارحتها بحقيقة مشاعركَ طوال سنوات ،مارفكما؟

صمتَ سيرجي محاولاً إخفاء انفعالاته، فغيّرتُ الموضوع ،سؤال هامسٍ آخر:

- أشرت بأصبعك نحو كتابها وتلوتَ ما أعتقد أنه مقطع من الكتاب نفسه، ما هو؟

التقطَ نفساً ثم أجاب:

- لقد أفسد العالم روحي، وخيالي قلق، وقلبي لا يشبع. كلّ :ىيء صغير جداً بالنسبة لي، اعتدتُ بسهولة على الحزن والسرور، ، حياتي أصبحت خالية يوماً بعد يوم. الاقتباس على لسان غريغوري شورين، في رواية بطل من زماننا لميخائيل ليرمنتوف.

لم أستطِعْ إخفاء افتتاني بدقّة التعبير، إذ يصف بشكلٍ مدهش معاناة تركَت أثرها في روحي المعذّبة لسنوات، فتقدّمتُ نحو موظفة المكتبة الخمسينية، مشهِراً في وجهها بطاقة الطالب الأجنبي، مع عبارة حازمة بالإنجليزية:

- بطل من زماننا لميخائيل ليرمنتوف، الطبعة مزدوجة اللغة!

أجابت بهدوء منشغلة بمراجعة كومة الأوراق أمامها:

- تمَّت استعارة كلّ النسخ، آخرها حصلت عليها الفتاة التي غادرت المكتبة الآن.

علّق سيرجي ساخراً من خيبة أملي:

- يبدو أنّ أيامنا أكثر سوءاً من أيام غريغوري بيتشورين بطل الرواية، كلنا نشعر باليأس ونعتقد أننا أبطال في زمن لا يناسبنا!

عجزتُ عن تبيّن المغزى من كلامه الغامض، وتضاعفَت رغبتي

t.me/qurssan

في الحصول على الرواية، فركضتُ بسرعة نحو الخارج، غير آبه بردّ فعله المستغربة.

كانت الفتاة واقفة أمام لوحة ضخمة تغطيها الكثير من الإعلانات الإدارية الخاصة بالجامعة، مركّزة انتباهها على إعلان واحد قرأته باهتمام شديد:

Шахматный клуб
организует университетские
соревнования в воскресенье,
13 октября 2002 года в Бетса
Парке. Желающие принять
участие должны
зарсгистрироваться в
рсгламенте офиса клуба на
третьем этаже второго
здания.



- كدتَ تلتهمني بنظراتك قبل قليل...

صدمتني عبارتها الباردة المباشرة، وبإنجليزية سليمة مثيرة للإعجاب، لكنني تجاهلتُ تلميحها وغيّرتُ دفة الحديث بسرعة فائقة:

- أفهم من الإعلان أنّ مسابقة في لعبة الشطرنج ستُنظّم بمكانٍ ما يوم 13 أكتوبر ، ممتاز، ستكون فرصة سانحة لاستعادة أمجادي مع الرقعة بعد طول غياب...

t.me/qurssan

- ماذا تريد؟

حاصرتني بسؤالها وعينيها الزرقاوين الصافيتين، فأجبت:

- في الحقيقة، أنا أرغب أيضاً في قراءة رواية بطل من زماننا، لكن يبدو أن آخر نسخة متوفرة بمكتبة الجامعة موجودة الآن في حقيبتكِ.

- وما شأني أنا؟

- أريدها...

قالت بلهجة لم تفلح الابتسامة الواسعة في إخفاء نبرتها المتحدّية:

- أثبِتْ جدارتك إذاً، واهزمني في مسابقة الشطرنج، وأعدكَ ،قتها بالحصول على النسخة!

بادلتها الابتسامة بمَكر، بعدما استوعبتُ في دقائق معدودة ما عجز صديقي عن فهمه لسنوات...

طبعاً يمكنني الحصول على نسخة للرواية بسهولة بالغة، سواء من مكتبة الجامعة أو أي مكتبة أخرى في موسكو، لكن شهوة التحدّي استيقظت في أعماقي، فأجبتها بصوتٍ خفيض، منتبهاً لقدوم سيرجي نحونا:

- ما دام الأمر هكذا، فأنا موافق!

* * *

t.me/qurssan

محاولة عيش (رواية) – محمد زفزاف – ط 8 (ص 51–52):

(...) استمر الجنود الأميركيون في الغناء. مدّ أحدهم يده إلى زجاجة البيرة، رفعها من فوق الطاولة وأفرغها على رأس أحد أصدقائه. وقف الآخر متثاقلاً ومحاذراً، لكن آثار الشراب كانت بادية عليه... كانت بادية عليهم. أخذ ينفض عن جسده تلك السائل الذي بلّل بعض ثيابه. توقّف غناؤهم. الناس أيضاً توقفوا عن التهام الذرة التركية والحلزونات. انشغلوا بالنظر إليهم. عاد الأميركي المبلّل إلى مكانه فارتفع غناؤهم من جديد. بعض الزبائن أيضاً عادوا إلى الانشغال بأنفسهم. لكن الأميركي المبلَّل، فاجأ صديقه الأول وأفرَغَ عليه زجاجة البيرة. وقفا وتدافَعا بالأيدي.

قال حميد:

– سوف تبدأ المعركة.

أجاب رفيقه:

– تلك ما نتمنّاه، لشتقتُ لمعركة رعاة البقر أولئك.

– إذا بدأت فلن تنتهي إلّا بالدم.

– وماذا يهمنا؟ فليموتوا جميعاً.

* * *

t.me/qurssan

(6) صورة عتيقة

تشكّل الحقيقة أحياناً عقبة في وجه الرواية.

كاميلو كاشتيلو برانكو

الجمعة 27 سبتمبر 2002

دنفر - ولاية كولورادو:

يتألف الكتاب من مائتي صفحة تقريباً، ولا يمكن وصف جودة طباعته بالممتازة، كعادة معظم الطبعات القديمة، لكن ما استرعى أقصى درجات انتباهي هو وجود فجوة مربّعة في منتصفه، دمّرت الصفحات المائة الأخيرة، لتستقرّ داخلها أربع صور فوتوغرافية بالأبيض والأسود.

- كيف أقدَمَ والدك على تدمير كتاب قيّم إرضاءً لرغبةٍ نرجسية في إخفاء صور شخصية؟

- السؤال الحقيقي هو لماذا اختار هذه الطريقة الغريبة لإخفائها، عوض الاكتفاء بوضعها في ألبوم عائلي نقلته معي إلى نيويورك؟

- يمكننا تقسيم الإجابة عن سؤالك إلى شقّين: الأول حول

t.me/qurssan

طريقة الإخفاء، ربما خشي من إمكانية سقوط الصور أو ضياعها إن هو اكتفى بدسّها بين صفحات الكتاب، أمّا الثاني فيتعلق بالسبب، ولا أشكّ هنا في أنّ الأمر يتعلّق بصور سرية فضّل والدك الاحتفاظ بها لنفسه وعدم إطلاع زوجته وابنته عليها، لارتباطها بماضٍ بعيد سبقَ ما سماها حياته الحقيقية معكما على حدّ تعبيره.

أومأت برأسي مؤيّدة تحليله المنطقي، ثم التقطَت الصور لتحليلها بعينٍ فضولية متفحِّصة.

الصورة الأولى: حقول قمح مترامية الأطراف، ومراهقان في السادسة عشرة من عمرهما تقريباً. تعرّفت على ملامح والدي بسهولة خالطَها استغراب كبير، كونها أوّل مرة أرى فيها صورة له في سنّ مبكرة، ثم وجّهتُ تركيزي نحو شقراء جميلة ترافقه. تطبق أصابع يدها اليمنى على كتاب، وتتطلّع إلى أبي بنظرات هيام لا يمكن لأيّ أنثى مثلي أن تَغفلها، مع إحساس مُبهَم قويّ بأنه لم يكُن يبادلها المشاعر نفسها، استناداً إلى ملامح الضجر البادية على محيّاه.

أدرتُ الصورة لإلقاء نظرة سريعة على ظهرها، فوجدتُ سطرين تمكّنتُ من قراءتهما بصعوبة بالغة:

A walk to remember

July 6th, 1947

t.me/qurssan

الصورة الثانية: في الخلفية أكواخ ومنازل صغيرة مدمّرة بشكلٍ مرعب، سماء ملبّدة بالغيوم القاتمة، سهول تظهر عليها آثار الانجرافات الطينية، وتجمّعات لعشرات المدنيين، معظمهم نساء حافيات باكيات وأطفال شبه عراة، فيما ركّزت عدسة الكاميرا على والدي المبتسم، حاملاً طفلاً في الخامسة أو السادسة، ملفوفاً ببطانية، بعينين نصف مغلقتين، خيِّل إليّ أنني قادرة على الشعور بارتعاش جسده الصغير بين ذراعي أبي القويتين.

كُتب على ظهر الصورة، وبخطّ بهت حبره:

Morocco

Taking part in removing rubble and pulling out victims of the Gharb's floods

January 1958

الصورة الثالثة: حانة أو ملهى ليلي، يظهر والدي مع ستة رجال ضخام الجثة، أربعة منهم بالزيّ العسكري، واثنان بلباس مدني. يتحلّقون جميعهم حول طاولة مليئة بزجاجات البيرة وأوراق اللعب. وتبدو الثمالة على وجوه بعضهم. يقف إلى جانبهم نادل نحيف بشاربٍ رفيع وحاجبين منعقدين يعبّران غالباً عن غضبه المكتوم أو إجباره على الوجود داخل الكادر ضدّ رغبته الشخصية.

كُتب على ظهر الصورة:

t.me/qurssan

With my friends in Arcades bar

Paul Haward, Bruce Mc Bride, Eddie Stewart,
Jeff Murray, Earnie Jones & Tony Wagner

September 5th, 1959

الصورة الرابعة: شابة طويلة القامة، في بداية أو أواسط العشرينيات من عمرها، تقف بالقرب من باب منزل أو فيلا على الأرجح. حلوة التقاسيم، سرّحت شعرها الأسود على طريقة الكعكة الشهيرة كموضة متداولة في الخمسينيات والستينيات، يصعب تمييز لون عينيها المتألقتين، ما دامت الصورة بالأبيض والأسود. ترتدي فستاناً محتشماً يغطي كتفيها ويتجاوز ركبتيها، وإن كان ضيّقاً بعض الشيء. تتطلع إلى الأفق بنظرات أرستقراطية مترفّعة وبما يمكن اعتباره شبه ابتسامة زيّنت فمها الصغير، مع تجاهل متعمّدٍ لعدسة المصوّر.

ولا وجود لحرفٍ واحد على ظهر الصورة...

كسر براندون صمتنا بقوله:

- والدك من تكساس؟

- نعم! كيف عرفت؟

- راجعي الصورة الأولى، يبدو أنّ الأمر يتعلق بنزهة في الهواء الطلق، تظهر في الخلفية طاولة خشبية وضع عليها طبق شيلي كون

t.me/qurssan

ادارن، الأكلة الرئيسة في مطبخ ولاية تكساس، كم هي لذيذة بلحم البقر والذرة والفاصولياء.

- ألا يفكّر الرجال سوى في شهوات بطونهم و...

قاطَعَني بضحكة عابثة لم تفلح في إخفاء حَرَجِه، ثم أكمل:

- نستنتج من الصورة الأولى أنّ والدك كان على علاقة بفتاة جميلة يبدو جليّاً أنها متيمة به، ما اسمها؟ أين هي الآن؟ كيف ولماذا انتهت علاقتها بوالدك؟ أسئلة يصعب البحث عن أجوبتها.

- ما زلتُ عاجزة عن تصديق وجود علاقة سابقة بين والدي وفتاة أخرى، رغم أنّ المسألة عادية جداً وطبيعية بالنسبة إلى أيّ مراهق في سنّه!

- قارني الآن بين خطوط الكلمات المكتوبة على ظهر الصور، وستجدين اختلافاً تاماً بين خطّ الصورة الأولى وخطّ باقي الصور، ما يدفعني إلى الاعتقاد بأنّ الفتاة هي كاتبة تلك الكلمات. الطريف هنا هو عبارة نزهة للذكرى المطابِقَة تماماً لعنوان رواية نيكولاس سباركس، وقد تحوّلت مؤخراً إلى فيلم يحصد نجاحاً كاسحاً!

لم أعلّق، فواصَلَ مراجعته:

- معلومات الصورة الثانية واضحة، منطقة مغربية تعرّضت لفيضانات وانهيارات طينية شتاء عام 1958، فتدخّلت القوات الأميركية الموجودة هناك للمساعدة، سيكون هذا منطلقاً للحديث في روايتكِ عن بطولات قام بها والدك في إنقاذ الضحايا، تعلمين بأننا نحبّ تجميل صورة الأميركي الخارق الذي...

قطعت نظراتي النارية كلامه، فقمتُ باستغلال ذلك لمتابعة التحليل:

- معلومات الصورة الثالثة ليست بالوضوح نفسه، والدي مع

t.me/qurssan

مَن يقول إنهم أصدقاؤه، في حانة مجهولة، والواقع أنني لا أعرف أياً منهم على الإطلاق...

أشعلت سيجارة أخرى، وتعمّدت إظهار الاستمتاع بنفث دخانها، متحدّية نظراته المؤنبة.

- على افتراض التقاط الصورة بالمغرب، بدليل هندام وسحنة النادل البعيدة كلّ البُعد عن الملامح الأميركية المألوفة، فالمعلومات المكتوبة لا تكشف أيّ شيء عن عنوان الحانة أو اسم المدينة على الأقل.

انتهى به المطاف إلى تجاهل تصرفي، وإعادة قراءة ما كُتب على ظهر الصورة.

- اطمئني، سأصل إلى أصحاب الأسماء المذكورة بطريقتي الخاصة، ما سيقودنا بالتأكيد إلى جمع معطيات إضافية عن علاقتهم بوالدك.

عدنا إلى صمتنا لبضع لحظات، تبادلنا خلالها نظرات ثابتة وختمناها بهتاف كوميدي متزامن:

- الصورة الرابعة!

ضحكنا بمرحٍ طفولي بدّد جزءاً من حيرتي وعصبيتي، فأطفأتُ السيجارة ووضعتُ مرفقي على الطاولة، مشرئبّة بعنقي نحوه، كتلميذة مراهقة تتابع بعينين حالمتين درس أستاذ تكنّ له مشاعرَ الإعجاب في سرّها.

- من حسن حظّ والدتكِ أنها توفيت قبل اكتشاف ما أخفاه عنها زوجها الوفي، شابتان جميلتان مجهولتان، المسألة أكبر من أن تحتملها أيّ أنثى، حتى وإن تعلّق الأمر بماضٍ سبق زواجها منه!

- حبّ قديم آخر؟

t.me/qurssan

- لا أدري، ولكن، لماذا أبقى على الصورة بلا معلومات تشير إلى هوية صاحبتها؟

التقطتُ تساؤله فرصةً لإظهار براعتي كأنثى تُتقن التركيز على أدقّ التفاصيل:

- معك حق، لكن الفتاة مغربية بلا شك، لو ركّزت على الباب خلف ظهرها ستلاحظ وجود نجمة خماسية صغيرة شبيهة بنجمة علمهم المرفرف في خلفية الصورة الثانية، وتحتها لوحة معدنية كُتبت عليها كلمات باللغة العربية، تشير غالباً إلى اسم صاحب الفيلا، لكنها غير واضحة بسبب نوعية التصوير الرديئة وقتئذٍ.

ارتسمت علامات الإعجاب على وجهه، لكن ردّه جاء مخالفاً لما أظهرته ملامحه:

- للأسف الشديد، لم تُساعدني فترة وجودي القصيرة بلبنان على إتقان العربية، لربما قادنا المكتوب إلى معرفة هوية الفتاة.

- لا بأس، سنحلّ مشكلة اللغة فيما بعد، المهم هو ماذا سأفعل الآن؟ وقتي ضيّق جداً، ولكلّ دقيقة قيمتها!

أجابني بخبث:

- تتطلّب الإجابة عن سؤالك إصدارك قراراً رسمياً بإعادة تعييني وكيلاً أدبياً مكلّفاً بأعمالك، ولتَعلَمي يا مسز ماكميلان بأنني لا أقدّم خدماتي بالمجان!

ابتسمتُ في جذل، فقالَ بحماس واضح:

- لا وقتَ لدينا، فأنتِ مطالَبة بتسليم مخطوط روايتك الجديدة بعد شهرين فقط. سأتواصل مع جمعية قدماء الجيش الأميركي التي أنتمي إليها، وأبحث في قاعدة بيانات الجنود المتقاعدين عن أسماء

t.me/qurssan

والدك وأصدقائه، ولو اقتضى الحال فسوف أسافر عبر كلّ الولايات الأميركية للبحث عمّن بقي منهم على قيد الحياة.

- وأنا؟

مدّ يده ليُداعب خصلات شعري، واستعارَ أسلوب أبٍ حنون يلقي محاضرة تربوية أمام ابنته ليقول:

- أنت كاتبة متمكّنة، الصور كافية لصياغة بذرة حبكة متماسكة، ستفتحين ملفاً جديداً في حاسوبك المحمول، وتبدئين بالكتابة لثلاثة أسابيع متواصلة، رواية مقسّمة إلى جزأين، الأول حكاية شاب نشأ في أرياف تكساس ما بعد كارثة 1929 الاقتصادية، وانضمّ للجيش الذي أرسله إلى شمال أفريقيا في الخمسينيات، فاضطرّ لتوديع حبيبة مفترَضَة ذرفَت الدموع على فراقه وأقسَمَت على البقاء وفية لحبّه إلى حين عودته.

قلتُ بذهول:

- ما أوسع خيالك! قل لي، لماذا لا...

أجهض عبارتي بحركةٍ حاسمة من يده:

- مثلما من السهل تخيّل كتاب، فمن الصعب نقله إلى الورق، على حدّ تعبير بلزاك، أنا خلقتُ لأكون قارئاً، لا كاتباً.

الجواب نفسه ككلّ مرة...

- طيب، وماذا عن الجزء الثاني؟

ردّ كرجل آليّ تمّت برمجته على إيجاد إجابة مناسبة لكلّ سؤال:

- هو الجزء الأصعب، لا يمكننا الاكتفاء بما يتوفّر بين يدينا من معلومات شحيحة، لذلك ستسلكين مسار بطلك المفترض نفسه، بالذهاب إلى المغرب لقضاء ثلاثة أسابيع أخرى هناك، تواصلين فيها عرض تجربة بطلك مع مجتمع مجهول. سنتخيّل أيضاً لقاءه بفتاة

t.me/qurssan

جعلت وفاءه لحبيبته موضع شكّ، بما يتلاءم مع براعتكِ في استغوار دواخل شخصياتك.

صمتَ قليلاً، ثم أمسك بيدي مكملاً بحبّ:

- أعلم أنّ كتابة رواية في ستة أسابيع مهمة صعبة للغاية، ويمكن أن نواجه خطر الوقوع في فخّ التسرّع والركاكة اللذين أضرّا بروايتك السابقة، لكنني واثق من قدراتك، ويراودني إحساس قويّ بأن فضولك الأنثوي سيساعدكِ على كشف هوية الفتاة المغربية الغامضة وطبيعة علاقتها بوالدك، هل هي حبيبة سابقة أم أنّ الحكاية أكثر تعقيداً ممّا نتصوّر.

كلام مشجّع، لكن ما أغفله براندون هو أنّ عبارة بلزاك تنطبق عليّ أيضاً...

وجود الفكرة لا يعني سهولة تحويلها إلى رواية بحبكةٍ مقنِعَة، كما أنّ المعلومات المتوفّرة بين أيدينا -حتى الآن- مليئة بالثغرات وعلامات الاستفهام.

هل سأطرق أبواب كل بيوت المغرب للسؤال عن فتاة جميلة كانت في العشرينيات من عمرها في خمسينيات القرن الماضي؟ وهل يعني احتفاظ أبي بالصورة حتمية وجود علاقة عاطفية ربطت بينهما؟ وماذا عن الفتاة الشقراء الأخرى؟

رفع براندون يدي إلى شفتيه، فانهارت مقاومتي أخيراً، واستسلم عقلي المنهَك لرغبة قلبي المحمومة في تأجيل البحث عن أجوبة مقنِعَة لأسئلتي المنطقية.

ولو إلى حين...

*

نام براندون كرضيع بريء، فراقبتُ صدره وهو يعلو ويهبط

t.me/qurssan

بتنفّس منتظم، مستمتعة للحظات بتأمّل شعره وذقنه، ثم أزحتُ الغطاء برفق مَخافة إيقاظه، فظهر جزء بسيط من ساقه الاصطناعية، لم أجد في نفسي الشجاعة الكافية لإطالة النظر إليها.

غادرتُ غرفة النوم بهدوء، ثم عدتُ إلى المطبخ بنشاط غريب، وجلستُ على المقعد متلذّذة بتيارٍ هوائي بارد لسع جلدي العاري، واضعة الكتاب والصور تحت مجهر عيني المتفحّصة من جديد.

فتحت الكتاب في صفحته الأولى، فوجدتُ إهداء بخطٍّ صغير لم تفلح رطوبة السنوات الماضية في محوه بالكامل:

Every era has its own hero

And you're the hero of this era...

لكلّ زمان بطل، وأنت بطل هذا الزمان...

مَن، وما المقصود بهذه العبارة الغريبة؟

لمعت في ذهني فكرة خاطفة، فقربت إليّ الصورة التي تجمع والدي بالمراهقة الشقراء، مدقّقة في عنوان غلاف الكتاب الذي تحمله، وقد أخفت معظم أحرفه بأناملها.

A H R OF O R TI E

MI H L L RM TO

نسخت الأحرف في ورقة بيضاء، ولم يتطلب مني الأمر سوى دقائق معدودة من التفكير لملء الفراغات بالأحرف المناسبة، كما لو كنت أحلّ شبكة كلمات متقاطعة:

A HERO OF OUR TIME

MIKHAIL LERMONTOV

t.me/qurssan

إنها نسخة مترجمة إلى الإنجليزية من رواية بطل من زماننا للأديب الروسي الراحل ميخائيل ليرمنتوف...

النسخة نفسها التي أمسكها بين يدي، واستخدمها والدي لإخفاء صوره!

أوقعني الاكتشاف المفاجئ في حيرة جديدة، فاقتربتُ من نافذة المطبخ، متطلّعة عبرها إلى الأفق، حيث ظهرت الخيوط الأولى لفجرٍ قد يحمل معه جديداً لا أدري إن كنت قادرة في ظروفي الحالية على مجابهته.

قال هتلر ذات مرة إنّ بداية حرب تشبه فتح باب غرفة غارقة في الظلام، لا أحد يمكنه التنبؤ عندها بما سيحدث.

ألم يكُن يعلم بأن تشبيهه ينطبق أيضاً على الشروع في كتابة رواية؟

* * *

t.me/qurssan

خطّ سير الصديقين سيرجي كرياتشكوف وزهير بلقاسم بين السكن الجامعي الحكومي وبيتسا بارك صباح يوم الأحد 13 أكتوبر 2002:

08:07

من حقّك أن تفتخر بدراستك في كلية تنتمي إلى جامعة حكومية كبرى، جرى تدشينها سنة 1755، وتخرج من مختلف فروعها عدد كبير من العلماء والمثقفين من الروس وغيرهم، كعالم الرياضيات أندريه كولموغوروف، وعالم الفيزياء ألكسي أبريكوسوف، وأب الطيران الروسي، العالم نيكولاي جوكوفسكي.



08:43

الكرملين **Кремль**

طبعاً سمعت بهذا الاسم من قبل، نحن نقف الآن على تلّ بوروفيتسكي، قلب العاصمة ومركزها القديم منذ مئات السنين، هنا تجمعت قصور القياصرة الفاخرة وتحوّلت معظمها اليوم إلى متاحف، فيما أصبح الكرملين إجمالاً بعد عام 1917 مقراً إدارياً للسلطات السوفياتية والروسية بعد عام 1991، ما جعله رمزاً دولياً لصناعة القرار عندنا.

t.me/qurssan



09:01

الساحة الحمراء

Красная площадь

هذه أشهر ساحة عندنا، هنا تُقام العروض العسكرية الكبرى، ومن هنا كانت تنطلق قوات جيشنا للاشتباك مع النازيين في جبهات القتال خلال الحرب الوطنية العظمى، وهنا احتفل الآباء والاجداد بالنصر. إذا رفعت عينيك سترى على اليمين برج الكرملين الاكبر، وعلى اليسار كاتدرائية القديس باسيل الرمزية بألوانها الزاهية وقبابها الشبيهة بالبصل.



09:13

كاتدرائية المسيح المخلص

Храм Христа Спасителя

بُنيت هذه الكاتدرائية عام 1860 غير أنها لم تصمد سوى واحد وسبعين عاماً فقط، بعدما أمر وزير في حكومة ستالين بتفجيرها بالديناميت عام 1931، لأنّ الشعب السوفياتي مُطالب بالتخلّص من سيطرة الدين على حدّ تعبيره، رهان خاطئ طبعاً، فبمجرد سقوط الاتحاد السوفياتي تمّت إعادة بنائها وافتتحت قبل سنتين!

t.me/qurssan



09:51

خط كاخوفسكايا
Каховская линия
محطة كاخوفسكايا
Кахо́вская

نحن على عمق 8 أمتار تحت سطح الأرض، وهذه آخر محطة قبل الوصول إلى بيتسا بارك، أرى علامات الانبهار الشديد على وجهك، فكلّ محطة من محطات المترو عندنا تحفة فنية مبهرة تستحق الوقوف أمامها طويلاً، ولكنه الوقت الذي يداهمنا يا عزيزي!



09:58

الحديقة التاريخية الطبيعية "بيتسا"
Природно-исторический парк «Битцевский лес»

وصلنا أخيراً!

* * *

t.me/qurssan

(6) علاقات خطرة

تزوجت نادجيدا كروبسكايا لأنها الوحيدة
القادرة على فهم ماركس ولعب الشطرنج.
فلاديمير لينين

الأحد 13 أكتوبر 2002
بيتسا بارك - جنوب موسكو:

عندما أخبرني سيرجي أنّ المسابقة ستُقام بحديقة تدعى بيتسا بارك، لم أكُن أعلم أنّ الأمر يتعلّق بمتاهة خضراء تغطّيها الأشجار، تقول اللوحة الإرشادية إنّ مساحتها تبلغ 22 كيلومتراً مربعاً.

وتبعد عن وسط المدينة بما يُقارب العشرين كيلومتراً!

- أيّ مجنون راودته فكرة إقامة المسابقة في مكان بعيد كهذا، وفي العاشرة صباحاً من يوم الأحد؟

ابتسم سيرجي مجيباً:

- المساحة الخضراء كلها أمامك، كُن دقيق الملاحظة، وستُجيب عن أسئلتك بنفسك!

تقدّمنا لعشرات الأمتار، فانتبهت لوجود عدد كبير من المتنزهين من مختلف الأعمار.

t.me/qurssan

أطفال يركضون ويتضاحكون، نساء مشغولات بالثرثرة، ثنائية كانت أو جماعية، رجال يمارسون بعض التمارين الرياضية، وعجَزَة يجلسون على المقاعد، مستندين إلى عصيّهم، ومتطلّعين نحو الفراغ بصمت.

- كما شرحت لك قبل قليل، فور انهيار الاتحاد السوفياتي أقبل الروس على ترميم الكنائس وإعادة بناء ما دُمّر منها، هل هي رغبة صادقة في العودة إلى الدين بعد عقود طويلة من التخلي القسري عنه؟ لا أدري. . . المهم أنّ الكثيرين حريصون على المشاركة في قداس الأحد، طبيعي إذاً أن تنتبه للحركة النشيطة في الشوارع ومحطات المترو والحدائق، رغم أنّ الأمر يتعلق بصباح يوم عطلة أسبوعية.

لاحظت أيضاً وجود طاولات خشبية، وأخرى حجرية صلبة، رسمت عليها رقع شطرنج، ففهمت قصد صديقي الأول، مع انتظاري لتعليقه الشارح:

- اقترنت حديقة بيتسا بارك بالشطرنج، فباستثناء فصل الشتاء حيث تتجمّد البحيرة وتنخفض درجات الحرارة لمستويات قياسية، يستحيل ألّا تجد هنا عشرات المتقاعدين والطلبة المولعين باللعبة، يتبارزون في مباريات شيّقة تستمر حتى غروب الشمس، وبما أنك ممارس قديم فلا حاجة لي بتذكيرك بتفوّق الروس دولياً في اللعبة.

قلت بسخرية:

- أعلم ذلك، وقد لقّبوني قبل سنوات بكاسباروف المغرب. . .

رفع سيرجي حاجبيه في دهشة، وهَمَّ بقول شيء ما، لكنه تراجع بسرعة، متنبهاً للواقفة على بُعد أمتار قليلة منا.

لحظات كانت كافية لأعيد تجميع معلومات التقطتها من صديقي طوال الأيام السابقة، وعلى فترات متباعدة، تعمّدت خلالها إظهار

t.me/qurssan

اللامبالاة خلال طرح الأسئلة، تجنّباً لأيّ سوء تفاهم يمكن أن يقع بيننا.

أولغا كوزنيتسوفا، في التاسعة عشرة من عمرها، تُقيم بالقرب من ساحة بوشكين في العاصمة، لم أكُن مخطئاً عندما اعتبرتها رياضية محترفة، لأنها مارست الجمباز لسنوات، ولن أبالغ بقولي أنها أتقنت الشطرنج مباشرة بعد تعلّمها المشي...

هذا ما نطلق عليه الجمع بين الرياضة البدنية والرياضة العقلية باقتدار، وإذا أضفنا إلى ما سبق حظاً وافراً من الجمال، وذكاء متّقداً مكّنها من الحصول على معدّلات متميّزة طوال مسارها الدراسي، فيكون من البديهي القول إنها بلغت أقصى مراتب الكمال البشري.

ولكنني لستُ من المؤمنين بالبديهيات، وأحفظ أهمّ قاعدة في سلسلة دروس علّمتني إياها الحياة، رغم أنني لم أبلغ عامي العشرين بعد.

إنها لن تمنحك كلّ شيء أبداً...

قال سيرجي ذات ليلة -سهرنا فيها حتى ساعة متأخرة- إنّ أولغا حادّة الطباع ومتقلّبة المزاج، تتودّد إليك بما يشجّعك على التقرّب منها، ثم تصدمكَ فوراً بجفافٍ مفاجئ غير مفهوم، ما جعلها إلى حدٍّ ما منبوذة من الكلّ.

كلهم جرّبوا حظهم معها، وفشلوا...

حاول رفيق السكن تبرير تقلّبها، منقاداً لسلطة قلبه، إلّا أنه لم يستطِعْ إخفاء امتعاضه من سوء طباعها وغرورها المبالَغ فيه على حدّ وصفه، معتبراً إياها نسخة أنثوية خالصة من غريغوري بيتشورين بطل رواية ليرمنتوف.

أو من زهير بلقاسم، كما قلت في سري، ويراودني شعور قوي

t.me/qurssan

بأنني سأجد نفسي في رواية ليرمنتوف، ما يضاعف من حماسي لقراءتها، ومن النسخة التي استعارتها أولغا بالذات.

كانت بكامل أناقتها وحضورها الأنثوي المسيطر، مزيّنة وجهها بابتسامة براقة، وهي تستمع لكلام أحد منظّمي المسابقة. هَمّ سيرجي برفع يده لتحيّتها، فمنَعْته في آخر لحظة.

- لا تكُن مندفعاً هكذا، يبدو أنّ كل ما قرأته من روايات لم ينفعكَ بشيء!

ابتسم في حرج، فيما استدارت أولغا نحونا، مقتربة ببضع خطوات، وموجِّهة كلامها إليّ بترفّع، من دون الحاجة إلى إلقاء التحية:

- هيه أنت، مستعدّ لتلقي هزيمة نكراء؟

التقطتُ لهجتها المستهزئة لأردّ باستفزاز مضادّ:

- مَن تحسبين نفسك؟ جوديث بولغار؟ لا تقارني نفسك بها، فهي أفضل منك.

ثم أضفتُ بتلذُّذ:

- وأجمل...

احمرّ وجهها في انزعاج، لكنها تمالكَت نفسها بالقول:

- المجرية جوديث بولغار هي أعظم لاعبة شطرنج على الإطلاق، وتمكّنت بذكائها، لا جمالها، من هزم عباقرة اللعبة، آخرهم جاسباروف في مباراة تاريخية شهر سبتمبر الماضي...

ابتسمت في ظفر، مستمتعاً بوصولي إلى هدفي في إثارة عصبيتها.

أعرف جيداً هذه النوعية من النساء اللواتي لا تختلف طباعهن، سواء كنّ في المغرب أو روسيا أو أبعد نقطة في غابات الأمازون.

t.me/qurssan

هي تقول لكَ بشكلٍ ضمني: أنا جميلة، وأعلم أنني جميلة، وأعلم أنّ 99 من أصل 100 رجل يتودّدون إليّ لأنني جميلة، لقد مللتُ اللعبة السخيفة. أثبِتْ لي بطريقة ما أنك الوحيد المختلف عن الآخرين!

وذلك ما فعلته بإظهار اللامبالاة وتعمّد التلاعب بأعصابها.

أمّا سيرجي المسكين، فقد بذلَ كلّ ما في وسعه لسنوات، محاولاً لَفْتَ انتباهها، ولا شكّ في أنها فهمَتْ كلّ تلميحاته، لكنها اكتفت بالتجاهلِ الجارح القاسي.

لم يفهم صديقي الطيب أنّ الأنثى تحتقر مَن يُظهر استسلامه لها، فحتى أشرس نسوية تدّعي محاربة الهيمنة الذكورية، تكره في أعماقها مَن يُشعرها بأنها أقوى منه!

- يريد المنظمون إنهاء المسابقة في وقت مبكر. سيتم تنظيم مباريات سريعة لا يتجاوز وقت كل واحدة منها عشر دقائق فقط.

قالتها بجدّية، فسألتها باهتمام:

- والسبب؟

حاول سيرجي التدخل للإجابة، لكنها سبقته:

- ادّعى الأستاذ أنّ الأمر يتعلق بتدبير عدد المشاركين بالتناسب مع الحيّز الزمني، لكننا جميعنا نُدرِكُ السبب الحقيقي، لن يخاطر أحد بالبقاء هنا بعد حلول الظلام، خشية الوقوع في قبضة سفّاح بيتسا بارك.

سيطرت عليّ دهشة كبيرة، لم ينجح رفيق السكن سوى في محو جزءٍ يسيرٍ منها:

- تشهَد الحديقة وقوع سلسلة جرائم غامضة منذ العام الماضي، صحيح أنّ الأمر يتعلق دائماً بمتشرّدين يلقون حتفهم بضربة قوية على

t.me/qurssan

الرأس، لكن تزايد عدد الجرائم مع عجز الشرطة عن إلقاء القبض على الفاعل يخلق حالة من القلق العارم لدى سكان موسكو.

وكما لو أنّ الأمر أقلّ من عادي، غيّرت أولغا الموضوع ببساطة:

- لقد أفرجوا عن لائحة المباريات، هيّا بنا لنلقي نظرة.

كانت الطاولات والمقاعد مصفوفة بانتظام، وعلى كلّ واحدة منها أسماء المتبارين في الدور الأول، ونظراً إلى مشاركة عدد من الطلبة الأجانب، فقد تمّت كتابة الأسماء بالإنجليزية.

Zouhair Belkacem vs Igor Flodorov

- يا لكَ من محظوظ، مباراتك الأولى مع إيغور فيودوروف، أفضل لاعب في جامعة موسكو الحكومية على الإطلاق، والفائز بعددٍ من البطولات الوطنية!

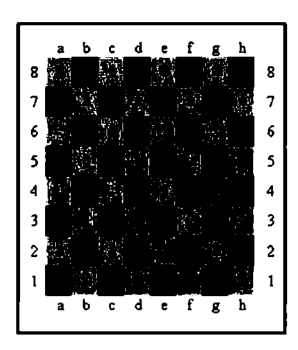
ميّزت السخرية في جملة أولغا، فتضاعفَت حدّة قلقي، وأنا أمدّ يدي لمصافحة غريمي، بشعره الأسود وعينيه الزرقاوين وصدريته البيضاء، والذي بادلني التحية بودّ واحترام كبيرين.

وبدأت المباراة...

أنا صاحب القطع البيضاء، والروسي بالقطع السوداء.

حاولتُ الحفاظ على هدوئي وتركيزي، منطلقاً بافتتاحية التعذيب الإسباني المفضّلة عندي. فَهِمَها غَريمي بسرعة فردّ عليها بالاستراتيجية نفسها، على الشكل المعروف:

t.me/qurssan



1. e4 e5
2. Cf3 Cc6
3. Fb5

*

ضربت باب الغرفة بقدمي، في تعبير عن السخط الشديد، ثم ارتميتُ على السرير، مُديراً وجهي نحو الحائط بلونه الأصفر الفاقع.

- لا مبرِّر لغضبك الزائد يا زهير، لقد واجهتَ بطلاً لا يُشقّ له غبار، ورغم إقصائك في الدور الأول إلّا أنّ الحكّام أشادوا بمستواك الجيد، كما وجّه إليك إيغور فيودوروف تحيّة تشجيع صادقة.

لم أجِبْه، فواصَل:

- واعذرني إنْ ذكّرتك باعترافك قبل أيام عن عدم مزاولتك للّعبة منذ فترة طويلة، طبيعي إذاً أن تخسر، فالشطرنج مثله مثل أيّ رياضة أخرى، يتطلّب تدريباً مستمراً للحفاظ على المستوى واللياقة الذهنية.

فضّلتُ التحوّل إلى تمثالٍ أخرس، فأنهى كلامه بالقول:

t.me/qurssan

- يبدو أنكَ تريد البقاء وحيداً، حسناً، سأزور بعض الأصدقاء في الطابق الرابع.

انتظرتُ مغادرته للغرفة، لأفتحَ حقيبة الظهر الصغيرة، مستخرجاً منها نسخة رواية ليرمنتوف التي سلَّمتني إياها أولغا بعد نهاية المسابقة.

- كم أنتَ مثير للشفقة أيها المغربيّ الثرثار، خُذها، أتمنى أن يعلِّمكَ درس اليوم كيفية إغلاق فمك في المرة القادمة.

حمَلت جملتها كلّ السخرية والتشفي، فرفَضْتُ، لكنها أصرَّت على فتح حقيبتي ووضع النسخة بنفسها، أمام نظراتٍ مَزَجت بين التعجّب والانزعاج في عينَي سيرجي.

تذكَّرتُ المشهد السخيف، فرميتُ النسخة بعصبيّة لتصطدم بالجدار وتسقط على الأرض، وقد ظهر طرف ورقة بيضاء مطوية بين الصفحات المصفرّة.

انعقد حاجباي في تساؤل، فاقتربتُ من الكتاب وجذبتُ الورقة وفتحتها:

An unusual beginning must have an unusual end.

Mikhail Lermontov - A Hero of Our Time

Don't be sad. You faced a strong hero and managed to hold on to the end. I wasn't luckier than you and got eliminated in the third round !

We will met on Wednesday 23 October

Olga

t.me/qurssan

خيّل إليّ أنني لم أفهم محتوى السطور القليلة بخطّها المنمّق الدقيق، فأعَدتُ قراءتها أكثر من مرة:

البداية غير العادية، لا بدّ لها من نهاية غير عادية.

ميخائيل ليرمنتوف - بطل من زماننا

لا تحزن، لقد واجهتَ بطلاً قوياً، وتمكّنتَ من الصمود حتى النهاية، لم أكُن أفضل حظاً منك وتمّ إقصائي في الدور الثالث!

نلتقي يوم الأربعاء 23 أكتوبر :)

أولغا

* * *

t.me/qurssan

من مسوّدة أطروحة دكتوراه في الآداب المعاصرة، بعنوان مؤقت (تقنيات السرد في الرواية الجديدة - دراسة تحليلية لرواية «أحجية مغربية» للكاتب المغربي خالد رفيقي) من إنجاز الطالب الباحث رشيد بناصر:

(...) في الاتجاه ذاته، اهتمّ عدد كبير من الروائيين اليوم بثنائية الشكل والمضمون، التي لا ينفصل أولها عن ثانيها، وأبدعوا أنساقاً سردية جديدة تستطيع مفاجأة القارئ ومراوغة أفق تطلّعه، مستفيدين إلى حدٍّ كبير من قدرة جنس الرواية على استيعاب مختلف الأجناس الأدبية، محطّمين بذلك الحدود الفاصلة بين الأنواع، فأدرَجوا القصّة، والقصيدة، والمسرحية، والرسالة، والمقالة الصحفية، والأغنية وغيرها داخل المتن الروائي.

من هذا المنطلق، اعتمدتُ في بحثي على مقاربةٍ منفتحة تتماشى مع موضوع أطروحتي، تناولت من خلالها بالتحليل رواية **أحجية مغربية** للكاتب المغربي خالد رفيقي.

تُخضع مقاربتي النصّ لدراسة نقدية موسّعة، جمعت فيها بين المناهج الأسلوبية والبنيوية ومعهما التفكيكية والتأويلية، مع الاعتماد على الوصف والتحليل والتفسير، منتقلاً من النظرية إلى التطبيق.

تتمتّع هذه الرواية الصادرة عام 1989 بخصوصيّة أراها فريدة من نوعها، فباستثناء خبر الإعلان عن صدورها في جريدة مغربية توقّفت عن نشر أعدادها منذ مطلع التسعينيات، لم تحظَ بأيّ اهتمام إعلاميّ يُذكر.

لا وجود لأي قراءة نقدية في العمل، سواء تعلّق الأمر بمقالٍ تحليليّ أو دراسة جامعية مفصّلة، كما أنّ الحصول على نسخة من الطبعة الوحيدة للرواية لم يكُن بالأمر الهين، إذ يبدو أنّ صعوبات سوق الكتاب بالمغرب قد حكمت على دار النشر الصغيرة التي أصدرتها بالإغلاق بعد سنوات قليلة من تأسيسها.

t.me/qurssan

رغم كلّ العراقيل المذكورة، قرّرت الاشتغال في أطروحتي على رواية احجية مغربية ليقيني من اشتمالها على اكثر من عنصر يُخضعها امقاربتي حول تطوّر التقنيات السردية في للرواية الجديدة، وهو ما سأتناوله ،التفصيل في البحث (...)

* * *

t.me/qurssan

(7) أرى ما أريد

الحبّ في القرن العشرين: هاتف لا يرن أبداً!

فريدريك بيغبيديه

الاثنين 21 أكتوبر 2002

المدينة القديمة - الرباط:

ما إن علمَ دافيد هيرش بتخطيطي للسفر إلى المغرب واشتغالي على رواية جديدة، حتى أظهرَ جانباً ملائكياً طيباً لا يليق به، فاتصل بي، عارضاً تقديم مساعدته بتوظيف شبكة علاقاته في وزارة الخارجية الأميركية ومعها سفارة الولايات المتحدة ووكالات الأسفار الكبرى، لتوفير أفضل الظروف لمقامي ببلدٍ أجهل عنه كلّ شيء تقريباً، محذّراً إياي من التعرّض لأخطارٍ لا وجود لها إلّا في خياله.

أفهم هذا المتملّق جيداً، وأدرك أنّ هدفه الحقيقي هو الحصول على معلومات أولية سيَبيعها إلى صحافيين متحفّزين للانقضاض على أيّ خبر يخصّني.

ولأنني أخشى ظهور صوري ومعها عناوين صحفية سخيفة على

t.me/qurssan

شاكلة: «ماذا تفعل الروائية كريستين ماكميلان في المغرب؟» أو «كريستين ماكميلان تعود إلى خمسينيات القرن الماضي في روايتها الجديدة» أو حتى «كريستين ماكميلان تستعين بماضي والدها لمواجهة جفاف قريحتها»، فقد رفضتُ عَرضه بلطفٍ مصطنع، مفضِّلة الاشتغال على روايتي ومعها تحقيقي حول ماضي والدي بهدوء، مبتعدة عن البذخ والصخب، ومنحازة إلى البساطة، والتأثّر بنمط عيش براندون الذي اتصل بوكالة سياحية صغيرة حَجَزَت لي غرفة في فندق تقليدي أعجبني ديكوره من خلال الكاتالوج الإشهاري.

وبالفعل، ما إن أوصلتني سيارة الأجرة إلى باب الفندق، حتى استقبلني خادم غرف شاب، في أواخر العشرينيات من عمره تقريباً، رحّب بي بإنجليزية مُتقَنة، وقادني إلى مكتب الاستقبال، حيث أنهيت الإجراءات ودلفت إلى الغرفة، مرتمية على السرير من دون التفكير في تغيير ملابسي، لأغرق مباشرة في نومٍ بلا أحلام...

*

استيقظت شبه مخدّرة، ولم أستعِد صفاء ذهني إلّا بعد حمّام أعاد بعض النشاط إلى جسدي المكدود، فوضعتُ حاسوبي على المنضدة الخشبية، ومعه أوراقي ومذكّرة تضمّ الخطوط الرئيسة للعمل، ثم ضبطتُ ساعة يدي بحسب توقيت المغرب المُشار إليه في الساعة الحائطية.

الرابعة والنصف مساء...

فتحت ملفاً يضمّ مسودة الرواية الجديدة، وانهمكتُ في مراجعة ما كتبته طوال الأسابيع الماضية.

فصول أولى بسردٍ مباشر يعتمد على تقنية الراوي العليم، لا انكر بأنني لم أجد أدنى صعوبة في صياغة عوالمها وأحداثها، مع

t.me/qurssan

يقيني من صعوبة القادم، وتفاصيل ما جرى لبطل الرواية في المغرب. . .

اهتزّ الهاتف المحمول في غفلةٍ مني، فانتفضتُ بقوة، ليفتر ثغري بعدها عن ابتسامة سعادة مع قراءتي لاسم المتّصل.

- أهلاً كريستين، إذا كانت حساباتي مضبوطة، فالساعة تُشير الآن إلى الخامسة والربع مساء في الرباط، أليس كذلك؟

امتدّت أصابعي لمداعبة خصلات شعري بحركةٍ آلية، كما لو كنتُ أرى براندون أمامي، رغم ابتعاده عني بآلاف الكيلومترات، ثم أجبته بدلال:

- أجل، وماذا أفعل الآن برأيك؟

استمرّ صمته للحظات، أدركتُ خلالها أنه يبتسم باحثاً عن كلمات مناسبة، ليقول بجدّية مصطنعة:

- سأستعيرُ عبارة تتكرّر على ألسنة ممثلي الأفلام، وأقول بأنني أحمل لكِ خبرين، أحدهما سيئ، والآخر جيد جداً!

قرَّبتُ إليّ قلمي ومذكّرة ملاحظاتي بتحفز:

- وجوابي سيكون مألوفاً أيضاً، ابدأ بالخبر السيئ أولاً!

- إيرني جونز نزيل دار للعجزة في كليفلاند، ومُصاب بألزهايمر، ولا يذكر حتى كيفية ارتداء سرواله، ما يعني أنّ استقاء معلومات منه عن والدك مستحيل تماماً.

وضعتُ خطاً على اسمه في مذكرتي، مع كتابة كلمة : Alzheimer

t.me/qurssan

~~Paul Haward : Death~~

~~Bruce McBride : Death~~

~~Eddie Stewart : Death~~

~~Jeff Murray : Death~~

~~Earnie Jones : Alzheimer~~

Tony Wagner :

وأضفتُ بلهجةٍ مشجِّعة لكلينا:

- ما يعني أن أملنا الوحيد سيكون بالوصول إلى توني فاجنر...

- مرّ وقت طويل جداً على تلك الأحداث، ومن الصعب بقاء أيٍّ من الموجودين بالصورة مع والدك على قيد الحياة، ماتَ بول هاوارد وبروس ماكبرايد وجيف موراي بشكلٍ طبيعي، لقيَ إيدي ستيوارت مصرعه في حادثة سير نهاية الثمانينيات، إيرني جونز مُصاب بألزهايمر، بقي أمامنا توني فاجنر فقط.

- حسناً، ما هو الخبر الجيد؟

ردّ بحماس:

- تواصلتُ مع صديق قديم لي بمصلحة الأرشيف العسكري، فهم أنني لا أريد المرور عبر مسار بيروقراطي سيعرّضنا لخطر الوقوف في مرمى الصحافة الفضولية، ومدّني مباشرة بأسماء مدنٍ مغربية تمركَزَت بها قواعد عسكرية أميركية خلال وبعد الحرب العالمية الثانية، ما سيسهِّل من مهمّة بحثكِ أكثر.

هتفت بلهفة:

- هيّا بسرعة، آتِ ما عندك!

t.me/qurssan

لم أكَد أكمِل العبارة حتى انقطع الاتصال فجأة، فانتبهتُ لفراغ بطارية الهاتف، وهرعتُ إلى حقيبتي بحثاً عن شاحن ربطته مباشرة بالهاتف، ثم أدخلته في المقبس.

ثانيتان فقط...

أصدرَ الشاحن حشرجة مُخيفة مَنَعتني من الاقتراب منه، قبل أن تتحوّل دهشتي إلى غضبٍ عارم...

اللعنة!

يبدو أنه تماس أو عدم توافق مع النظام الكهربائي، تسبّب في تدميره وتلف الهاتف المحمول مرة واحدة!

صوّرت لي عصبيتي الشديدة أنّ كلّ ما في الغرفة من أثاث يكاد يحذّرني من لمسه، خشية التعرّض لصعقة كهربائية قاتلة، فغادرتها متوجّهة نحو مكتب الاستقبال في الطابق الأرضي، مطلقة نيران احتجاجاتي على الجميع بلا استثناء.

التفتَ عدد من السياح نحوي باستغراب، وكادت عينا الموظف تغادران محجريهما من شدّة الدهشة والخوف، فحاول تهدئتي بكلماتٍ متقطّعة مزج فيها بين الإنجليزية والفرنسية:

- Please... Madame... Du calme... Don't panic!

اقترن ذلك بخروج خادم الغرف الشاب الذي حمل أمتعتي من قاعة جانبية، مرتدياً ملابس الخروج وحقيبة على ظهره، دليلاً على استعداده للمغادرة.

تبادلَ معه الموظف كلاماً باللغة العربية، خمّنت أنه يعبّر عن السخط والامتعاض، أنهاه الخادم بابتسامة هادئة حافظ عليها في أثناء اقترابه مني بثقة.

هو أقرَب للسمرة، بشعرٍ مجعّد وعينين لوزيتين بمزج بريقهما

t.me/qurssan

بين الوداعة والذكاء، كما توحي بنيّته الأقرب إلى النحافة بالصلابة واعتياد صاحبها على الشاقّ من المَهام.

سألني بإنجليزية جميلة:

- ما المشكلة يا سيدتي؟ هل من مساعدة أقدّمها لك؟

- أدّى تلف خطوطكم الكهربائية إلى تدمير هاتفي المحمول، ماذا سأفعل الآن؟

- لنتأكّد أولاً ممّا جرى، وبعدها سنتصرّف!

لم ينتظر الشاب جوابي، متوجّهاً نحو غرفتي في الطابق الأول، فتبعته، دون أن تغفل عيناي نظرات حسدٍ واضح حدجَ بها موظّف الاستقبال زميله...

- لا يوجد أيّ خللٍ في خطوطنا الكهربائية يا سيدتي، الأقرب للظنّ هو تعطّل الشاحن...

قال الخادم ذلك بعد دقيقة من عزل التيار عن الغرفة وتفحّص الشاحن والهاتف المحمول، ليُضيف:

- لا تقلقي، الأقرب للظنّ أنّ هاتفك المحمول لم يتعرّض للتلف، من حُسن حظكِ أنك تنزلين في فندق قريب من سوق لكزا بالمدينة القديمة، يوجد هناك جيش من العباقرة القادرين على إصلاح كلّ الأجهزة الإلكترونية في رمشة عين!

*

احتبستُ كلمات الشكر في حنجرتي مع تسلّمي لهاتفي المحمول ومعه شاحن جديد، فيما انشغلَ الشاب بحوارٍ قصير مع نغمي هواتف يُقاربه في السن، أتبعه بقوله:

- اطمئني، سأرافقكِ إلى الفندق، لا شكّ في أنك ستجدين صعوبة في العودة عبر متاهة الأحياء القديمة.

t.me/qurssan

تبعته ببساطة، محاذرة الاصطدام بالمارة، مع انزعاجي من الزحام الشديد، فقادني إلى حيٍّ جانبي ضيق، أنهيتُ فيه صمتاً دام لدقائق طويلة:

- أعتذر عمّا جرى قبل قليل، عصبيّتي لا معنى لها، لكنني أعيش ضغطاً رهيباً يؤثر على مزاجي...

لكنه فاجأني بسؤالٍ مباغت:

- أنت روائية، أليس كذلك؟

أجبته باستغراب:

- أجل، كيف عرفت؟

قال بتردّد، كما لو كان يخشى غضبي:

- سبق أن رأيتُ صورتك في مجلة أدبية فرنسية أعلنَت عن صدور ترجمة إحدى رواياتك، كنت متردّداً في الربط بينها وبينك عندما حللتِ بالفندق، لكن نظرة سريعة على الفوضى في مكتب غرفتك، والحاسوب المحمول المفتوح على ملف Word، مع المذكّرة والأوراق المبعثرة المليئة بالملاحظات، كلها أكّدت صواب ظني.

- وهل يهتم كلّ خدم غرف الفنادق هنا بالروائيين والأدباء مثلك؟

لم تكَد العبارة الغبيّة تغادر لساني حتى انتابني شعور قوي بالندم، فنهشَت أسناني الأمامية شفتي السفلية المرتعشة، فيما لمعَ وميض حزنٍ خاطف في عينَي الشاب، حاولَ إخفاءه بمدّ يده إليّ مصافحاً:

- رشيد بناصر، طالب باحث في سلك الدكتوراه، تخصّص الآداب المعاصرة...

t.me/qurssan

وأضاف بما يشبه العتاب المبطن:

- وأعمل خادم غرف في فندق للتكفّل بمصاريفي ومساعدة أسرتي القاطنة بإحدى القرى البعيدة...

* * *

t.me/qurssan

بطل من زماننا (رواية) – ميخائيل ليرمنتوف (ترجمة سامي الدروبي) – ط 1 (ص 150)

ذلك كان حظّي منذ نعومة أظفاري! كان جميع الناس يقرؤون في وجهي علامات غرائز شريرة أنا منها بريء، وما زالوا يفترضونها فيّ، حتى نبتت وتأصّلت. كنت خجولاً فاتهموني بالمكر، فأصبحت كتوماً. وكنت أحسّ بالخير والشر إحساساً عميقاً، ولكن أحداً لم يعطِف عليّ، بل كانوا جميعاً يؤذونني، فأصبحتُ حقوداً أحبّ الانتقام. وكنت حزين النفس، وكان الأطفال الآخرون فرحين هدارين، وكنت أشعر أني فوقهم، فقيلَ لي إني دونهم، فأصبحت حسوداً؛ وكنت مهيأ لأن أحبّ جميع الناس، فلم يفهمني أحد، فتعلّمت الكره. لم يكُن شبابي الخالي من الفرح إلّا صراعاً مع الناس ومع نفسي. خوفاً من الهزء، دفنتُ أنبل عواطفي في أعماق قلبي، فماتت هناك. وكنت أحبّ أن أقول الحقيقة، فلم يصدّقني أحد، فأخذت أكذب. وقد تعلّمت أن أسبر أغوار الناس، وأن أدرك الدوافع التي تحرّكهم فأصبحت بارعاً في فنّ الحياة، ولاحظت أنّ غيري ممّن لا يملكون هذا الفن كانوا سعداء، ينعمون، من غير جهد، بهذه الخيرات التي كنت أجهد للحصول عليها بلا كَلل؛ فولّد اليأس في قلبي، لا ذلك اليأس الذي تذهب به رصاصة من مسدس، بل هذا اليأس البارد، العاجز الذي يختفي وراء سلوك لطيف، وابتسامة طيبة. أصبحت روحي مشلولة. ذهب نصف نفسي: جفّ، تبخّر، مات. قطعته ورميته بعيداً عني. بينما كان النصف الآخر يتحرّك ويتمنى أن يخدم جميع الناس. ولكن أحداً لم يُلاحظ ذلك، لأنّ أحداً لم يعرف أنّ النصف الضائع كان موجوداً.

* * *

t.me/qurssan

(7) ابنة الضابط

العالم مسرح كبير، مع توزيع سيئ للأدوار.
أوسكار وايلد

الأربعاء 23 أكتوبر 2002
بين السكن الجامعي ومسرح دوبروفكا - موسكو:

لم تكُن العربة المنطلقة من محطّة تروبتسكايا ممتلئة كما توقّعت، فجلسنا على مقعدين متقابلين، ما مكّنني من الاستمتاع بالنظر إلى الجميلة الجالسة أمامي، وإن تظاهرت بالعكس.
كنت أجهَل السبب الذي دفعها إلى اختيار الأربعاء 23 أكتوبر موعداً للّقاء، وإن قدَّرت أنها تمنحني مهلة كافية لإكمال قراءة بطل من زماننا وإعادة النسخة، وهو ما تمّ بالفعل.
- لا شكّ في أنّ سيرجي قدَّم لك معلومات وافية عني، بحسب ما يعرفه الجميع، أولغا كوزنيتسوفا، شقراء مغرورة تتلاعب بالرجال ولم يتمكّن أحد من الحصول على ما يريده منها، صحيح؟
احمرَّت أذناي خجلاً مع تذكّري لصديقي الروسي، وما يمكن اعتباره خيانة لمشاعره تجاه الروسية، بموافقتي على مقابلتها من دون علمه.

t.me/qurssan

- استنتجت ذلك أيضاً، وتساءلت فعلاً عن السبب، ميولك مختلف بعض الشيء؟

صمتَت لثانيتين استوعبت خلالهما تلميحي، لتُطلق بعدها ضحكة عابثة:

- يا لك من لئيم! طبعاً لا!

ثم أكمَلت بجدية لم أرَ مثلها في لقاءاتنا السابقة:

- تخيَّل معي نشأتك في أسرة ربها ضابط في سلاح البحرية بالجيش السوفياتي، يعتقد أنّ منزله ثكنة يفرض فيها على زوجته وأبنائه نظاماً موغِلاً في الصرامة، الذكور يتمّ إلحاقهم بمدرسة عسكرية ثم يرسلون إلى أفغانستان ليُصابوا أو يلقوا حتفهم هناك منتصف الثمانينيات، وأنا الأنثى الوحيدة، أجبر على استيعاب مقرّرات دراسية أعلى من مستواي، مع الخضوع لتدريبات مكثّفة في الجمباز ودروس البيانو وخطط الشطرنج، رغم أنني بعد في السابعة من عمري، طيب، ماذا تتوقع من تحوّلك إلى آلة مبرمجة مهمّتها فقط تنفيذ أوامر لا تَفهم من قصدها الحقيقي شيئاً؟

- أن تموت مشاعرك في مَهدها، وتزهد في كلّ العلاقات الإنسانية...

صفقت بيدها مؤيّدة كلامي بعينين حالمتين:

- بالضبط! وهذا ما أوصلَني إلى ما عبَّر عنه صديقنا بيتشورين بقوله: «كنت مهيأ لأن أحبّ جميع الناس، لم يفهمني أحد فتعلّمت الكره».

تذكَّرت الاقتباس، فمرَّت بذهني صور ضبابية حاولتُ التخلّص منها بتأمّل أولغا في صمتٍ حفَّزني على مشاطرتها ذكرياتي أنا مع المشاعر الإنسانية.

t.me/qurssan

هل أحكي لها عن طفولةٍ أفسَدَها والداي بسبب أنانيتهما؟

قد أختلفُ عنها بما أملكه من مواهب حقيقية فَضَّل الجرَّاح والمحامية تجاهلها ومواصلة لهاثهما وراء الجنس والسلطة والمال عوض استثمارها، لأصلَ أنا إلى النتيجة الحالية. . .

هل أنقل إليها تفاصيل ما جرى بيني وبين الغالية ليلة اغتصابها؟

قروية مسكينة اعتديتُ عليها، وجئتُ إلى أبعد نقطة في الكرة الأرضية هرَباً من ذكراها. . .

قطَعَت أولغا سكوتي الطويل بقولها:

- كان والدي شيوعيّاً متعصّباً، مؤمناً بتفاهات التفوّق السوفياتي في مواجهة خطر الرأسمالية والإمبريالية وكلام فارغ آخر، أوصل البلاد إلى حتفها، فكان طبيعياً أن يُصدم بانهيار 1991، ويفضِّل الانغماس في مهمات عسكرية بعيدة مع الجيش الروسي، يغيب فيها عن المنزل طوال العام، وانتهت أخيراً منذ عامين.

- بتقاعده؟

ردّت بما يشبه الاستهزاء:

- لا، بمقتله في حادثة غواصة كورسك الشهيرة. . .

هتفتُ مصدوماً:

- هل تقصدين الغواصة التي انفجرت صيف عام 2000، وبقي بعض الجنود أحياء، ليساهم تلكؤ السلطات الروسية في وفاتهم اختناقاً؟ أذكر جيداً اهتمام وسائل الإعلام العالمية وقتها بما جرى!

أجابت بابتسامة حزينة:

- نعم، لكنه كان محظوظاً بعض الشيء، وقُتِلَ في الانفجار الأول. . .

t.me/qurssan

مسحَت دمعة وهمية، ثم أردفت بلهجة محايدة:

- وصلنا إلى محطة باريكادنايا، وسنمرّ منها إلى محطة بروليتارسكايا لنواصل طريقنا وصولاً إلى هدفنا في دوبروفكا.

كانت جملتها أشبه بجرس منبّه أيقظني من سبات التعاطف مع قصّتها الحزينة، وانتهى بعودتي إلى الحيرة الأولى:

إلى أين نحن ذاهبان؟

خيِّلَ إليّ أنها ستجسر على اصطحابي إلى منزلها، وتخيَّلتُ لوهلة جسدها الرشيق بين ذراعي، ثم استبعدتُ ذلك بسرعة، لعلمي أنّ عنوانها بعيد عن خطّ سيرنا بحسب معرفتي البسيطة بالمدينة.

إلّا إذا...

كنّا على وشك الدخول إلى محطة المترو الموالية، عندما استخرجت من حقيبتها ورقة صغيرة مستطيلة الشكل سلّمتها إليّ:

Норд-Ост

Билет

Дубровке

Среда, 23 октября 2002

تساءلتُ باستغراب:

- ما هذه؟

- اقرأ، الكلمات بسيطة وواضحة بالنسبة إلى مبتدئ في تعلم اللغة الروسية!

أطعتها محاوِلاً الربط بين الحروف والكلمات ببطء:

t.me/qurssan

- شمال... شرق... تذكرة... دوبروفكا... الأربعاء 23 أكتوبر 2002.

- يتعلق الأمر بتذكرة لحضور عرض فنيّ في مسرح دوبروفكا، يحمل عنوان «شمال-شرق».

- جميل، ولكن ما شأني أنا؟

- إنها جائزة مشاركتكَ في مسابقة الشطرنج أيها الغبيّ، كنت غاضباً ورحلتَ سريعاً رفقة سيرجي، ولم تَعلَم أنّ إدارة المسابقة خصَّصت جوائز رمزية لكلّ المشاركين، تمّ مَنحي نسخة من رواية لاعب الشطرنج لستيفان زفايغ مترجَمَة إلى الروسية، لكنني قرأتها مراراً، ففضّلت مبادلتها مع مشاركٍ أُقصِيَ أيضاً في الدور الأول ولم يهتمّ بالحصول على التذكرة لأنه شاهد العرض من قبل، كما أكّدت لأحد المنظمين أنني أعرفكَ ويمكنني تسليمك تذكرتك بنفسي.

قلت بدهشة:

- كلّ هذا للاستفراد بي!

ابتسمَت مجيبة:

- لديك تفسير آخر؟

*

اقتربت عقارب الساعة من الإشارة إلى الثامنة مساء، عندما اتّخذنا مكاننا في القاعة الفسيحة، لا بل المذهلة...

قدّرت عدد الحاضرين بالمئات، جاؤوا كلهم لمشاهدة عرض انطلق بتحكّم احترافي بزوايا الإضاءة، تبعه تقديم مقتضب ورقصات حماسية لممثلات نشيطات يرتدين معاطف ثقيلة بألوان زاهية.

ملتُ على أذن أولغا متسائلاً بتأفّف:

t.me/qurssan

- ما هذا العرض المملّ؟ هل هذه هي المسرحية التي حصلتُ على تذكرة مجانية لمتابعتها؟

- إنها كوميديا موسيقية مقتبسة عن رواية القبطانين لبنيامين كافرين، بمعنى أنها تتضمن أغاني ورقصات تجسّد أحداث الرواية، ألّفها وانتجها إيفاسي وألكسي إيفاشنشنكو ومعهما جورجي فاسليسيف، هل ستصدمني بقولك إنك لا تفهم شيئاً في فن المسرح؟

ضحكتُ في حَرَجٍ، ممتنعاً عن الإجابة، مع تسلّل أصابع يدي اليمنى للاستقرار على ظهر يدها اليسرى، دون أن تُبدي هي أي مقاومة أو ممانعة.

حان دور شبان يرتدون ملابس عسكرية تقليدية لتأدية رقصاتهم في النصف الثاني من العرض، قبل أن يقتحم ملثمون مدجّجون بالأسلحة الخشبة، مطالبين الشبان بالانسحاب.

لم أفهم شيئاً بالفعل، وبدا أنّ ما يُبقيني على قيد اليقظة هو تفكيري فيما سيجري بيني وبين الروسية الحسناء بعد انتهاء المسرحية، فتثاءبت قائلاً:

- هل هو جزء مبتكَر من العرض؟ خدعة فنية عصرية؟ ملثمون ببنادق وقنابل يدوية!

شهقَت أولغا في خوفٍ مفاجئ، متجاهلة سؤالي، وتعالَت هتافات الملثّمين بالروسية ولغة أخرى لا أعرفها، وبدؤوا بإطلاق رصاصاتهم في الهواء، محوّلين صفير بعض الحاضرين من الجمهور إلى صمتٍ ثقيل، تخلّلته صرخات رعب أنثوية هنا وهناك.

لم أكُن بحاجةٍ إلى إتقان اللغة الروسية حتى أنفض أيّ أثرٍ للنوم عن جفوني، وأفهم طبيعة ما يجري أمامي...

t.me/qurssan

هي رصاصات حقيقية، أطلقها مسلحون حقيقيون يقفون على خشبة مسرح يقدّم عرضاً تمثيلياً!

بعبارة أخرى:

هؤلاء المسلحون يحتجزونني أنا، وأولغا، ومعنا مئات الأشخاص كرهائن في مسرح بقلب العاصمة الروسية موسكو!

* * *

t.me/qurssan

كلّ مَن يستطيع كتابة صفحة نثر واحدة،
يضيف بذلك شيئاً ما لحياتنا.

رايموند شاندلر (1888-1959)

t.me/qurssan

-1-

تحول حذاء مصطفى المحمودي إلى كتلة من القذارة مع غوصه في بركة من الأوحال، وتلطّخ سرواله ببقعٍ أفسدت تناسق هندامه، صباح يوم الخميس 21 يوليو 1959، لكنه تجاهل كلّ ذلك، مع سيطرة سؤال ملحّ على تفكيره:

كيف سيتعامل مع قضية لم تشهَد مدينة القنيطرة مثلها من قبل؟

لن يقول بأنه مرتاح في عمله، فهو معتاد على حلّ قضايا الضرب والجرح ومطاردة العاهرات البائسات بين حانات وشوارع وسط المدينة، وكشف غموض بعض السرقات الصغيرة هنا وهناك، أبطالها غالباً فقراء مسحوقون لم يجدوا شيئاً ليسدّوا به رمقهم، فلجؤوا إلى تكرار ما فعله جان فالجان بطل رواية البؤساء لفيكتور هيجو.

أمّا عندما يتعلّق الأمر بالعثور على جثة امرأة بالقرب من ضفّة نهر سبو، تشير المعلومات الأولية إلى أنها قد تكون ضحية جريمة قتل، فهذا غير مألوف بالتأكيد.

لن تكون مهمّته سهلة على الإطلاق...

ليس لأنه معدوم الخبرة، بل ليقينه بأنّ الكثيرين سيرفضون التعاون معه لحلّ القضية.

كان مخطئاً عندما ظنّ بأنّ نقله إلى القنيطرة سيقطع كلّ علاقة له بماضيه، فقد نسي بأنه يعيش في بلد تملك فيه المعلومة أجنحة تحلّق بها، وسيعرف سكان المدينة بأنه عمل سابقاً مع شرطة الاستعمار، وتمكّن من الولوج إلى أسلاك الأمن الوطني بعد تأسيسها كمفتّش.

قد يُظهرون له الاحترام وربما الخوف، لكنهم لن يتعاونوا معه عن طيب

t.me/qurssan

خاطر، وسيطلقون عليه في غيبته ألقاب «الاستعماري» و«العميل» و«الخائن»، وسيصعب عليه كسب ثقتهم الكاملة.

ولكن ما ذنبه هو باعتباره موظفاً صغيراً، في بلدٍ وَجَد نفسه في حاجة ماسة إلى الإبقاء على عدد كبير من الأطباء والأساتذة والموظفين الفرنسيين لمساعدته على إدارة شؤونه «بنفسه»؟

أليس معظم الممسكين بالمفاصل المدنية والعسكرية والأمنية حالياً متعاونين سابقين مع الاستعمار؟

على الأقل هو ليس بوقاحة بعضهم، ممّن ادّعوا انتماءهم سابقاً إلى المقاومة، ومدّوا أياديهم الملطّخة بدماء المغاربة إلى كعكة امتيازات ما بعد الاستقلال، راسمين بذلك لوحة سريالية مشوّهة، أفرزت حكومات عاجزة، وأزمات سياسية داخلية وخارجية، ثم صراعات بين رفاق نضال الأمس، وثورات في الريف ومناطق متفرّقة، تمّ اللجوء إلى الحديد والنار لإخمادها.

ولا يدري أحد أيّ كوارث أخرى تنتظر المغرب بعد مرور ثلاث سنوات على «استقلاله»...

كان رجال الأمن قد أدّوا مهمتهم بإبعاد الفضوليين عن المكان، مع الاحتفاظ برجل هزيل البنية، يرتدي أسمالاً بالية، ويبدو لكلّ مَن يراه أنّ معدته لم تستقبل طعاماً منذ أيام.

اقترب منه مفتّش الشرطة، واستغلّ الخوف الشديد الظاهر على ملامحه المنهكة ليعاجله بالسؤال:

– أنت أوّل مَن اكتشف الجثة؟

بدا كما لو أنه مُصاب بالخرس، فصاحَ مصطفى في وجهه:

– تكلّم!

قال الرجل بما يشبه البكاء:

– نعم، وقمتُ بإبلاغ الشرطة أيضاً. أؤكّد لك بأنني لا أعرفها، ولم يسبق لي رؤيتها قبل اليوم. كنت بالقرب من ضفّة سبو، أبحث عن قواقع الحلزون لبيعها وكسب لقمة عيشي، وهذا الدلو يشهَد على كلامي.

حانت التفاتة سريعة من المفتّش إلى دلوٍ صغير أزرق اللون، تشقّقت حوافه، وامتلأ فعلاً بقواقع حاولت بعضها الصعود إلى أعلى بإصرار رغم

t.me/qurssan

ـطئها الشديد، فيما واصل الآخر بعد استعادته بعضاً من هدوئه وثقته:

– كانت ملقاة على وجهها، حافية القدمين ومبلّلة. لا أعتقد بأنها لقيت حتفها غرقاً.

حدجه مصطفى بنظرة صارمة، ثم قال بأسلوبٍ يعلم في أعماقه بأنه الأصلح للحفاظ على هيبته:

– البحث عن سبب الوفاة ليس من شأنك، مفهوم؟ سنكمل التحقيق لاحقاً، هناك في مخفر الشرطة.

عاد الرجل إلى ذعره الأول، فتنحّى جانباً، تحت حراسة شرطي دلّ المفتش على موقع الجثة.

لم يكذب الشاهد فيما قاله، فالمرأة ملقاة على وجهها بالفعل، وترتدي فستاناً رماديّ اللون، عاري الكتفين، ومبلّلاً بالكامل.

وضع مصطفى قفازاً، ثم اقترب أكثر لرؤية وتفحّص الوجه، فوجدَ نفسه أمام شابة صغيرة السنّ، قدّر أنها في منتصف العشرينيات، ورغم تشوّه ملامحها وزرقة شفتيها والتصاق بعض خصلات الشعر بوجهها، إلّا أنّ أحداً ما كان ليغفل تمتعها –سابقاً– بجمال آسرٍ للنظر.

همس الشرطي المرافق في أذنه:

– سيصل الطبيب الشرعي الفرنسي بعد قليل.

قال مخاطباً نفسه:

– سنحتاجه بالتأكيد، لربما أفادتنا معاينته بشيء، ولكنني لستُ غبياً لدرجة البقاء مكتوف الأيدي وإغفال بعض الملاحظات الأولية، الجثّة غير منتفخة، وبعيدة عن الضفة بمسافة ينتفي معها احتمال تعرّضها للغرق. لا توجد آثار للعشب النديّ على ظهرها، بما يوحي –ظاهرياً على الأقل– بإلقائها على وجهها وعدم تحريكها، كما إنها مصابة بجرحٍ غائرٍ في رأسها، قد يكون السبب الحقيقي لوفاتها. لا أثر لحذائها، مع تعدّد واختلاف آثار الأقدام هنا، بعد فوضى العثور على الجثة.

سأله زميله:

– مَن تكون برأيك؟ واحدة من العاهرات المستجدّات على القنيطرة خلال فصل الصيف؟ الوجوه القديمة كلّها معروفة عندنا!

t.me/qurssan

نهض مصطفى ونزعَ قفّازه، ثم أجابه:

– لا أظنّ ذلك، لبائعات الهوى أسلوب مميز في وضع المكياج وارتداء ملابس معينة لجلب اهتمام الزبائن. انظر إلى فستانها، فهو باهظ الثمن، ولا يمكن لعاهرة مسحوقة أن تملك مثله. إمّا أنها تنحدر من عائلة ثرية تقيم بالمدينة، أو أنها قادمة من مكانٍ آخر.

هنا تدخّل شرطي شاب، ممّن تولوا مهمّة إبعاد الفضوليين، أدّى التحية باحترام، وقال:

– معذرة يا سيادة المفتش، بخصوص هوية الضحية، أنا أعرفها جيداً!

* * *

t.me/qurssan

(8) جميلة

العالم كتاب نكتشف صفحة منه مع
كلّ خطوة نخطوها.

الفونس دو لامارتين

الإثنين 21 أكتوبر 2002
المدينة القديمة - الرباط:

خفضتُ بصري في خجلٍ وأنا أصافح رشيد، وبحثتُ عن كلماتٍ مناسبة للاعتذار، فلم أجد بداً من سؤاله باهتمام لمداراة حرجي:

- ما هو موضوع أطروحتك؟

كنا قد اقتربنا من الفندق، فقادَني إلى مقعدٍ حجري، ثم نزع حقيبة ظهره الصغيرة وفتحها ببطء.

قدَّم لي كتاباً بغلافٍ أبيض، يخلو من أي صورة أو لوحة فنية، مما قد يوحي إلى كونها طبعة محلية أو جامعية محدودة، وقد كتب على صدر الغلاف بخطّ عريض أسود اللون:

t.me/qurssan

Khalid Rafiqi

Un puzzle Marocain

Traduit de l'arabe (Maroc) par : Fabien Bedos

- قرّرت العمل في أطروحتي على موضوع تقنيات السرد في الرواية الجديدة، مع نموذج تطبيقي للتحليل، وفي إطار بحثي الأوليّ عثرتُ على رواية تحمل عنوان **أحجية مغربية**، لكاتب مغربيّ يُدعى خالد رفيقي، قرأتها فأعجبتني، واكتشفتُ مدى مطابقتها لما أبحث عنه في دراستي، لأجدني في مواجهة مفتوحة مع بعض المشاكل...

يسِّر الاهتمام المرتسم على ملامحي رغبته في المتابعة:

- صدرت الرواية نهاية الثمانينيات، ولم تحظَ بأيّ اهتمام إعلامي أو نقدي يُذكر، مرَّت مرور الكرام بشكلٍ غريب، وإن تعلّق الأمر ببلدٍ لا تحقّق الكتب الصادرة فيه مبيعات جيدة أصلاً، وتنشغل فيه جوقة من أشباه الكتّاب باحتراف لعبة مجاملة بعضهم في العلن وتمزيق بعضهم في السرّ، والتحالف لمحاربة كلّ مَن يرفض الانضمام لجوقتهم، عوض التركيز على ما هو أهم، بالعمل على تحسين جودة ما يكتبون...

أضحكَتني الجزئية القاسية الأخيرة، فيما واصل هو بانفعال عاكسٍ خجله وهدوءه السابق:

- اكتمل المشهد باعتذار الأستاذ المؤطر عن الإشراف على أطروحتي، رغم حماسه المبدئي، بعد حصوله على عقد عملٍ براتبٍ ضخم في إحدى الجامعات الخليجية، وتعويضه بآخر رفض منذ البداية فكرة الاشتغال على **أحجية مغربية**، مقترحاً دراسة رواية كتبها أحد أصدقائه، ويستطيع أيّ تلميذ في الابتدائي، لا باحث أكاديمي

t.me/qurssan

في النقد الأدبي، الحُكم برداءتها وافتقارها لأبسط مقومات الكتابة الروائية، لكنه يبحث عن استغلالي في شبكة معقّدة من المجاملات والمصالح المتبادلة، أرفض أن أكون جزءاً منها. النسخة التي تحملينها بين يديكِ الآن هي ترجمة فرنسية أنجزَها فابيان بيدو، باحث فرنسي متخصّص في الدراسات العربية بجامعة السوربون، كان قد قرأ الرواية إثر زيارته للمغرب للمشاركة في ندوة أكاديمية، فأعجب بها، وترجمها إلى الفرنسية، وقدّمها لطلبته كنموذج يستحقّ الدراسة والتحليل، فقامت الجامعة بنشر طبعة خاصة بها، وتمكّنتُ أنا من الحصول على نسخة بفضل أحد باعة الكتب المستعملة هنا في المدينة القديمة، بعدما تواصل مع أحد أصدقائه من المغاربة المقيمين بباريس.

صمت قليلاً لالتقاط أنفاسه، ثم أكمل:

- هذه الترجمة هي أملي الأخير في إقناع الأستاذ بالموافقة على تضميني لرواية أحجية مغربية في أطروحتي، لسببٍ بسيط هو أنّ البعض عندنا هنا يعتبرون كلّ ما يأتي من فرنسا مقدّساً لا يجوز المساس به أو الانتقاص منه، مع أننا نتحدّث في الأصل عن عملٍ أدبيّ مغربي، كتبه مغربيّ مثلنا!

أنهى حديثه المثير بزفرة كشفَت حجم معاناته، فحاولتُ الرفع من معنوياته بالتربيت على كتفه.

- دفاعك المستميت عن الرواية شوّقني لأخذِ فكرة عنها، سأحتفظ بالترجمة الفرنسية لقراءتها في الأمسية، إن لم يكُن عندك مانع طبعاً!

هزّ رأسه مُبدِياً موافقته، فشكَرْته، ثم نهضت متوجهة نحو الفندق، فقال:

t.me/qurssan

- الواقع يا سيدتي أنّ ذاكرتي لم تحتفظ باسمك كما فعلت مع صورتك في المجلة!

- اسمي كريستين، كريستين ماكميلان...

خيِّل إليّ أنّ تساؤلاً مستغرباً يوشك على مغادرة شفتيه، لكنه اكتفى بتوديعي، راسماً على وجهه ابتسامة أعادته إلى هدوئه السابق:

- إلى اللقاء، موعدنا في الغد لنتحدّث عن رأيكِ في الرواية، لا شكّ عندي في قدرتها على دفعكِ إلى التهام كلّ صفحاتها هذه الليلة!

*

أنهيت مكالمة هاتفية ثانية مع براندون، شرحتُ من خلالها سبب انقطاع الاتصال الأول، فيما زوَّدني هو بأسماء المدن التي تمركزَت بها القواعد الأميركية في المغرب، كما حصل عليها من أحد أصدقائه في مصلحة الأرشيف العسكري، فنقلتها بدوري إلى مذكرتي:

Nouaceur
Sidi Slimane
Benslimane
Ben Guerir
Kenitra

عدتُ إلى عملي بنشاط، ولم أنتبه إلى ضرورة الحصول على قسطٍ من الراحة إلّا مع اقتراب منتصف الليل، فارتميتُ على السرير، وقرَّبتُ إليّ نسخة الرواية المغربية لتصفّحها والاستعانة بها للوصول إلى مملكة النوم بسرعة.

t.me/qurssan

تجاهلت مقدّمة المترجم الفرنسي، خشية كشفها بعض أسرار العمل قبل قراءته، كما يفعل بعض المترجمين لسببٍ لم تفلح خبرتي الأدبية الطويلة في فهمه...

وكان يقين خادم الغرف الشابّ في محلّه، إذ تمكنت الرواية من أخذي إلى عوالمها بسرعة فائقة...

تبدأ الأحداث صباح يوم الخميس 23 يوليو 1959 بالعثور على جثّة امرأة شابة بالقرب من نهرٍ اسمه سبو بمدينة القنيطرة، ينتقل عناصر من الشرطة إلى المكان، على رأسهم مفتش فَهِمَ أنّ الأمر يتعلق بجريمة قتل، عطفاً على آثار ضربة في رأس الضحية، أكّد الطبيب الشرعي المرافق تسبّبها في الوفاة، مع شكّه في إقدام الجاني على نقل الجثة إلى ضفة النهر.

بداية تقليدية تعجّ بها الكثير من الروايات البوليسية المشابهة...

يتمّ تحديد هوية القتيلة، وتُدعى جميلة البارودي، شابة في السادسة والعشرين من عمرها، ابنة تاجر معروف في المدينة، تزوّجت من ابن شريك والدها، واسمه صالح بلقاضي، لتُرزَق منه بطفلٍ بلغ الخامسة من عمره.

يبدأ المفتش تحرّياته مع الأسرة، فيفهم من الأب المكلوم أنّ صالح وجميلة يسكنان مع ابنهما في منزلٍ مستقل، وأنّ الزوج يسافر كثيراً خارج المدينة لعقد صفقات تجارية، فاعتادت الراحلة وابنها على التنقّل باستمرار بين منزلهما وفيلا الأب.

يعود صالح من سفره إلى مدينة الدار البيضاء، ويصدم بما جرى لزوجته، ويؤكّد -وسط دموعه- بأنه سيقدّم كلّ المساعدة الضرورية للشرطة لإلقاء القبض على القاتل الذي حرمه من محبوبته ودمّر أسرته على حدّ تعبيره.

t.me/qurssan

يكمل المفتش -واسمه مصطفى المحمودي- تحقيقه بسؤال جيران الضحية، وهنا وجدتني أمام مشهد غريب جداً!

تتكرّر في معظم حبكات الروايات البوليسية الأميركية والغربية عموماً نقطة جهل الجيران بكلّ ما يتعلّق بأسرة المجني عليه، فيلجأ المؤلّف غالباً إلى خلق شخصية جار مجنون أو جارة فضولية ممّن قادتهم الصدفة إلى كشف هويّة قاتل أو مختطف.

في أحجية مغربية، كان كلّ الجيران على علمٍ بأدقّ ما يجري ويدور بين الزوجين، وبشكلٍ مثير للدهشة!

هل أخفقَ المؤلف في صياغة تفاصيل حبكته فلجأ إلى الحلّ الأسهل؟ أم أنه يصفُ بدقة طبيعة مجتمع أجهل عنه كلّ شيء؟

اتّفق الجيران على أنّ العلاقة بين الزوجين كانت سيئة جداً، فمن الواضح للجميع أن زواجهما كان إجبارياً لتقوية العلاقات التجارية بين أبوين أثبتا قدرتهما على استغلال كلّ الظروف التي مرَّ بها المغرب، قبل الاستقلال وبعده، خدمة لمصالحهما وأرباحهما.

كان صالح كثير الغياب عن المنزل، وغالباً ما يعود ثملاً، ليتفنّن في ضرب جميلة وإهانتها، مطمئناً إلى صمتها وما فَهِمَ الجيران أنّه عَجْز عن المقاومة بعد ولادة الطفل ورسوخ العلاقة بين العائلتين أكثر فأكثر.

أكّدَت امرأة عجوز يبدو أنها لم تكُن تفارق نافذة منزلها للتلصّص على كلّ مَن هبّ ودبّ، أنّ أحداً لم يكُن بالمنزل في الليلة التي سبقَت العثور على جثة جميلة، وهو ما عارضه الوالد، متحدثاً عن عودتها إلى المنزل القريب وحيدة، وقضاء ابنها ليلته في الفيلا مع شقيقاتها، نزولاً عند رغبتهن، كعادة مألوفة عند العائلة.

هل قُتِلَت جميلة بعدما اختُطِفَت في طريق عودتها إلى المنزل؟

t.me/qurssan

مرّت بضعة أيام لم تتقدّم خلالها التحقيقات خطوة واحدة، إلى أن ألقى أحدهم حجراً حرّك به المياه الراكدة للقضية.

توصّل المفتش برسالة غامضة حُرِّرت بواسطة آلة كاتبة ولا تحمل أيّ توقيع، يقول كاتبها بأنّ صالح كذب عندما ادّعى بأنه كان في الدار البيضاء ليلة مقتل زوجته، ويجب التحقيق معه لأنه أخفى أمر بقائه في القنيطرة عن الجميع، ولسببٍ غير معروف.

أصابت الرسالة مصطفى المحمودي بالحيرة، فهي مجهولة المصدر، وعُثر عليها في صندوق بريده، ولا يمكن الحُكم بمصداقيتها، فصالح تاجر ابن تاجر وصهر تاجر، والميدان مليء بالمنافسين والأعداء، لكن الرسالة نبّهت المحمودي أيضاً إلى ارتكابه خطأً بعدم التأكّد من وجود الزوج خارج القنيطرة ليلة الأربعاء 22 يوليو 1959، واكتفائه بما قاله أب الضحية عن تكليفه لصهره بإنهاء تفاصيل صفقة مواد غذائية في الدار البيضاء.

حسم المفتش قراره، وكتمَ أمر الرسالة، ثم استدعى صالح مرة أخرى، فبدا التلعثُم على الأخير، وتضاربت أقواله، من دون تقديم دليلٍ ماديّ واضح، يثبت سفره إلى الدار البيضاء. ضغط عليه رجل الأمن، وحاصره بما قاله الجيران عن اعتداءاته المتكرّرة على زوجته، لكنه أصرَّ على الإنكار، فأمرَ المفتش بإبقائه رهن الحراسة النظرية لإجباره على الاعتراف.

فوجئ مصطفى المحمودي بوالد صالح ومحاميه وهم يقتحمون مكتبه، ويطالبونه بالإفراج الفوريّ عن المتّهم، مستندين إلى عدم وجود إثبات قطعيّ أيضاً بعدم سفره، وهو ما فهمه المفتش في أعماقه، لعدم قدرته على إشهار رسالة مجهولة لا قيمة لها.

حاول كسب المزيد من الوقت، فتلقى اتصالاً من رئيسه المباشر

t.me/qurssan

يأمره فيه بإطلاق سراح صالح والبحث عن القاتل في مكانٍ آخر، أو بعبارة أخرى تجنّب إثارة المشاكل مع عائلة أضافت إلى ثروتها كالعادة- شبكة واسعة من العلاقات القوية مع رجال سلطة ما بعد الاستقلال.

شعر مصطفى المحمودي بالغيظ، لكنه أجبرَ على تنفيذ الأوامر، لتعود القضية مرة أخرى إلى مربّع البداية...

مَن قتل جميلة البارودي؟

هل سافر صالح إلى الدار البيضاء ليلة الأربعاء 22 يوليو 1959 أم لا؟

إن لم يسافر، أين كان إذاً؟ وهل للأمر علاقة بمقتل زوجته؟

مَن بعثَ تلك الرسالة الغامضة؟

هي فعلاً أحجية مغربية بامتياز!

حاول المفتش جمع خيوط القضية من جديد ففشل، وتراجع اهتمامه بها مع مرور الأسابيع وبروز قضايا أخرى قال المؤلف إنها معتادة في القنيطرة وقتئذٍ، كالسرقة في الميناء والضرب والجرح في الحانات والمقاهي التي تعجّ بها المدينة.

ثم تحوّل جمود القضية إلى إعصار كاسِح...

حادثة سير، حيث اصطدمت سيارة بشجرة في ضواحي المدينة، لقي على إثرها السائق مصرَعَه على الفور.

ولم يكن السائق سوى صالح بلقاضي نفسه...

أشارَ التحقيق المبدئي إلى كون الحادث عرضياً، سببه المباشر السياقة تحت تأثير السُّكْر.

وفي انتظار التقرير النهائي، توصّل المفتش بمتعلّقات الراحل،

t.me/qurssan

وهي وثائق ثبوتية ونظّارة شمسية ومذكّرة مواعيد كان يضعها في جيبه.

تفحّص مصطفى المحمودي المذكّرة بدقّة، ليعثر أخيراً على ما كان يبحث عنه:

Rendez-vous avec Steve McMillan

Mercredi 22 Juillet 1959 à 23h

33137 42F

سقط الكتاب من يدي من شدّة الدهشة، وأنا عاجزة عن تصديق ما رأته عينان تتأرجحان بين اليقظة والنوم.

موعد مع ستيف ماكميلان يوم الأربعاء 22 يوليو 1959 في العاشرة مساء.

لا يمكن لهذا الاسم أن يكون غريباً عني...

فستيف ماكميلان هو اسم والدي أنا!

* * *

t.me/qurssan

فيديو برنامج مواقف حرجة – حلقة خاصة عن حصار مسرح موسكو – قناة ناسيونال جيوغرافيك – إنتاج عام 2007

مقطع من الدقيقة 02 إلى الدقيقة 04:

(صوت المعلق في الخلفية):

عند انهيار الاتحاد السوفياتي عام 1991، تحرّرت خمس عشرة دولة من قبضة موسكو.

طالبت الشيشان، الدولة الإسلامية الصغرى، بالاستقلال كذلك، ولكن النفط وأنابيب الغاز التي تأتي من بحر قزوين تمرّ بأراضيها.

رفض الروس التخلّي عن هذه الموارد الثمينة...

خاضت الشيشان على مدى أحد عشر عاماً حربين طاحنتين مع روسيا.

قُتل مائتا ألف شيشاني.

وتشرّد نصف مليون شخص تقريباً...

وقعت الأرض تحت وطأة الدمار، ووضع الحضور العسكري القوي الشيشان تحت سيطرة الروس.

سيبذل مقاتلو الشيشان قصارى جهدهم لنيل استقلالهم.

سوف يضحّون بأنفسهم لطرد الروس خارج حدود بلادهم...

يتزعّمهم موفسار باراييف ابن الخامسة والعشرين، وهو متمرّد ذائع الصيت ومطلوب من قبل الروس.

رعاه وربّاه قائد عسكري شيشاني، وأمضى شبابه يُحارب الجيش الروسي.

هو أصولي مسلم يريد أن يجعل من الشيشان جمهورية إسلامية، وشوهِدَ من خلال شريط مصوّر، يتدرب في إحدى التلال الشيشانية مع عدد من المسلحين العرب.

الآن، يوشك باراييف، ومعه زهاء خمسين مقاتلاً، على نقل المعركة إلى قلب البلاد:

موسكو...

* * *

t.me/qurssan

(8) زغاريد الموت

في زمن الحروب يظهر البشر أسوء ما في
أنفسهم، وأفضل ما فيها أيضاً.

إرّي دي لوكا

الخميس 24 أكتوبر 2002
مسرح دوبروفكا - موسكو :

خيّم الصمت التام على مسرح ضجّ بالحياة قبل ساعات قليلة، ولم يجرؤ أحد من بين مئات الحاضرين على التفوّه بحرف.

شخص واحد فقط، منحَ نفسه الحقّ في الكلام بحرية...

شابّ في منتصف العشرينيات، فهمنا أنه قائد المجموعة المسلّحة حتى مع كونه الأصغر سناً، وإن بدا أقواهم شكيمة وأكثرهم ثقة بنفسه، متجوّلاً فوق الخشبة بوجهٍ مكشوف وفوهة سلاحٍ موجّهة نحو السقف.

كان وسيماً، ببشرة تُحاكي لون الثلج، وعينين ضيقتين يقظتين، ولحية خفيفة مشذّبة بعناية.

لولا دقّة الموقف وخطورته البالغة لقلتُ إنه يصلح مطرباً أو

t.me/qurssan

ممثّلاً في أضخم الإنتاجات الهوليوودية، لا مسلَّحاً في مجموعة تحتجز تسعمائة شخص كرهائن في مسرح روسي!

لم أفهم شيئاً ممّا قال، بعدما أنساني الهلع ما تعلّمته من اللغة الروسية، لكن الواضح أنه حضَّر نفسه لفرضية وجود عدد كبير من الأجانب في المسرح، فكلّف أحد مساعديه بالترجمة الفورية لخطابه إلى الإنجليزية:

- اسمي موفسار باراييف، أنا قائد هذه المجموعة من المقاتلين الأبطال، لم تترك لنا روسيا خياراً آخر، فمنذ ثلاث سنوات وهي تذبح وتحرق وتغتصب، وتحسب أنها ستُخيفنا وتدفعنا إلى التراجع عن هدفنا الأسمى بتحرير أرضنا من الاحتلال، لكننا لن نستسلم...

معركة طاحنة مع الروس، لكن ما شأني أنا؟ ما ذنبي أنا؟ ولماذا سأدفع حياتي ثمن حربٍ لا علاقة لي بها؟

أسئلة ملحّة راودتني، لكن صوتاً خفياً في أعماقي أجبَرَني على دفنها بسرعة، وبسؤالٍ مضادّ واحد:

أوليست مشكلة الحياة الكبرى أننا لا ندفع ثمن ما ارتكبناه من أخطاء إلّا في الوقت غير المناسب؟

- سنواصل القتال، حتى آخر رجل، وشيخ، وطفلٍ، وامرأة...

كانت الكلمة الأخيرة أشبَه بإعلانٍ عن بدء فصل جديد في مسرحية تُعرَض أمام أنظارنا، ويا ليتها كانت كذلك، فقد تعالَت صيحات الذهول وشهقات الخوف بين الرهائن مرة أخرى، مع دخول ثماني عشرة امرأة ملثّمة إلى القاعة الواسعة.

t.me/qurssan

كلهن ممشوقات القوام، مسربلات بالسواد، ولا تظهر من اجسادهن النحيفة ووجوههن سوى الأعين المتحفّزة.

تحمل كلّ واحدة منهن مسدساً وجهاز تحكّم موصولاً بسلكٍ الى حزام ناسف يُحيط بصدرها، دون أن تتأثر مشية أدهَشَني عدم تخلّيها عن طابَع الرقّة والدلال الأنثوي.

كان مشهداً مرعباً، أتحدى قدرة أيّ مخرج مهما بلغَت خبرته على محاكاته، ما دفعَ أحد المقاتلين إلى تصويره بكاميرا فيديو محمولة.

استغلّ المدعو باراييف حالة الترقّب والهلع العامة ليواصل خطابه مع الترجمة:

- إنهن رفيقاتنا وأخواتنا في كفاحنا المقدّس ضد العدو المتغطرس، عدو وحشيّ حَرَمَ كلّ واحدة منهن من أب او أخ أو زوج. مطالبنا واضحة، إمّا أن ينسحب الجيش الروسي من أرضنا ويُعلن عن وقفٍ نهائيّ لإطلاق النار، أو أننا سنفجّر المسرح بمن فيه. قُمنا بزراعة قنابل قوية في عددٍ من أسوار المبنى، بما يكفي لتحويله إلى أنقاضٍ في لحظات، يمكنكم تبليغ رسالتي للعالم عبر هواتفكم المحمولة.

تحوَّل ذعر الرهائن الصامت إلى نحيب، خاصة بين الأطفال والنساء، فيما ذكّرتني أولغا بجلوسها بالقرب مني عندما قالت:

- استعدّ، فنهايتنا قادمة، ليس لحماسهم العاطفي ورغبتهم الجنونية في التضحية بأنفسهم وحسب، بل أيضاً لأنّ السلطات لن تنفّذ شيئاً من مطالبهم، تفجير المسرح بمَن فيه أهون على الحكومة من الخضوع لمحاربين لن ينسى الجيش كيف أذلّوه وطردوه من غروزني عام 1996.

t.me/qurssan

كان تعليقاً جافاً، بلا مشاعر، وبإنجليزية لا أدري كيف استخدمتها بكلّ هدوء لنَقْل أفكارها إليّ، فسألتها بهمسٍ متحشرج لم يفلح في إخفاء رجفة أطرافي:

- وماذا سنفعل نحن؟

ردّت بلا مبالاة مستفزّة:

- في بعض الأحيان، يكون أفضل ما يمكنك فعله هو ألّا تفعل شيئاً، لننتظر...

مرّت الدقائق ثقيلة على الجميع، مع تجاوز الساعة للثانية صباحاً. لم يجسر أيّ منّا على السماح لنفسه بالاستسلام للنوم، فشعرتُ بطنين صاخبٍ في أذني، وتسارعت دقات قلبي، مع تحوّل جبيني إلى ما يشبه مضخّة تنتج العرق بلا توقف.

تبادلت الشيشانيات المتمنطقات بالقنابل أدوار حراستنا، وانشغل بارابيف بمشاوراته مع رفاقه، قبل أن يقول:

- جيشكم الإرهابي يعامل أطفالنا ممّن يبلغون الثانية عشرة على أنهم رجال قادرون على حمل السلاح، فيتعمّد الإيغال في دمائهم، محرقاً قلوب الأمهات الشيشانيات الصابرات، لكننا لسنا مثله. سنثبت حسن نيّتنا ورغبتنا الحقيقية في التفاوض على مطالبنا.

قَرَنَ قوله بإصدار إشارة متّفقٍ عليها مع زملائه، فتوزّعوا بين المقاعد، ومدّوا أيديهم نحو أطفال صغار تمسّكوا بآبائهم بذهولٍ خالطه حيرة...

- سنفرج عن خمسة عشر طفلاً تقلّ أعمارهم عن الثانية عشرة.

قالها قائد المسلحين بلهجة تبشّر بتفاؤله، فانتقلت حيرة الأبناء إلى الآباء، متردّدين بين التخلي عن أبنائهم بما يضمن بقاءهم أحياء، أو التمسّك بهم ليواجهوا مصيراً مجهولاً.

t.me/qurssan

وكان منطقياً قبولهم بالخيار الأول. . .

اصطفّ الأطفال بنظام، مع عجز معظمهم عن فَهم ما يجري، مستعدّين لنقلهم إلى إحدى بوابات المسرح الخارجية، بمساعدة أحد المسلحين.

هنا نهضت امرأة من الحاضرين، وجّهت كلامها إلى بارايف بتوسّل، محتضنة طفلة لا شك في أنها ابنتها.

نزل القائد من الخشبة، حاملاً سلاحه بيده، فتوجَّهت كلّ الأنظار إليه في أثناء مشيه بخطوات ثابتة نحو المرأة، ما منحه ثقة إضافية بنفسه.

لم أكُن بحاجة إلى إتقان الروسية لأفهم طبيعة الحوار. . .

عمر الطفلة يتجاوز الثانية عشرة، ورغبَت الأم في ضمّها إلى المجموعة المغادرة، لكن بارايف رفضَ بشكلٍ قاطع.

كانت تبكي بحرقة، فرقّ قلبنا لها، رغم أنّ حالة الجميع مثيرة للشفقة، فحاول بعض الرهائن التدخّل لإقناع المسلحين بالإفراج عن الطفلة التي تبلغ من العمر ثلاثة عشر عاماً.

تصلَّب الشيشاني متمسّكاً بقراره، ولم يجد أمام صراخ المرأة سوى التهديد وإشهار بندقيته الآلية في وجهها، فعادت إلى مقعدها وهي تنتحب، معانِقَة ابنتها بقوة، ليعود الوضع إلى التكهرب الأول، بعد لحظات قليلة راودنا فيها أمل ضعيف بإمكانية حدوث انفراج يحفظ أرواحنا. . .

كان التفرّس في ملامح أولغا الجميلة آخر ما يمكنني التفكير فيه، لكنني تنقّلت بعينين زائغتين بين شفتيها وصدرها عندما تكلمت:

- بلغ المقاتلون الشيشان مرحلة اليأس، بعد نزول الجيش بثقله في القرى والجبال القوقازية، واستفادته من أخطائه الكارثية في

t.me/qurssan

الحرب الأولى، كان احتفاظهم بغروزني أقرب للمستحيل، ما اضطرّهم لاستخدام أسلوب الخطف واحتجاز الرهائن، كلّ شيء مدروس عندهم، أفرجوا عن الأطفال بغية الحصول على تعاطف العالم مع قضيتهم أولاً، بما يشكّل ضغطاً على بوتين ومَن معه، وإلقاء نظرة متفحّصة على ما يجري ويدور خارج المسرح المعزول والمفخّخ ثانياً، لا شكّ في أنّ قوات الشرطة والجيش ونخبة السيتسناز تطوّق المبنى.

- نخبة ماذا؟

قطع سؤالي دخول المسلح المكلّف بإجلاء الأطفال إلى القاعة مرة أخرى، راكضاً بأقصى سرعته نحو قائده، فاستمَعَ له الأخير باهتمام، قبل أن يهرَع إلى جهاز الراديو ويضبطه على الموجة رافعاً الصوت إلى أقصاه.

دقائق بطيئة، تحدّث خلالها صوت بارد، قوي، وواثق من كلّ كلمة يقولها...

- إنه خطاب عاجل من الرئيس بوتين، يقول فيه إن روسيا لن تركع للإرهابيين، وأنّ مطالبهم مرفوضة، الانسحاب من الشيشان ليس مطروحاً للنقاش بأيّ شكل.

كلام بقصدٍ واضح، لم يمنعني من سؤالها بغباء:

- والمعنى؟

تسلّل الرعب إلى نبرة أولغا الجليدية، بعد احتمائها طويلاً بقوة لامبالية سرعان ما انكشف زيفها:

- هو يقول بعبارة أخرى: لن أضحي بأنابيب غاز بحر قزوين ونفطه مقابل بضع مئات من الرهائن، فجّروا المسرح بمَن فيه إن شئتم...

t.me/qurssan

انتقل التوتر إلى المسلحّين، فنفّس موفسار باراييف عن غضبه بإطلاق رصاص سلاحه في الهواء، مع تجدّد صراخ المحتجزين وبكائهم.

أصدرَ أوامره لمسلّحيه، فأجبروا رهينتين على حمل جسم غريب ثقيل الوزن ووضعه بين المقاعد الحمراء وسط القاعة.

قنبلة ضخمة يفوق وزنها خمسين كيلوغراماً، تأملها الشيشاني طويلاً، ثم تحدث والمترجم ينقل كلامه:

- نداء إلى كلّ مَن يملكون هواتف محمولة، الروس والأجانب، كما ترون، السلطات الروسية لا تسعى لنجدتكم، اتّصلوا بأحبائكم وقوموا بتوديعهم، فربما لن تروهم بعد اليوم...

عبارات حازمة طرحَ معها كلّ الرهائن المغلوبين على أمرهم سؤالاً منطقياً:

هل هي النهاية؟

* * *

t.me/qurssan

أحجية مغربية (رواية) - خالد رفيقي - ط 1 (ص 171-176):

-15-

كانوا سبعة، يتبادلون الدعابات وقرقعة زجاجات وعبوات البيرة الممتلئة، وثامنهم فتاة لم تبلغ عامها العشرين بعد، عرفت مصطفى ما إن وقعت عيناها على وجهه، فأطلقَت ساقيها للريح كما لو أنّ القادم وحش ينوي التهامها.

تجاهَلَها المفتّش، واقترب من الطاولة، ثم وضَعَ يده على كتف أحدهم، سائلاً بهدوء:

- أنت ستيف ماكميلان؟

أشقر بعينين زرقاوين وعضلات مفتولة، تجاوز الثلاثين، وتكاد قبضته تحطِّم الزجاجة، تطلع إلى يد مفتش الشرطة بعينين نصف مغمضتين، وأجاب بعربية غريبة:

- مَن أنت؟ ماذا تريد؟

اطمأن مصطفى لقدرته على الحديث بعربية دارجة رغم ركاكتها، كما يفعل معظم الأميركيين العاملين بالقاعدة الجوية، والمعتادين على ارتياد هذه الأماكن للسهر واللهو، فقال:

- أنا مفتّش في الأمن الوطني، سأطرح عليك بعض الأسئلة حول علاقتك بصالح بلقاضي الذي توفي في حادثة سير قبل أيام.

قال ستيف شيئاً ما بالإنجليزية التي لا يُتقن منها المغربي حرفاً، فتعالت ضحكات أصدقائه، ما أشعر مصطفى بالغيظ، ليقينه من أنهم يسخرون منه، لكنه تمالك أعصابه بأعجوبة مع سماعه لردّ الأميركي:

- وما دمت مفتشاً في الأمن الوطني، ألم يخبرك أحد من رؤسائك بأنني جندي في جيش الولايات المتحدة، ولا أحد يمكنه التحقيق معي بشكلٍ رسمي سوى الشرطة العسكرية الأميركية؟

t.me/qurssan

كان محقاً في كلامه، وهو ما يعرفه المغربي جيداً، لكن تشنّج صوته فضح عصبيته كما أرادها له بالضبط.

– ومَن قال بانه تحقيق رسمي يا ستيف؟ هي أسئلة عادية اتمنى ان أجد أجوبتها عندك!

غمز الجندي أصدقاءه، كإشارة إلى ثقته بنفسه، ونهض، فبدا أطول من المفتش بعشرين سنتيمتراً على الاقل، ثم رافقه إلى طاولة معزولة وشبه مظلمة، جعلت من مهمة متابعة حركة عينيه اكثر صعوبة.

– صالح صديقي، كنا نلتقي هنا دائماً، نلهو قليلاً ونتجانب اطراف الحديث حول إشاعات بقاء الجيش الاميركي او رحيله عن المغرب. حزنت كثيراً لمأساة اسرته، لغز مقتل زوجته ثم وفاته هو في حادثة سير، هذا مرعب جداً!

– هل اقتصرت علاقتك به على السهر هنا، ام كنتما تلتقيان في اماكن اخرى؟

أجابه ستيف بسؤالٍ حذر:

– ماذا تقصد؟

– يؤكّد بعض الشهود تعدّد المقابلات بينكما في منزله، هل هو استكمال لسهراتكم الخمرية الصاخبة؟ ام انّ للامر علاقة بعمله كتاجر؟

– نعم، زرته اكثر من مرة في منزله كصديق فقط، فلا علاقة لي بعمله ولم يحدُث ان سالته يوماً عنه.

قالها بثبات يوحي باستعداده السابق لكلّ الأسئلة الممكنة، فراوغه مصطفى بسؤال آخر:

– ماذا عن زوجته جميلة؟ هل تعرفها بشكلٍ شخصي؟

صمَتَ الاميركي لوهلة، ولامَسَ ارنبة انفه بحركة لا إرادية، ثم قال:

– ربما رايتها بشكلٍ سريع مرة أو مرتين، انت أعلم مني بتقاليدكم المحافِظَة، لم يكُن من اللائق بالنسبة لهما جلوسها معنا...

لم يجد المفتّش بداً من اللجوء إلى ورقته الاهم:

– أين كنت ليلة الاربعاء 22 يوليو؟

ردّ بنبرة تخلو من ايّ انفعال:

t.me/qurssan

– في القاعدة الجوية بطبيعة الحال، ومعي ستة شهود من أصدقائي الاميركيين، هم المتحلقون حول تلك الطاولة، ممّن يستطيعون إثبات ذلك بسهولة تامة.

وضع المفتش يده في جيبه، واستخرج مفكرة صالح، ثم بحثَ عن الصفحة واشهرها في وجه ستيف:

– وأنا معي إشارة مكتوبة بخطّ يد الراحل، عن موعدٍ جمعكما يوم الاربعاء 22 يوليو على الساعة العاشرة مساء، رغم ادّعائه بانه سافر في ذلك اليوم إلى الدار البيضاء لإتمام معاملة تجارية خاصة به.

دفع الجندي الطاولة بحركة عنيفة، حتى التصقَت ببطن المحمودي، وقال ببرودٍ مستفزّ:

– انتهى اللقاء.

تحرّك عائداً صوب طاولة أصدقائه، فلاحقه مصطفى بإصرار، وهتف متناسياً آلام الضربة المفاجئة:

– لم تفرغ جعبتي من الأسئلة بعد، ما معنى الأرقام التي كتَبها صالح تحت إشارة الموعد؟

استدارَ ستيف نحوه، رافعاً قبضته:

– أصدقائي بانتظاري، وأنا لا أملك وقتاً لأضيعه معك، من حسن حظّك أنني في مزاجٍ رائق، فالجواب المناسب لأسئلتك التافهة هو لكمة تحطّم انفك.

ضمّ المغربي قبضته بدوره، شاعراً بالغيظ لفارق القوة والطول بينهما، وقال بصوتٍ متهدّج:

– تهرّبك من الردّ ليس في مصلحتك، تأكّد بأنني لستُ ضعيفاً إلى هذه الدرجة، وسألاحقك حتى يتمّ استجوابك بشكلٍ رسميّ حول علاقتك بالقضية.

عاد الأميركي إلى الاستفزاز المبطّن رغم الهدوء الظاهري:

– اسمعني جيداً أيها المغربي، بلدكم تائه وعاجز عن الوقوف على قدميه بعد استقلاله، انتم بحاجة ماسة إلينا، مَن ساهم بمعداته المتطوّرة في التحذير من خطر فيضانات منطقة الغرب؟ ومَن تدخّل بعد ذلك لإنقاذ ضحاياها؟ مَن يغمض عينيه عن تهريب الأطعمة والملابس والثلاجات

t.me/qurssan

, غيرها من القاعدة الجوية؟ لماذا يمنعك رؤساؤك من احتجاز بائعات الهوى ويجبرونك في كلّ مرة على إطلاق سراحهن؟ من تخلّص من صداع النهوض .اقتصاد مدينة وربما منطقة بأكملها فقط لأننا موجودون ونملأ مقاهيها وحاناتها ونحرّك عجلة اقتصادها بأموالنا وسلعنا؟ مَن يقدّم لكم مساعدات مباشرة باطنان من القمح وبودرة الحليب؟ مَن يدرِّب طياريكم على قيادة احدث المقاتلات الحربية؟ تأكّد يا عزيزي بأنّ دولتك لن تخاطر بكلّ ما سبَق لاجلكَ انت، وستحاسبك فقط لأنكَ تجرّأت على إزعاجي...

تجرّع مصطفى إهانات الجندي، لكن الشعور الذي راوده فور قراءته للاسم في مفكرة صالح بلقاضي تحوّل الآن إلى يقينٍ لا تخالطه ذرّة شك.

ستيف ماكميلان هو مفتاح لغز مقتل جميلة وزوجها.

متى وكيف ولماذا؟

لا يمكنه الإجابة عن أيٍ من هذه الأسئلة الآن، لكنه سيفعل بكلّ تأكيد.

ومهما كلّف الأمر...

* * *

t.me/qurssan

(9) الحكاية والتأويل

لا شيء حقيقي سوى الصدفة.

بول أوستر

الثلاثاء 22 أكتوبر 2002

المدينة القديمة - الرباط:

تحوَّلت الطاولة، وقد تكدّست فوقها عشرات الأوراق والصور والمذكرات، إلى ما يشبه غرفة عمليات معركة حربية، فيما انهمك رشيد في مراجعتها بصمت.

مددتُ بصري المتعب -بعد ليلة طويلة مُجهدة لم أذُق فيها طعم النوم إلّا مع حلول الفجر- نحو الأفق، حيث الفسيفساء الغريبة بين المنازل العتيقة والأسوار القديمة والبنايات الحديثة وضوضاء حركة السير بين ضفَّتي النهر.

ما هذا الجنون؟

ستيف ماكميلان، الهادئ الكتوم حدّ المَلل، شخصية ورقية تتحرك في فضاء رواية مغربية!

تتحرّك، تتكلّم، تضحك، تلهو...

t.me/qurssan

وترتكب جريمة قَتلٍ دون أن يحاسبها أحدا

- الواقع أنّ اسمك ظلّ يرنّ في ذهني طويلاً بعد عودتي إلى المنزل، ليس فقط لأنكِ كاتبة رأيت صورتها في مجلة ثقافية، بل أيضاً لأنه اسم لم يكن غريباً على ذاكرة ربطَت مباشرة بينه وبين شخصية الجندي الأميركي في رواية أحجية مغربية.

- صدفة غير قابلة للتصديق، لن تجدها سوى في الروايات، أليس كذلك؟

- عندما يقودك القدر إلى حيث يريد هو، تُدرك أنّ بعض الممتعضين من وجود الصدف في الحبكات الروائية لم يَخبروا الحياة جيداً، ما دامت قادرة على إدهاشنا باستمرار، وبمفاجآت أكثر غرابة، المهم أنني تركت الدهشة جانباً وفكرت في ما ستحمله المعلومة من جديد، لروايتك وأطروحتي.

قالها ولم يرفع عينيه عن الصور، فتساءلت:

- كيف؟

وضع قبضته على ذقنه مفكّراً، وكاد حاجباه يمتزجان ببعضهما، تحت جبين تحوّلت تجاعيده إلى ما يشبه خطوط جهاز تنظيم دقات القلب، فبدا أكبر من عمره بعشر سنوات.

رشيد شاب مكافح، لم أقابله إلّا بالأمس، ولا أعرف عنه الكثير، لكنني موقنة بأنّ الحياة لم تكُن رحيمة به، وأنه يقاتل للبقاء واقفاً على قدميه. . .

- لقد تعاملت مع النصّ كرواية خيالية ألّفها كاتب اسمه خالد رفيقي، جمع فيها بين التحقيق البوليسي والتصوير الدقيق للمجتمع المغربي في فترة ما بعد الاستقلال، لكن وجود شخصية جندي يحمل اسماً مطابقاً لاسم والدك، يضعنا أمام احتمالين اثنين. . .

t.me/qurssan

أدركتُ قصده لكنني لم أمنعه من المتابعة:

- أحداث وشخصيات الرواية خيالية ولا تمتّ للواقع بصلة، أيّ تَشابه بينها وبين الواقع هو من قبيل الصدفة، عبارة تتصدر معظم الأعمال الروائية، ويحتمي بها الكتّاب أمام ألاعيب القدر، حدث أن هاجم أشخاص عاديون مؤلّفين لأنهم ضمنوا أعمالهم وصفاً مهيناً لشخصيات تصادف أنها تحمل الاسم نفسه!

قاطعته بعصبية:

- مفهوم طبعاً، في روايتي الأولى أسيرة القسم 12 استندت إلى حادثة حقيقية كنت واحدة من ضحاياها، وهي مذبحة ثانوية كولومباين، لكنني تلاعبتُ بسَير الأحداث وغيّرت أسماء بعض الشخصيات واحتفظت بأسماء أخرى حقيقية، في أحجية مغربية لم يُصدِّر المؤلف عمله بهذه العبارة، ولا يوجد أيّ وصف دقيق لملامح شخصية ستيف ماكميلان في الرواية.

بدا متردداً وربما خائفاً عندما قال:

- أو أنّ الرواية التي تجاهلها الجميع تعتمد على أحداثٍ واقعية، وتحمل سطورها اتهاماً صريحاً لجندي أميركي بالتورّط في قتل شابّة مغربية بمدينة القنيطرة، وتمكّنه من الإفلات من العقاب في نهاية المطاف، بعد استبعاد المفتّش من القضية.

تحوّل تردّده إلى ما يشبه الترقّب مع سؤاله:

- ألا تذكّركِ هذه التفاصيل بشيء؟

اكتفيت بهزّة لا مبالية من كتفي، وقد منعني الانفعال والتعب من الردّ، فأجاب:

- رواية من قتل بالومينو موليرو للبيروفي ماريو فارغاس يوسا، هي ليست عملاً بوليسياً تقليدياً، لكنها تتضمّن تحقيقاً حول مقتل

t.me/qurssan

مجنّد شاب بطريقة بشعة، يتولى سيلفا وليتوما أمر القضية، ليقودهما البحث إلى متاهة من الميز العرقي ونظريات المؤامرة وما سمّاه المؤلف بالتهام الأسماك الكبيرة للأسماك الصغيرة، وتنتهي الأحداث بنقلهما إلى منطقة أخرى بعيدة، رغم اقترابهما من حلّ لُغزٍ بَقيَت بعض أسئلته بلا إجابات.

قلت بصبرٍ نافد:

- حسناً، ما دليلك على الاحتمال الثاني؟ أنا لا أعرف شيئاً عن ماضي والدي بالمغرب، وجئتُ إلى هنا بحثاً عن معلومات، ما الذي يثبت مثلاً عمله في القاعدة الجوية لمدينة القنيطرة؟

التقط رشيد صورة والدي مع الطفل المرتعش، ثم أشارَ بأصبعه إلى معلوماتها الخلفية:

- ورد هنا أنّ الصورة التقطت سنة 1958، ومساهمة القوات الأميركية في عمليات إنقاذ ضحايا فيضانات منطقة الغرب، لمعلوماتك فمدينة القنيطرة تنتمي جغرافياً وإدارياً إلى المنطقة المعروفة بتعرّضها لعدد كبير من الفيضانات والانهيارات الأرضية.

- هذا ليس كافياً...

وضعها جانباً، ثم قرّب إليه صورة والدي مع أصدقائه القدامى، وقلَبَها مشيراً إلى ما كُتب خلفها:

- طيب، ما تعليقك على وجود دليلٍ قويّ يُثبت بأنّ الصورة قد التُقِطَت بمدينة القنيطرة؟

نجح أسلوبه في إثارة انتباهي، فجلستُ على مقعدٍ مقابل، وأسندت خدي بيدي متسائلة:

- أيّ دليل؟

- حانة الأركاد مذكورة في رواية محاولة عيش لكاتبنا المغربي

t.me/qurssan

محمد زفزاف، وتضمّنت مشهداً لعراكٍ بين مجموعة من الجنود الأميركيين السكارى داخلها، استعان زفزاف بمعطياتٍ من صلب الواقع المغربي في عمله، ممّا رآه هو بأمّ عينه في طفولته وبداية شبابه. الحانة موجودة، أو كانت موجودة في فترة الخمسينيات بالقنيطرة، المسرح الرئيس لأحداث الرواية، مدينة قضى بها زفزاف عدّة سنوات، سبقت انتقاله إلى الدار البيضاء.

أمسكت بصورة الحانة، وتأمّلتها طويلاً، حتى خيِّل إليّ أنني قادرة على النَّفاذ إلى داخلها، كما يحصل في مسلسلات الخيال العلمي، ثم قلت:

- لا أعتقد بأنّ براندون سيصل إلى شيء بعد تأكّده من وفاة معظم الحاضرين في الصورة، ولا أحسب النتيجة ستختلف مع توني فاجنر. ما رأيك إذاً بالتواصل مع مؤلّف محاولة عيش؟ ستساهم معاينته لفترة الخمسينيات وفرضية عمل أبي بقاعدة القنيطرة في حصولنا على معلومات إضافية حول الموضوع، لربما سمع بوقوع جريمة حقيقية وقتئذٍ، راحت ضحيتها شابة عُثِر على جثّتها بالقرب من نهر سبو.

- كيف ستتواصلين معه وهو تحت التراب؟ توفي محمد زفزاف رحمه الله شهر يوليو من العام الماضي، متأثراً بإصابته بمرض السرطان!

انتقل إلى صورة الشابة المغربية المجهولة، فأجبَرَني الخوف على طرح السؤال المفخّخ:

- هل تفكِّر في...

منعني صوتي المضطرب من المواصلة، فأكملَ هو:

- في أن تكون صاحبة الصورة التي احتفظَ بها والدك لسنوات

t.me/qurssan

هي جميلة البارودي؟ لا أدري، اسم الفيلا وإن كُتب باللغة العربية وعجزت أنت عن قراءته مع وكيلك الأدبي إلّا أنه غير واضح فعلاً، الصورة قديمة جداً وطبيعي أن تكون جودتها رديئة بما لا يسمح بتحليل كلّ تفاصيلها بدقّة، وحتى إن تيسّر لنا ذلك فلا أظنّه سيفيدنا بشيء.

- هذا يقودنا إلى الخيار الأكثر وضوحاً، لن يفكّ لغز أحجية مغربية سوى مؤلّفها خالد رفيقي، ولن يُجيبنا عن سؤال الواقع والخيال في أحداثها سواه.

نهض رشيد، واضعاً يده في جيبه، واقتربَ من حافّة سطح الفندق الذي حوَّله أصحابه إلى مطعم بإطلالة رائعة على المدينة، لِيُلقي على مسامعي قنبلة جديدة:

- يبدو أنكِ لم تقرئي مقدّمة المترجم الفرنسي، وإشارة الناشر في الغلاف الخلفي إلى النسخة العربية بطبيعة الحال. لغز رواية أحجية مغربية الأكبر هو كاتبها نفسه. توصل صاحب دار النشر بالمخطوط عبر البريد، وبعد مرور سنوات طويلة على صدور الرواية، لم يعرف أحد حتى الآن مَن هو خالد رفيقي!

* * *

t.me/qurssan

ٯ موقع الخبر كوم – الرئيسة – حوادث: ×

طالبة بكلية الطب السويسي تقتل مُجازاً عاطلاً وتسلّم نفسها للشرطة

الجمعة 27 مايو 2016 – 23:10

في واقعة فريدة من نوعها، سلّمت (س.ح) (23 سنة) طالبة في السنة الرابعة بكلية الطب السويسي بالرباط، نفسها للمصالح الأمنية بالمدينة، معترفة بإقدامها على قتل المدعو قيد حياته (ر.ب) (27 سنة) وهو مجاز جامعي عاطل، وذلك بتوجيه عدة طعنات إلى قلبه وبطنه، أردَتْه قتيلاً على الفور.

وأكّدت الطالبة في اعترافاتها الأوليّة المفصلة، أنّ الابتزاز والخوف من الفضيحة هما السببان الرئيسان وراء ارتكاب الجريمة البشعة، إذ عَمَدَ (ر.ب) إلى تهديدها لأشهر طويلة بنشر صور حميمية لها، تمّ التقاطها بواسطة هاتف محمول، وتصرّ (س.ح) على القول بأنها تَجهَل الكيفية التي وصلت بها هذه الصور إلى الهالك.

وقد عبّر طلبة الكلية عن تعاطفهم وتضامنهم مع زميلتهم، متحدّثين عن دماثة أخلاقها وتفوّقها الدراسي، هذا في الوقت الذي رفض فيه والداها الإدلاء بأيّ تصريح لمراسل الموقع.

التعليقات (0) الآراء الواردة في التعليقات تعبّر عن آراء أصحابها وليس عن راي الموقع

t.me/qurssan

(9´) التباس الأحاسيس

الموت ليس نهاية الحياة، بل جزءاً منها.

هاروكي موراكامي

السبت 26 أكتوبر 2002

مسرح دوبروفكا - موسكو:

تكرّرت محاولاتي العبثية للاتصال بوالدي وإخبارهم بورطتي عبر هاتفي المحمول، فحالَ ضعف الشبكة دون ذلك.

ثم قضى فراغ بطارية الهاتف على كلّ آمالي في سماع صوتهم وربما توديعهم لآخر مرة...

تجاوزنا خمسين ساعة من الاحتجاز القسري، ولم يعُد أيّ من الرهائن قادراً على الاحتمال أكثر.

مناوشات هاتفية مملّة بين جنرال روسي يُدعى برونيكيفا، يبدو أنّ السلطات كلّفته بالملف، وموفسار باراييف زعيم المجموعة المسلحة.

تواصل المدّ والجزر بينهما، بما أثّر على تماسكنا الهشّ وتشبّثنا بأملٍ ضعيف في الخروج من جحيم دوبروفكا أحياء...

t.me/qurssan

يَعِدُ الجنرال بإرسال مفاوضين لمناقشة المطالب الشيشانية، عكس ما أعلنه الرئيس الروسي سابقاً، فيفرح بارابيف ورفاقه، مطمئناً إلى أنّ ضغطه آتى أكله، ويبشّرنا أنّ كلّ شيء سينتهي على ما يرام.

يتأخّر وصول المفاوضين. يفهم الشيشانيون أنّ الطرف الآخر يُماطل ويبحث عن كسب المزيد من الوقت قبل اقتحام المبنى بالقوة، فيعودون إلى لغة الوعيد والتهديد بالشروع في قتلنا بالتدريج.

أو نسف المسرح بمَن فيه مرة واحدة...

كانوا متعبين مثلنا، وشعروا بحجم ورطتهم مع توالي الساعات البطيئة، فحوّلهم الضغط إلى أشباه مجانين، يُرهبوننا ويُطلقون النار في الهواء، بسببٍ أو من دونه...

وزّعوا علينا حلويات ومشروبات من كُشك صغير مُلحق بالقاعة، كانت بلا طعم في لسان تعطّلت حاسة ذوقه وصيَّرَه الرعب صحراء جدباء قاحلة، وإن جنَّبنا المضغ والازدراد الآلي -على الأقل- خطر التضوّر جوعاً.

لكنهم لم يسمحوا لنا بقضاء الحاجة في المراحيض، خشية غيابنا عن أنظارهم، وأجبرونا على إفراغ مثاناتنا وأمعائنا في قاعة الأوركسترا الخلفية، فصارت القاعة الفسيحة أشبه بمزبلة توشك رائحتها النفّاذة المقرفة على إفقاد مئات الأشخاص وعيهم.

وافقَ بارابيف على دخول طاقم طبيّ ينتمي إلى الصليب الأحمر الدولي إلى المسرح مرتين، واقتنع بضرورة إطلاق سراح أطفال آخرين، ومعهم بعض المرضى والرهائن من ذوي الأصول الشيشانية، ليبلغ مجموع من تمّ إخلاء سبيلهم أزيد من ستين رهينة.

وبلا أيّ مقابل من الروس...

t.me/qurssan

فقط عرض عبثيّ ساخر، قدّمه بوتين ونقله برونيكيفا، يتضمّن بقاء المسلحين أحياء مقابل إطلاق سراحنا، ورفضه القائد الشيشاني بشكلٍ قاطع.

كان الشعور عارماً بالكراهية تجاه المقاتلين الشيشان والسلطات الروسية على السواء. مصيرنا مُبهَم، ونحن أمام خيارين أحلاهما موت: إمّا أن يقتلنا المسلحون الغاضبون من تَجاهل مطالبهم، أو تقتحم القوات الحكومية المبنى فتقع مجزرة...

فعلاً، توجد ألف طريقة للحياة، وطريقة واحدة للموت...

اتّصل البعض بذويهم، تحت أنظار المسلحين، وعلموا أنهم متجمهرون على بُعد أمتار قليلة من المكان، يتوسّلون إلى الجيش بالتراجع عن فكرة شنّ هجومٍ شامل تُراق فيه دماء أحبائهم.

هي دوامة بلا قرار، وجدنا أنفسنا داخلها، لم نغرق فيها، ولم ينتشلنا منها أحد...

لو كان بإمكاني إعطاء تشبيه مناسب لما مَرَرت به وقتئذٍ، لقلتُ بأنّ انقلاب مشاعري السريع بين الترقّب واليأس أصاب حواسي بالعطب والتبلّد، كزرّ إضاءة أدّى الضغط المتكرّر والمتواصل إلى إتلافه.

بكيت كطفلٍ، ضحكتُ كمجنون، ابتهلتُ إلى ربّ نسيته منذ أمدٍ طويل، ولعنتُ نفسي ووالدي ومعهما الشيشان والروس والعالم أجمع.

ثم لجأتُ أخيراً إلى الصمت...

حتى أولغا، الحمقاء التي تسبَّبت في دخولي إلى قعر جهنّم بملء إرادتي، لم أوجّه إليها أيّ لوم، فمع توالي الساعات بدَت الفكرة بلا معنى أو جدوى.

t.me/qurssan

هي نفسها مجرّد ضحية. . .

ضحية قدرها، أو ربما سوء حظٍّ قادَها إلى التفكير في خوض مغامرة التقرُّب من ملعونٍ مثلي!

*

وجاء الفرج أخيراً. . .

مع تجاوز الساعة للرابعة من فجر يوم السبت، انتهى عذابنا ببثّ موجز أنباء أذاع خبراً فهمتُ من أولغا أنه يفيد بقبول الكرملين رسمياً مفاوضة المسلحين مباشرة، حرصاً على أرواح الأبرياء، بعد محاولات سابقة فاشلة من مطربة شهيرة ووزير أوّل سابق.

فرح بارايف ومَن معه، وتوالت تكبيراتهم وشُكرهم لله، فتخلوا شيئاً ما عن تصلُّبهم، واستعادوا بعض الثقة، متنقّلين بين الخشبة وغرفة التحكّم بالمؤثرات الصوتية للتشاور فيما بينهم، فتسرّبت إيجابيتهم إلينا رغم الإنهاك.

- غريب!

قالتها أولغا في شكّ، بعد دقائق من التفكير، ليقودها عدم فهمي إلى الشرح:

- سنة 1995، وكنت وقتها في الثانية عشرة من عمري، هاجم ماتنا مقاتل شيشاني مستشفى بمدينة بوديونوفسك، وبالطريقة نفسها، محتجزين ما يقاربُ ألفَي رهينة، اقتحم الجيش المكان فتسبَّب في مقتل مائة وثلاثين شخصاً، لكن الحادثة كانت مكسباً قوياً لشامل باسايف، أجبرَ من خلالها يلتسن السكّير على التفاوض لوقف إطلاق النار فيما بعد، والقبول باستقلال جمهورية الشيشان كأمرٍ واقع، ما خلّف أزمة سياسية كبرى في حينه، أتحدّث عن فترة مظلمة

t.me/qurssan

عاشت خلالها السلطة أسوَء أيامها، ولكن الوضع مختلف جداً اليوم، كيف قَبِلَ بوتين بهذا التنازل؟ مستحيل!

- والقصد؟

حثّني التفاؤل الجديد على مراقبة حركة رموشها الطويلة عندما ردّت:

- خدعة أخرى، لكنها مختلفة تماماً عن المماطلة السابقة، هم يخطّطون لشيء ما...

مددتُ ساقيّ المتصلبتين لتنشيط دورتي الدموية، ثم قلت:

- دعي التحليلات الفارغة للقنوات الإخبارية الثرثارة، مع شروق الشمس سيصل مفاوضون ليحلّوا مشاكلهم مع الشيشان، سيجتمعون هنا أو في الكرملين أو في غروزني أو حتى في الجحيم ذاته، وسنُغادر نحن بسلام. سأترك بلدكم المنحوس إلى الأبد، معاكساً شعوراً كاذباً بالألفة اعتراني بعد قدومي إلى هنا، لن أبقى في دولة تهاجَم فيها المسارح والمستشفيات بالرشاشات والقنابل، أن أضيع سنة دراسية من عمري خيرٌ لي من خسارة العمر كله...

نقلت بصري المكدود بين عقارب ساعة بلغت الخامسة فجراً، وصفوف المقاعد الحمراء المكتظّة بالرهائن، فلاحظت خلود معظمهم للنوم، ومعهم بعض المقاتلات الشيشانيات المتّشحات بالسواد، ولو تعلّق الأمر بدقائق قليلة يطمئنون فيها إلى قُرب الانعتاق الأخير.

كانت لحظات مفصليّة، انهار فيها الجدار الفاصل بين المسلّحين والرهائن...

بين المعتدي والضحية...

أو ربما الضحية والضحية...

t.me/qurssan

جميعنا نشبه بعضنا، ندفع ثمن البقاء قيد حياة قد لا يكون وجودنا فيها موافقاً لإرادتنا.

فعلتُ مثلهم، مستخدماً معطفي الشتوي كغطاء، وأغمضتُ عيني، أمام الأنظار اليقِظَة والمتحفِّزة لأولغا الملتفتة يمنة ويسرة، باحثة عن شيء لا أعرف ما هو...

لم تمضِ دقائق حتى غرقتُ في نومٍ سريعٍ غريب، اجتاحته هلاوس وصور وأصوات متداخلة غير مفهومة.

حلمتُ بإحدى المنقّبات تنزع لثامها، وسط صرخات أولغا الملتاعة، ليظهر وجه مألوف جداً لذاكرتي، ضغطت صاحبته على الزرّ مع دخول القوات الروسية الخاصة إلى القاعة، لتنسف المكان بمَن فيه، وهي تنشد بإصرار، وبصوتٍ تُخالطه بحّة مثيرة:

ورا حلفت الجمعة مع الثلاث يا عويسة فيك لا بقات...

لم تفلح ذاكرتي التائهة بين اليقظة والحلم في العثور على إجابة شافية تكشف مصدر الصوت، فعوّضت عجزها بإعطاء إشارة مباغتة للبحث عن صورة منسيّة.

صورة أعترف بسذاجتي عندما ظننتُ أنّ هروبي إلى روسيا سيخلّصني من طيف صاحبتها...

* * *

t.me/qurssan

-20-

جلس مصطفى على مقعده الجلدي، متناسياً أكداس الملفّات والتقارير فوق مكتبه الصغير، وقد استسلم لتعب عدم خلوده إلى النوم منذ ساعات طويلة، ومحاصرته بالسؤال الحاسم:

هل تشكّلت اللوحة التي تجمع قطع الأحجية المعقّدة؟

لا، ما زال بحاجة إلى بعض القطع القليلة.

وكلها بحوزة الأميركي المتعجرف...

بحث عن ورقة بيضاء، خطّ فوقها بعض أفكاره بقلم رصاص، ملخّصاً تفاصيل تحقيقه، بما سمَحَ له بإعادة تركيب مجريات ليلة الأربعاء 22 يوليو وما بعدها، معتمداً على ما أدلَت به حليمة خليلة صالح، وصفية شقيقة جميلة من اعترافات وإفادات.

ادّعى صالح سفَره إلى الدار البيضاء لعَقد صفقة تجارية، لكنه بقي في القنيطرة مع خليلته، وتحوّلت جلستهما إلى شجارٍ لما اعتبرته حليمة مماطلة منه في وعوده بالزواج منها والتخلّص من زوجة مغرورة مدلّلة، قال مراراً بأنه لم يرتبط بها إلّا نزولاً عند رغبة أبيه، فجاءت ولادة ابنه الأول ورسوخ العلاقة بين العائلتين لتجعَل ممّا وعدَ به سابقاً ضرباً من الخيال.

من جهتها، استغلت جميلة غياب صالح المفترض عن المدينة، واطمئنان والدها لعودتها إلى منزلها القريب من الفيلا، لتترك ابنها مع شقيقاتها، وتذهب لمقابلة شخصٍ تعرفه جيداً:

ستيف ماكميلان...

قالت صفية بأنّ شقيقتها تعرُفت على الأميركي خلال زياراته المنتظمة للمنزل، فراودتها فكرة إغوائه، وردّ الصاع لصالح الذي يُذيقها الويلات، بضربٍ مبرح وإهانات لا يمكن لمدلّلة عاشت كالأميرة في منزل والدها (إثر وفاة والدتها وهي بعد طفلة صغيرة) أن تحتملها.

t.me/qurssan

وبالفعل، تحوّلت النظرات والابتسامات إلى لقاءات سرية بين المغربية والاميركي، بعيداً عن أعين الفضوليين.

وما أكثرهم طبعاً...

كانت لعبة أو مقامرة بالغة الخطورة، وحذَّرت صفية أختها أكثر من مرّة من عواقبها، فاقسمت جميلة بأنها لم تتجاوز الخطوط الحمراء مع الاميركي قط، فهي أم وحريصة على سمعة ابنها وعائلتها.

لكن يبدو أنّ رغبتها في الانتقام من زوجٍ علمت بحدسها الأنثوي انه يخونها مع أخرى كانت أقوى.

أجبرت صفية على الصمت خوفاً من فضيحة قد تعصف بمستقبل العائلة، إلى أن حلّت الكارثة...

تمّ العثور على جثة الراحلة، وتوصّل المفتّش بالرسالة الغامضة، واكتشف فيما بعد بأنّ مَن وضعتها في صندوق بريده خادمة عشرينية تساعد زوجته أسبوعياً في اشغال البيت، علمت (من ثرثرة الزوجة) بتولّيه مهمّة التحقيق في مقتل جميلة.

ولم تكُن الخادمة سوى حليمة نفسها...

أمية فقيرة بائسة، تعرف صالح وتحبّه منذ سنوات طويلة سبَقَت زواجه، وصبرت كثيراً على أكاذيبه، إلى أن حلّ شجار تلك الليلة واقتنعَت أخيراً بأنها مجرّد لعبة ينسى بها واقع ارتباطه الإجباري بزوجة لا يُبادلها ذرّة من المشاعر، لكنه ليس مجنوناً ليطلّق جميلة ويُخاطر بثروة عائلته وعلاقاتها المتشعّبة فقط ليتزوّجها هي، ففكّرت في ردّ الضربة، واستعانَت بكاتب عمومي لكتابة الرسالة ووضعها في صندوق بريد المفتش، وبالتالي توريطه في الجريمة.

انطلق مصطفى بداية ممّا سمعه من الجيران عن تدهور العلاقة بين الزوجين، وأوشك استجوابه لصالح على الوصول إلى حقائق كان بإمكانها أن تكشف الكثير من الأسرار، لكن تدخّل عائلته لإطلاق سراحه أفسَدَ كلّ شيء، فكانت النتيجة وفاته الغامضة بعد ذلك.

وهكذا ظهر اسم ستيف ملكميلان في القضية، وأصرّ على رفض التعاون، فتأكّد المفتش من أنّ المسار الذي لتخذه التحقيق كان خاطئاً منذ البداية.

t.me/qurssan

لم تكُن لصالح علاقة بمَقتل زوجته، رغم سوء علاقته بها، ويبدو أنّ لعبة الإغواء بين الاميركي والمغربية قد انزلقَت إلى محاولة اعتداء انتهَت بمقتل جميلة وإجبار ستيف على التخلُّص من الجثة ومقابلة صالح بعد ذلك كما لو أنّ شيئاً لم يكن.

ما لم تعرفه حليمة عندما وضعت الرسالة في صندوق بريد المحمودي هو أنّ الغرض الحقيقي لبقاء صالح في القنيطرة لم يكُن اللقاء بها، بل بستيف، كما دوَّن ذلك في مفكرة مواعيده.

السيارة التي كان صالح على متنها لحظة وفاته حديثة وباهظة الثمن، من نوع فورد، موديل سنة 1957، لكن التقني أكّدَ وجود آثار تلاعب متعمَّد بفراملها.

كما توقَّع المفتش تماماً...

هي استنتاجات منطقية، لكنها فتحت الباب على مصراعيه أمام أسئلة أخرى:

هل تخلَّص ستيف من صالح أيضاً؟

لماذا؟

هل للأمر علاقة بجريمة قتل جميلة أم بشيء آخر؟

وما معنى الأرقام تحت إشارة الموعد؟

42F 33137

الأقرب للظن هو أن 42F تعني اثنين وأربعين فرنكاً، لكن ماذا عن بقية الأرقام؟

هل هي صفقة لتهريب السلع الاميركية من القاعدة الجوية؟

نفى والدا القتيلين تعاملهما مع الاميركيين، فهل اشتغلَ الابن لحسابه الخاص، بعيداً عن مصالح والده وصهره؟

هل ستقود خيوط هذه القضية المعقَّدة إلى ما هو أكبر وأخطر بكثير من جريمتَي قتلٍ راحَ ضحيّتها الزوجان؟

ومرّة أخرى تراءت لمصطفى المحمودي صورة ستيف ماكميلان، مبتدأ القضية وخبرها...

رنّ جرس الهاتف، فردّ على المكالمة بتثاقلٍ تبخَّر فَور سماعه صوت

t.me/qurssan

محدّثه، فاستعادَ نشاطه، وغادر مكتبه بخطوات سريعة ليتوقف أمام باب عميد الشرطة ويطرقه.

انتظر إشارة الدخول فدلف إلى الغرفة وأدّى التحية.

– فيما يخص قضية مقتل جميلة البارودي و...

قاطعَه بحماس، متناسياً فارق الرتب بينهما:

– كلّ الدلائل تشير إلى تورّط الجندي الأميركي ستيف ماكميلان في قتل جميلة وصالح، بقيَ أن يتمّ استدعاؤه بالتعاون مع الشرطة العسكرية الأميركية لاستجوابه و...

تجهّم وجه العميد، فرفع يده لإيقافه، وقال بصرامة خالطَها بعض التأثّر:

– اكتب في تقريرك النهائي بأنّ صالح قتل زوجته ثم ندمَ بعد ذلك فانتحر، أغلِقْ الملف واستعِدّ أنت وأسرتك الصغيرة للرحيل بعد أسبوعين، فقد تقرّر نقلك إلى مدينة أخرى.

انتفض مصطفى كالمصعوق، متمتماً بذهول:

– ماذا، لم أفهم...

نهض العميد، واحتمى بالنافذة ليشيح بوجهه مجيباً:

– أنت أحد أفضل الموظفين هنا، ولا يختلف اثنان على أنّك عملت بجدّ لمحو الصورة السابقة عن ماضيك مع سلطات الحماية، كما أنني أعاملكَ دائماً كابنٍ أو أخ أصغر، لذلك سأكون صريحاً جداً معك، يُقال إن آيزنهاور سيزور المغرب قريباً، وستتمّ مناقشة موضوع انسحاب القوات الأميركية من القواعد المغربية، ويريد الجميع لهذه المفاوضات أن تتمّ بسلاسة وبلا أي مشاكل.

– وهل ترى يا سيادة العميد بأنّ إلقاء القبض على مجرمٍ قَتَلَ مواطنين مغربيين مشكلة؟

ردُّ الآخر بإجابة شاردة:

– هناك أولويات...

احتقن وجه مصطفى وهو يهتف:

– أو هي فوارق قيمة إن صحّ التعبير، أتخيّل لو أنّ أميركياً لقيَ حتفه، لانقلبَت القنيطرة وربما المغرب كله رأساً على عقب...

t.me/qurssan

استدار رئيسه وحسَمَ النقاش بعبارة واحدة:

- عُدْ إلى مكتبك، سأنتظر التقرير بعد ساعة واحدة.

غادرَ المفتّش الغرفة وهو يكاد يبكي من شدّة القهر، وتخيّل بأنّ ستيف يبتسم في وجهه بشماتة، فحملَ سترته وغادرَ مكتبه من دون كتابة التقرير، شاعراً بأنه يوشكُ على الانفجار من شدّة الغيظ.

كان غارقاً في هواجسه وبحثه عن طريقة مناسبة لمفاتحة زوجته بقرار نقله، فلم ينتبه لشاحنة ضخمة غير مرقّمة، ادارت محرّكها فور مغادرته لدائرة الشرطة، لتتجه نحوه بسرعة وإصرار...

* * *

تمّت

t.me/qurssan

(10) اختراع العزلة

نحن لا نبحث عن الوحدة، بل نصنعها.

مارغريت دوراس

السبت 26 أكتوبر 2002

حي الأحباس - الدار البيضاء:

وصَلنا إلى المكان المقصود، فنزلنا من سيارة أجرة حمراء، تجاهلَ رشيد ما فهمت أنه مطالبة السائق مقابلاً يفوق الثمن الأصلي، فقط لأنني في نظره سائحة أجنبية يجب أن تدفع أكثر!

- أيُعقَل أنّ هذا الحيّ الهادئ ينتمي إلى المدينة الصاخبة التي عبَرنا شوارعها المكتظّة؟

- السبب واضح، أحباس الدار البيضاء معروفة بمكتباتها، ما يعني سكونها على طول السنة، إلّا إذا استثنينا رواجاً استثنائياً يواكب فترة الدخول المدرسي.

قالها بتهكّم مفهوم المغزى، لم يمنَعْني من الانتباه إلى شرودِ رافَقَه منذ ركوبنا القطار من محطّة الرباط، فلم أجِدْ بداً من سؤاله:

- ما بك؟ ألم نتّفق على البحث عن معلومات أكثر حول خالد

t.me/qurssan

رفيقي، انطلاقاً من عنوان دار النشر، مع علمنا بإغلاقها منذ سنوات، واخترنا للبحث يوم عطلتك الأسبوعية؟

- استدعاني المدير وعبَّر عن امتعاضه ممّا يقوله زملائي عن لقاءاتي بكِ، ثم هدَّدني بالطرد، هو يدّعي حرصه على سمعة الفندق، بعد تكرّر حوادث في أماكن أخرى، نشأت خلالها علاقات غريبة بين سيّاح أجانب ومغاربة حالمين بالعبور إلى الضفة الأخرى.

ضحكَ بعصبية مكملاً:

- علاقات انتهت إمّا بتحقيق أحلامهم، أو تحوّلها إلى كوابيس بتبليغ السياح عن تعرّضهم لجرائم نصب واحتيال، وفي بعض الأحيان كان المخدوعون هم المغاربة أنفسهم، برحيل السائح الماكر من دون دفعه درهماً واحداً نظير قضائه عطلة يتحمّل المغربي المتذاكي مصاريفها كاملة، طمعاً في بلوغ أهدافٍ تتبخّر مع تحليق طائرة السائح، عائدة به إلى بلاده.

بادلته الضحكة بأخرى مشجّعة، وأمسكتُ بيده اليُمنى بتعاطف، أمام أنظار بعض الفضوليين من زبناء مقهى يحمل اسم موريتانيا.

- مع احترامي الشديد لكلّ العاملين في الفندق، ولحاجتكَ إلى مساعدة أهلك مادياً، فإنّ مثقّفاً بذكائك وعنفوانكَ ومستواك الدراسي والمعرفي لا يستحقّ العمل هناك.

- قولي إنه لا يستحق البقاء أصلاً في بلدٍ لا يحتاج مسؤولوه إلى الرصاص أو إلى المخدرات للإجهاز على خيرة شبابه، ما دامت لعبة القهر البطيء وحدَها كفيلة بذلك...

شعرتُ ببذله مجهوداً يفوق طاقته وطبيعته المسالِمَة، للتعبير عمّا يمُوج في أعماقه من مشاعر متلاطمة، لكنه اكتفى بكلمتين لإنهاء الحوار المقتضب:

t.me/qurssan

- هيا بنا!

*

تطلّع إلينا موظّف شاب يعمل في سابع مكتبة نزورها بتساؤل أقرب للاستغراب، ثم كرَّر على مسامعنا ما أكّده آخرون:

- نعم، أذكر جيداً دار الأمل للنشر والتوزيع، بمقرّها الصغير والجميل، أسَّسها وأدارها موظف متقاعد اسمه محسن الفاضلي، هو مثال حقيقي للناشر الشغوف بالأدب، لكن المشروع فشل بعد سنوات قليلة، ما اضطرّه للإغلاق والرحيل مطلع التسعينيات.

كلّمني الشاب العشريني بالإنجليزية، فيما انشغل رشيد بتصفّح الكتب المعروضة، فقلتُ بصبرٍ نافد:

- ما تقوله معلوم لدينا، نحن نبحث عنه لسؤاله عن تفاصيل نشره لرواية أصدَرَتْها داره عام 1989.

ظهر رجل خمسيني يشبه الشاب إلى حدّ ما، تبادَلَ معه كلاماً مستفسراً، وهو يرمقني بنظراتٍ طويلة، كما لو كنت كائناً فضائياً هبط لتوّه من المريخ.

- لا معلومات لدينا بشأنه، تؤسفني عدم قدرتي على إفادتكم بشيء.

قال الشاب ذلك بحَرج، منتظراً عودة الكهل إلى مخزن المكتبة، ليختطف ورقة صغيرة من المكتب، دوَّن فيها شيئاً ما وسلَّمها إليّ، أمامَ ناظرَي رشيد الذي أتى نحونا حاملاً كتباً معظمها ضخمة الحجم.

قال الشاب بصوتٍ خفيض:

- كتبتُ هنا عنوان الأستاذ الفاضلي، وهو قريب جداً. لقد تجاوز السبعين، ويعيش وحيداً بعد وفاة زوجته وهجرة أبنائه إلى

t.me/qurssan

الخارج، لا يُغادر بيته إلّا لماماً. يتجوّل بين المكتبات، يتصفّح الكتب ويأخذ فكرة عن جديد الإصدارات الأدبية والفكرية، دون أن يكلّم أحداً ممّن كانوا أصدقاءه في السابق، فاتّخذ الجميع -بمَن فيهم والدي- موقفاً متحفّظاً منه، وأكّد البعض فقدانه لاتّزانه النفسي، لكنني لستُ متفقاً مع رأيهم، قابلتُ الأستاذ في طفولتي أكثر من مرة، خلال مرافقتي ومساعدتي لأبي في المكتبة، ولم أعرفه سوى رجلٍ طيب ودود، وصاحب ثقافة موسوعية.

- إنه على بُعد شارعين فقط!

قال رشيد بعد اطّلاعه على العنوان المكتوب بخطٍّ سريع مضطرب، ثم أخرجَ حافظة نقوده، سائلاً الشاب عن ثمن الكتب.

بدا من تقلّص جبينه وارتفاع حاجبيه أنه لم يتوقّع غلاء السعر، فتدخّلتُ بسرعة لتقديم حفنة من الأوراق النقدية المغربية إلى الكتبيّ.

- ولا كلمة، الوقت ليس مناسباً للعب دور العصاميّ المعتدّ بنفسه، ولا تشكرني على طريقة الأفلام الميلودرامية بموسيقاها التصويرية السخيفة، خُذْ كلّ ما تريد، واعتبرها نوعاً جديداً من العلاقات العجيبة بين المغاربة والسائحات الأجنبيات!

*

حي هادئ، يشبه الأحياء الضيقة والملتوية في المدينة القديمة بالرباط، جدرانه مطلية بالجير الأبيض، وأبوابه البنية الخشبية منخفضة قليلاً عن مستوى الأرض بدرجة أو درجتين حجريتين.

بائع سمك حفرت أشعة الشمس أخاديدها على محيّاه، يجرّ دراجة هوائية غزاها الصدأ، وينادي مستعرضاً بضاعته بما يشبه الزعيق، تتبعه عصابة قطط متحفّزة لِلَفْتَة إحسان أو برهة سهو للفوز بواحدة من سمكاته المجمدة.

t.me/qurssan

امرأة في مطلع الأربعينيات، ترتدي ثوباً أبيض اللون، رفعت طرفه إلى حزامها الأصفر، تنظف مدخل بيتها وترمقنا في شك، مسرفة في استخدام المياه بما يفوق حاجتها، ومبالِغَة في الانحناء بما يكشف، بتناغم خفيّ مدروس، بروز صدرها العامر وتناسق حجم فخذيها وساقيها مع نصفها العلوي، في استعراض قوّة لن تفهمه إلّا أنثى مثلها. . .

ضغطنا على زرّ جرس المنزل أكثر من مرة، وعاودنا طَرْق الباب بعنف، وأثبتَ حفيف ستارة نافذة علوية وجود مَن يتلصَّص علينا خلفها، ثم أطلَّت طفلة في الثامنة من نافذة أخرى مقابلة، وهتفت بما شرَحَ لي رشيد معناه:

- هي تقول لا تضيّعا وقتكما، لن يفتح الغول بابه لأحد. . .

وأردفَ ضاحكاً:

- لقد حوّلوا المثقف المنعزل إلى غول يخيفون به أبناءهم عوض تشجيعهم على التقرّب منه ومصادقته!

وضع يديه على جانبي شفتيه بحركة مقوّسة، منحت صوته قوة إضافية مع مناداته بما التقطت منه اسم الناشر واسم الرواية باللغة العربية واسم كاتبها خالد رفيقي.

سحبني من ذراعي برفق، متمتماً بكلماتٍ لم أفهمها، تدلّ غالباً على امتعاضه من فضول الأربعينية، فتبعته بيأس مَن يعيش آخر يوم قبل تنفيذ حكم الإعدام بحقّه.

وكما كان متوقعاً، عطفاً على المشهد الكلاسيكي المألوف في كلّ الأفلام والمسلسلات والروايات، لم نكَد نصل إلى مدخل الحيّ حتى فتح باب المنزل، وأطلّ منه عجوز متهالك، بعينين مرهقتين ووجنتين غائرتين وحركة أبطأ من سلاحف الغالاباغوس، نادى

t.me/qurssan

طالب الدكتوراه المغربي، وتبادل معه حواراً قصيراً بالعربية، لم يعِرْني خلاله أيّ اهتمام، لما يقارب خمس دقائق كاملة، سمحَ بعدها بدخولنا، ليكون آخر ما أراه قبل إغلاق الباب إمساك المرأة بمكنسة لمطاردة قططٍ سيئة الطالع، لم تحظَ بغنيمتها من السمك، وتعاقب بقسوة على ذنب يبدو أنّ المرأة نفسها لا تعرف ما هو!

لكن المشاهد المعتادة في الأفلام والمسلسلات والروايات ليست صادقة دائماً. . .

عكس ما ظننت، لم أجدني أمام منزل فوضوي قذر، أو كتبٍ مُلقاة هنا وهناك، أو عجوز بملامح مجنونة مخيفة، يمكن أن يفاجئنا بما لا نتوقّعه، فرغم قِدَم البناء، كانت الغرف الصغيرة مرتّبة بعناية، وكلّ قطعة أثاث في مكانها، وإن كانت عتيقة بعض الشيء، وعندما دلفنا إلى غرفة المعيشة، طالعتني مكتبة ضخمة وصور عائلية مؤطرة في الجدار المقابل، مع تلفازٍ تعرض شاشته بثّ قناة إخبارية.

هجم رشيد على المكتبة بلا استئذان، وبدا منبهراً أمام تنوّع محتوياتها، كجائعٍ لم يعرف من أين يبدأ مع مائدة عامرة بما لذّ وطاب من مأكولاتٍ، فمال العجوز على أذني بحركةٍ ودّية، كما لو كان يعرفني منذ أمدٍ بعيد، وقال بإنجليزية لا تخالطها أية لكنة غريبة:

- أخبروكم عن ناشرٍ مغرور أو أحمق، يعيش وحيداً، لا يُكلّم ولا يصاحب أحداً بعد فشل مشروعه ووفاة زوجته ورحيل أبنائه، الواقع بأنّ أقاويلهم تناسبني وتمكّنني من العيش بسلام، ولولا حديث صديقكِ عن رواية أحبّها كثيراً لما فتحت الباب!

مرهق وبطيء الحركة، كأيّ عجوز في سنّه، لكن لا شيء في مظهره أو هندامه -على الأقل- يوحي بمعاناته من اضطرابات نفسية كما زعم الآخرون.

t.me/qurssan

انضمّ إلينا الشاب وقد تحوّلت لهفته إلى حيرة، ما دفعَ الناشر إلى التعليق باللغة نفسها، لإشراكي في الحوار:

- أفهم جيداً هذه الحيرة التي تَظهر على وجه أيّ عاشق حقيقي للأدب فور وقوفه أمام مكتبة، تعالَ معي...

انتقل بصري إلى التلفاز، مع إملائه لبعض العناوين على الشاب المتحفّز الذي نقلها إلى مذكرته، فانتبهتُ لتعليق المذيع بعصبية على مشاهد متسارعة تظهر تكدّس العشرات أو ربما المئات بالقرب من مبنى ضخم تطوّقه المدرّعات والقوات العسكرية، مع محاولات مستميتة لممرضين وأطباء لإسعاف عددٍ كبير من المدنيين.

موتى أم فاقدو الوعي؟

انتزعني محسن الفاضلي من شرودي، بطرحه سؤالاً مباغتاً لا علاقة له بكلّ ما سبق:

- مجموعة مسلّحة تحتجز مئات الرهائن في مسرح بموسكو، والسلطات الروسية تتمكّن من تحريرهم بعد خمسين ساعة من الاحتجاز، وسط تكهّنات باستخدامها سلاحاً سرياً غير مألوف للسيطرة على الأوضاع، كيف قضى الرهائن ساعاتهم الرهيبة تلك؟ وهل سيكون تحريرهم نهاية لمعاناتهم أم مجرّد بداية أخرى لها؟ برأيك، أليس كلّ ما سبق مدخلاً لمادة مغرية ومناسبة للاستغلال الروائي يا أستاذة ماكميلان؟

* * *

t.me/qurssan

سفارة المملكة المغربية

جمهورية روسيا الاتحادية موسكو، الخميس 14 نوفمبر 2002

بلاغ

في تعليقها على الضجّة الإعلامية التي رافقت حادثة اختفاء الطالب المغربي زهير بلقاسم (مواليد سنة 1983) والمنتسب للسنة التحضيرية الأولى (تخصّص الطبّ البشري) بأكاديمية سيتشينوف الطبية بالعاصمة الروسية موسكو، وتناسل الشائعات حول وجود المفقود بمسرح دوبروفكا الذي شهد حادثة احتجاز رهائن قامت بها مجموعة مسلّحة شيشانية، تُعلن السفارة المغربية عن قيامها بتحريات مشتركة مع السلطات الروسية، أكّدت عدم وجود أيّ مواطن يحمل الجنسية المغربية بين الضحايا أو الناجين بعد عملية تحرير رهائن المسرح المذكور سالفاً، كما تواصلت السفارة مع جمعية الطلبة المغاربة بروسيا، وعلمت منها أنّ المفقود رفض الانتساب لها، وفضّل الانعزال بعيداً عن زملائه المغاربة ومصادقة طالب روسي استبعدَ بدوره فرضية حضور صديقه للعرض المسرحي.

وعليه فإنّ القرائن الأولية لا تُشير إلى وجود علاقة بين اختفاء الطالب يوم الأربعاء 23 أكتوبر 2002، وحادثة احتجاز الرهائن، وما زالت التحقيقات جارية لكشف مصيره وطمأنة أسرته بالمغرب.

ختاماً، فإنّ السفارة تؤكّد على قيامها بواجبها على أكمَل وَجه، حرصاً على سلامة كلّ مواطنيها. عكس ما روّجته أو لفّقته بعض الصحف حول «الإهمال المتعمّد» و«الاستخفاف المهين» لقيمة مواطن مغربي، مقارنة بسفارات دول أخرى تابعت مصائر رعاياها المحتجزين بالمسرح أولاً بأول.

إمضاء

المكتب الإعلامي لسفارة المملكة المغربية بجمهورية روسيا الاتحادية

* * *

t.me/qurssan

(10´) الناجي الأخير

أن ترى كلّ شيء لا يعني أنك تعرف أيّ
شيء ولا يعني أنك قادر على فعل شيء.
سعود السنعوسي

السبت 26 أكتوبر 2002
بين مسرح دوبروفكا ومستشفى غير معروف الاسم - موسكو:

اجتمع شعوري ببرودة لاسعة في أطرافي، مع ردّ فعلٍ عنيف من جسمي الرافض لوجود شيء غريب يعبث بفمي، فاستعدتُ وعيي دفعة واحدة، لأجدني مستلقياً على الأرض، وفَوقي طبيب أو ممرض شابّ بوزرة بيضاء، أدخل أصابعه لمنع لساني من سدّ مجرى التنفس.

تكلم بالروسية، فنظرتُ إليه ببلاهة مَن لا يفهم كلمة ممّا يقول، بعدما اجتمع الخوف والانهيار الجسدي لقتل سرعة استجابتي ومَحو كلّ ما تعلّمته من لغته خلال أسابيع قليلة قضيتها في بلاده.

تبادل الشاب كلمات مقتضبة مع زميلٍ له، ثم حمَلاني ببساطة نحو حافلة متوقّفة، بها عدد كبير من الركاب، وأجلساني على مقعد قريب من النافذة، فانتبهت -رغم ضبابية الرؤية- للجلبة الضخمة

t.me/qurssan

بالقرب من البوابة الرئيسة للمسرح، حيث اختلط الجنود بالأطباء والممرضين والمدنيين المذهولين، فيما تكدّست الأجساد (أو الجثث؟) الساكنة على الرصيف، ودلّت نظرة إلى السماء فوقي على بدء تشكّل الخيوط الأولى لشروق شمس يوم جديد.

ما الذي جرى؟

كيف تمّ إخراجنا من المسرح المحاصَر؟

أين موفسار باراييف وأعوانه؟

رحلوا بموجب اتفاق مع السلطات الروسية؟

استسلموا؟

قُتلوا؟

أين اختفت أولغا؟

لم يأبَه عقلي بضرورة الإجابة عن أسئلتي الملحَّة، بل أعطى أوامره لكلّ وظائفي الحيوية بالتخلّي عني، فاستسلمتُ مرة أخرى لغيبوبة حوّلت كلّ ما يحطي بي إلى سوادٍ قاتم.

*

استيقظت على وقعِ تدليك أحدهم لصدري، وبيدين تغطّيهما قفازات يميل لونها للأصفر.

جدران بيضاء، سرير أبيض، وطبيب مسنّ بمعطف وشعر وحذاء يتشاركون اللون نفسه.

- كفى، أنت تؤلمني أيها العجوز الأبله. . .

فوجئ الطبيب بكلامي، وظهرت علامات تعجّب على محياه، نبّهتني لحديثي بالعربية، فاكتفيت بكلمة واحدة إنجليزية، وقد بلغتني أصوات توحي بوجود حركة نشيطة خارج الغرفة.

- Water.

t.me/qurssan

أعطى إشارة لأحد معاونيه، فملأ الممرض كأساً بلاستيكية من زجاجة مياه معدنية عليها شعار علامة تجارية روسية وسلّمها إليّ، ليلجأ الطبيب بدوره إلى الإنجليزية لمحاورتي:

- هل أنتَ بخير؟ لستَ روسياً إذاً، ما جنسيتك؟

- أشعر بصداعٍ قويّ وتعب شديد، ولا أقدر على تحريك أطرافي إلّا بصعوبة بالغة.

اكتفى بإيماءة رأسٍ بدت كإشارة متّفق عليها مع مساعده، فأردفتُ:

- ماذا وقع؟ لماذا فقدتُ وعيي؟ كيف انتهت عملية تحرير الرهائن؟

ثم استعدتُ جزءاً من تركيزي، فتحوّل هتافي إلى صراخ:

- أين أنا؟ أين معطفي الشتوي وهاتفي المحمول؟ كيف سأتّصل بأهلي لطمأنتهم؟

لكنه اختار استيعاب ثورتي، والردّ على أسئلتي بكلامٍ لم أفهم من مغزاه شيئاً:

- المهم أنّكَ نجوت. استخدمتُ معك -كما الآخرين- عقار النالوكسون، لكنني لا أدري إن كان فعالاً في إنقاذك، أم أنّ تعرّضك للغاز الغامض كان جزئياً...

صمتَ للحظات ثم سأل:

- هل شعرتَ بشيء غير طبيعي في تمام الساعة الخامسة صباحاً؟

- لا، لا شيء، سادَ جوّ من التفاؤل بين الرهائن بعد إعلانٍ بثّته نشرات الأخبار الإذاعية عن قبول السلطات الروسية بالدخول في مفاوضات مع...

t.me/qurssan

قاطعني بحزمٍ ربما أخفى به نفاد صبره:

- أقصد جسدياً، هل شعرتَ بغثيانٍ أو صداع قبل فقدانك الوعي؟

- كان نومي طبيعياً أكثر من اللازم، مقارنة بالفزع والترقّب اللذين رافقا فترة الاحتجاز، وحدها أولغا مَن تفاعلت مع التطورات بسلبية، وشكّت في وجود شيء ما يدبّر في الخفاء.

كان على وشك الاستمرار في أسئلته، عندما فتح الباب ودخل إلى الغرفة شخصان، دلّت القبعة الزرقاء لأحدهما على انتمائه للشرطة، فيما أثبت الحذاء الأسود الثقيل والمعطف الأخضر انتساب الآخر للجيش، كلاهما يحمل أوراقاً مكّنني قرب المسافة من تبيّن احتوائها على جداول وأسماء بالروسية.

انخرطا في حوارٍ قصير مع الطبيب، وفهمتُ من صرامة نبرة الجندي رغبتهما في الاستفراد بي، فخرج العجوز ومساعِدُه، واقترب مني الشرطي الأشقر، بوجه طفولي لا يحمل شارباً أو لحية، خمّنت معه أنه في منتصف العشرينيات من عمره.

كانت إنجليزيته بالغة السوء، لكنها سمحت بالحدّ الأدنى من التفاهم:

- سيدي، نحن سعداء جداً بنجاتك من كابوس مسرح دوبروفكا. انتهَت العملية بتمكّن قواتنا الخاصّة من اقتحام المبنى وتحرير الرهائن وقتل كلّ الإرهابيين. اطمئن، هذا ليس تحقيقاً، نريد التأكّد فقط من بعض المعلومات البسيطة، مفهوم؟

نقلت بصري، المشوّش كأجهزة تلفاز عقد الثمانينيات، بينه وبين الجندي الشبيه بلوحٍ من الثلج، ثم قلتُ باستسلام:

- لا مشكلة، تفضّل!

t.me/qurssan

- اسمك؟
- زهير بلقاسم.
- سنك؟
- 19 عاماً.
- وظيفتك أو مستواك الدراسي؟
- طالب في السنة التحضيرية الأولى، تخصّص الطب البشري، أكاديمية سيشينوف الطبية، موسكو.
- جنسيتك؟
- مغربي.
كانت معلومة عادية، لكنني استغربتُ ردّ الفعل المشكِّك للشرطي، ومراجعته لقائمة الأسماء، ثم حواره القصير مع لوح الثلج، ليعود إليّ بلهجة فقَدَت الكثير من ودّها:
- سيدي، هل تملك جنسية مزدوجة؟
أجبته بقلق:
- لا...
- هل معك أوراق ثبوتية؟
- فقدتُ معطفي الشتوي، ومعه هاتفي المحمول وجواز سفري وبطاقتي الجامعية ومحفظة النقود.
تركَت الحيرة أثَرَها على وجهه الطفولي وهو يقول بارتباك:
- سيد زهير، قائمة أجانب مسرح دوبروفكا تضمّ مواطنين من الولايات المتحدة الأميركية وأوكرانيا والنمسا وهولندا وكازاخستان وأذربيجان وأرمينيا، كلّ هؤلاء أبلغتنا سفارات بلدانهم بوجودهم ضمن الرهائن، وتابعت مصائرهم أولاً بأول. إمّا أن القائمة التي أحملها غير محدّثة، أو...

t.me/qurssan

كان الاحتمال الثاني سهل التوقع، لذلك لم أصدَم بعبارته الأخيرة وسخريتها المبطنة:

- أو أنّ السفارة المغربية لا علم لها أصلاً بوجود أحد رعاياها في مسرح دوبروفكا...

قال لوح الثلج شيئاً ما بالروسية، فهمتُ بعضه، لكن الشرطي ترجَمَ المعنى كاملاً:

- ما دامت وثائقك التعريفية مفقودة كما تدّعي، فنحن مجبَرون على إبقائك هنا، إلى حين التثبّت من هويتك الحقيقية.

ثم غادرا الغرفة بخطوات متناغمة، غير آبهين بتركي وحيداً، أصارع طواحين الحيرة والشكّ.

عقار نالوكسون، غاز غامض، رهائن في مسرح، هاتف محمول وثائق ضائعة، سفارات مهتمة بسلامة رعاياها، وأخرى لا تعرف عنهم شيئاً...

هل قرّر المنطق خلع ملابس العمل وتقديم استقالته؟

أشكّ حتى في حديث البعض عن خشية الإنسان ممّا يجهله، ما دمت الآن مسلوب الإرادة، عاجزاً عن الشعور بالخوف، فاقداً لأيّ قدرة ذهنية على وضع تصوّر منطقي لتسلسل الأحداث، بين خلودي للنوم في مقعدي بالمسرح، وإجابتي عن أسئلة الشرطي الروسي.

ولماذا أجهد عقلي بمحاولة الفهم؟

هل يوجد في حياتنا ما يستحقّ ذلك؟

كبّلتني الهواجس والأفكار الغريبة المفكّكة، فتدخّل صوت مُبهم في أعماقي، خيّل إليّ أنّ صاحبه شخص يجلس على مقعد وثير خلفَ مكتبٍ من الخشب الفاخر، مستعيناً بإضاءة خافتة لإخفاء هويته والتحدّث بأريحية...

t.me/qurssan

لا علاقة للمنطق بما جرى لك يا زهير. لا يمكن لشخصٍ واحد أن تنهال عليه المصائب تباعاً، وبهذا الشكل المضحك.

أنت لستَ إنساناً من لحم ودم، أنت شخصية من ورق، في رواية يحرّك أحداثها كاتب قد يكون سادياً، يتلذّذ بإغراقكَ في بحرٍ من الويلات، أو أحمق، دفعَ بك نحو متاهة لا يدري هو نفسه كيف سيُخرِجك منها!

* * *

t.me/qurssan

ما يجري ويدور في مكان آخر، يوم السبت 26 اكتوبر 2002:

جلس براندون على الاريكة في قاعة الانتظار، واضعاً قبعته على ركبته الطبيعية المرتعشة، دلالة على الانفعال الشديد، وانتقل بناظريه بين الساعة الحائطية وساعة يده، كما لو انه يُقارن بينهما، او يستحثّهما على مضاعفة سرعة عقاربهما.

هي دار لرعاية المسنّين في ديترويت بولاية ميشيغن، علم من معارفه في جمعية قدماء الجيش الاميركي بوجود توني فاجنر على قيد الحياة ضمن نزلائها، فلم يضيع دقيقة واحدة، متمسكاً بالأمل الأخير في الوصول ولو إلى معلومة وحيدة تفيد كريستين في رحلة بحثها عن أسرار ماضي والدها.

اختطف الموت خمسة من الأميركيين الموجودين في الصورة، وبعد التأكّد من إصابة إيرني جونز بالزهايمر، بدا فاجنر كواحة في صحراء مترامية الأطراف.

والخوف، كلّ الخوف، من أن تكون الواحة مجرّد سراب...

لكن باقة أسئلة مفخّخة اقضّت مضجع الرجل طوال الايام الماضية: ماذا بعد المجهودات المضنية والتنقّلات المستمرّة بين الولايات الأميركية؟

هل ستعوّض مساعدته «المجانية» سنوات انتظر فيها التفاتة واحدة من كريستين نحوه؟

هو وكيل ادبي، واكثر مَن يعرف مزاجية الكتّاب وانانيتهم...

هم لا يفكّرون إلّا في انفسهم، ولا تهمّهم سوى مصلحتهم الشخصية، وغالباً ما يدفعهم الطموح إلى تحطيم أقرب الناس إليهم.

لماذا لا تحدّثه مثلاً عن ابنيها رونالد وسيندي، كما لو أنهما غير موجودين؟

أصحيح أنّها خسرت حضانتهما مرغَمَة لصالح طليقها مايك؟ أم أنّها قرّرت التخلي عنهما طواعية سعياً وراء أحلام ولدت بعد دخولها الدرامي المتأخّر إلى عالم الكتابة، بكلّ أضوائه وشهرته الكاسحة؟

امضيا ليلة لا تُنسى، هناك في منزل عائلتها القديم بدنفر.

t.me/qurssan

ليلة انتظرها براندون ثمانية عشر عاماً...

بدت بين يديه، بشعرٍ ذهبيّ وعينين رماديتين ونمشٍ يزيّن وجهها الصغير، أشبه بدمية باربي على مشارف الأربعين. تسلّلت بعض علامات تقدّم السنّ إليها، بظهورِ تجاعيد دقيقة في جانبي عينيها ورقبتها، وشحوم زائدة في خصرها، لكن توالي الأعوام لم يفلح في سلب جسدها حيويته، بل ربما ضاعف من رغبته القوية في إرواء ظمئه.

هذا عن الجسد، لكن ماذا عن القلب؟

ما أدراه إن كانت مشاعرها الحالية حقيقية، أم مجرّد استغلال لما تجاهلته بأنانيتها لسنوات، نظير حاجتها الماسة إلى المساعدة في إنجاز مشروع روايتها الجديدة، وبالتالي حلّ مشكلتها مع ناشرها؟

ألم ينتبه خفية لما يشبه التقزّز في ملامحها مع رؤيتها لساقه المُصابة العارية؟

ألا تصرّ دائماً على تجاهل الحديث عن مستقبل علاقتهما المتأخّرة، وتحصر حواراتهما الهاتفية في الحديث عن تعاونها مع شابّ مغربيّ لا تنفك تعبّر عن انبهارها بذكائه ومثابرته وعدم رضاها عن حظّ أجبره على العيش في بلدٍ لا يقدّره، من دون تقديم تفاصيل أخرى؟

هل تخفي عنه شيئاً ما بخصوص تحقيقها؟ أم أنها شكوك فارغة لا أساس لها، استوطنت عقل شخصٍ لم يعُد يثقُ بشيء أو بأحد، منذ اليوم المشؤوم، حين اهتزّت قاعدته العسكرية في بيروت، على وقع تفجيرات مباغتة، أوقعت القتلى والجرحى كالذباب؟

تبخّرت كلّ هواجسه، أو أنه اكتفى على الأقل بإخفائها تحت السجّاد في واحدةٍ من غرف ذاكرته، مع دخول طبيب في منتصف الثلاثينيات إلى القاعة، مدّ يده إليه مصافحاً.

– البروفسور رولاند جورج، المسؤول عن الحالة الصحيّة للنزيل توني فاجنر...

ألقى الطبيب نظرة سريعة –تعوّد عليها براندون– نحو الساق الصناعية، واتبعها بسؤال ملؤه الشك:

t.me/qurssan

– هل يمكنني معرفة سبب الزيارة؟ وفي توقيتٍ غير مناسب؟ طبيعي ألّا نسمح لغريبٍ بمقابلة نزيلنا!

أجابَ ببساطة مَن أعدّ نفسه لاحتمال وجود عقبةٍ مماثلة:

– أنا موظّف في مكتب فورستر للاستشارات القانونية، تمّ إرسالي لضبط بعض التفاصيل العاجلة المتعلّقة بأملاك موكلنا، السيد فاجنر.

أيّد كلامه بإشهار بطاقة صغيرة بيضاء بيده اليسرى، مع إطباق أصابع يده اليمنى على مقبض حقيبة جلدية سوداء، مضيفاً بثقة:

– يمكنك إجراء اتّصال بمكتبنا للتأكّد من هويتي!

التفتَ الطبيب نحو ساعة حائطية تُشير إلى الثامنة مساء، ثم حوّل شكّه إلى ثقة منقوصة:

– لا، لا يوجد أيّ داعٍ، فقط هي أوّل مرة يزوره فيها شخص ما منذ إيداعه بمركز الرعاية، له ثلاثة أبناء، ابتلعهم وحش الحياة النيويوركية الصاخبة، ولم يكلّف أحدهم نفسه حتى عناء رفع سماعة الهاتف للسؤال عنه...

– كثيرون انسَتْهم الدوامة الأميركية أنفسهم، فما بالك بأحبائهم!

قالها بلهجة ودّية، تُزيل أيّ أثر للشك عند الطبيب الذي أجابه باهتمام:

– ممكن جداً، وَجَبت الإشارة أيضاً إلى عدم معاناته من أمراض عضوية مزمنة، باستثناء مشاكل الشيخوخة الطبيعية، وإذا تجاهلنا قسوة طباعه وعصبيته الزائدة، مع افتقار واضح لأبسط قواعد اللياقة، فهو لا يشكو من اضطرابات نفسية حادّة، لكنه في المقابل دائم الشجار مع باقي النزلاء، ولكَ أن تتخيّل طبيعة المناوشات بين عجزة في أرذل العمر.

ضحك برانسون مربتاً على كتفه، فاقتاده الآخر إلى الغرفة، خاتماً كلامه برجاء:

– من فضلك، أرجو ألّا يتجاوز اللقاء بضع دقائق، حرصاً على راحة السيد فاجنر، بما لا يؤثر على موعد نومه الطبيعي.

انتظر الوكيل الأدبي انسحاب الطبيب الشاب، ليبتسم متفحّصاً بطاقة مكتب استشارات قانونية حصل عليها ببساطة من موظّفة الاستقبال في

t.me/qurssan

المكتب، ثم طرق الباب، فأجابه صوت متحشرج كعربة تجرّها الخيول في فيراكروز:

– اذهَبْ إلى الجحيم يا ابن العاهرة!

لم يتوقّع استقبالاً بتلك الحفاوة، لكن خبرته الطويلة في التعامل مع حفنة مرضى ومجانين يطلقون على أنفسهم اسم الكتاب دفعته إلى استخدام أسلوب مغاير، أثبتت الأيام نجاعته الدائمة.

أسلوب سيُساعد شخصين قضيا سنوات من عمرهما مجنّدين في الجيش الأميركي على التفاهم بسهولة أكبر...

ضرب الباب بقدمه، مقتحماً الغرفة كاللصوص، فهتف العجوز برعب:

– مَن... مَن أنت؟

كان ببشرة وردية كالأطفال حديثي الولادة، وزنه يقترب قليلاً من حافّة السمنة، تدخّلت السنوات بمقصّها لتحكم على معظم خصلات شعره بالتساقط، كما حوّلت التجاعيد وجهه إلى ما يشبه خريطة الطرق الرابطة بين مختلف الولايات الأميركية.

اتّسعت عيناه مع سماعه للجواب:

– ابن عاهرة لا تعرفه، وسيقتلك إن لم تُجِب عن أسئلته بشأن شخصٍ تعرفه جيداً!

كان بإمكان نزيل دار العجزة الاستعانة بزرّ ملحق بسريره، لطلب النجدة من الطاقم الطبي، لكن النظرات الثابتة لمن يقف أمامه أجبرته على التراجع، وتكرار السؤال نفسه:

– مَن أنت؟

– توني فاجنر، كنت مجنداً في صفوف قوات الجيش الأميركي التي عملت بقاعدة القنيطرة الجوية بالمغرب، معلوماتي صحيحة، أليس كذلك؟

أومأ برأسه إيجاباً، وابتسم، قائلاً بلهجة مَن أشعل كلام مخاطبه فتيل ذكريات ماضية لها موقعها الأثير في قلبه:

– المغرب! يا لها من أيامٍ لا تُنسى...

لانت أسارير موظّف الاستشارات القانونية المزيّف، شاعراً في قرارة

t.me/qurssan

نفسه بأنّ مجهود الأسابيع الماضية سيكلّل أخيراً بالنجاح، ففتح حقيبته السوداء، مستخرجاً منها نسخاً طبق الأصل من الصور التي عثر عليها برفقة كريستين في دنفر، وبدأ بعرضها تباعاً على توني، فبحثَ الأخير في الطاولة الجانبية عن نظارات تُساعد بصره الضعيف.

وضع الوكيل الأدبي أصبعه على وجه ستيف ماكميلان في صورة حانة الأركاد، فقال العجوز بحسم:

– ابن العاهرة...

استعادَ براندون قناع غضبه، لكن توني لم يتراجَع، مدافعاً عن شتيمته:

– لا، أنا أقصد ما قلته الآن بالحرف، هل قرأت رواية بطل من زماننا للروسي ميخائيل ليرمنتوف؟

كان اسم الرواية كمطرقة هَوَت على رأس براندون لتهشّمه، لكنه فضّل الاحتماء بحذره عندما قال:

– لا، لا أعرفها، الروايات بالنسبة لي مجرّد مضيعة للوقت...

ضحك العجوز باستهزاء معلّقاً:

– لأنك حمار طبعاً! لن تعرف مَن هو ستيف ماكميلان إلّا إذا قرأت عن غريغوري بيتشورين...

ثم أضافَ بسرعة معاكِسة لسنّه، منعت محاوره حتى من التفاعل مع تماديه في إهاناته القاسية:

– لا يمكن لمَن كانت هوايته الأثيرة تدمير حياة مَن يحبّونه، إلّا أن يكون ابن عاهرة. لو تمعّنت في الصور جيداً، وحاولتَ الربط بينها، لوجدتَ نفسك أمام رواية عنوانها «وغد من زماننا»، لكن الحمير أغبى من أن تَفهم ذلك...

بذل براندون جهداً خرافياً للتحكّم بأعصابه، فاستعادَ الصور، محاولاً فهم قصده، لكن توني أنهى حيرته بحزمٍ خالطَه شيء من اللامبالاة:

– دَعْ عنك هذه الترّهات الآن، أنا لا أعرفك، ولا تهمّني طبيعة علاقتكَ به، لكنني أشعر بمللٍ شديد هنا، وقد يكون اللجوء إلى الماضي علاجاً فعّالاً لوحدتي. تريد معرفة حقيقة ستيف ماكميلان كما عرفته أنا، مراهق ريفي أخرق في تكساس وجندي عابث في المغرب؟ حسناً...

t.me/qurssan

وبدأ يروي، مستعيداً ذكريات يتجاوز عمرها خمسين عاماً...

ذكريات رهيبة، أسقطت فكّ براندون من شدّة الارتياع والدهشة، وضربَت كلّ ما تعرفه كريستين-أو ما تعتقد أنها تعرفه- عن والدها في مقتل.

ومع توالي سرد توني للتفاصيل، اتّخذ الوكيل الأدبي قراراً بدا له وقتها منطقياً:

لن يكشف لكريستين كلمة واحدة ممّا سمعه من فَم توني.

ابداً...

* * *

t.me/qurssan

(11) أقنعة الحقيقة وأقنعة الخيال

العمل الكلاسيكي هو كتاب لم ينته أبداً
من قول ما عليه أن يقوله.

إيتالو كالفينو

السبت 26 أكتوبر 2002
حي الأحباس - الدار البيضاء:

تفرّست في ملامح محسن الفاضلي باستغراب، ولم يجد لساني شيئاً ليقوله سوى:

- عفواً؟

أطفأ العجوز التلفاز، مغيّراً وجهة الحديث ببساطة مَن لم يكُن مهتماً أصلاً بجوابي:

- ما علينا، بالعودة إلى موضوع زيارتكم، ذكرياتي مع أحجية مغربية متباينة، بين الحب والخيبة. عولت كثيراً على نجاحها، لكن الواقع صدمني، فكانت تلك أوّل صفعة يتلقّاها حلم أثبتت الأيام مدى حمقه...

جلس على الأريكة الوثيرة، ثم أعطانا إشارة بالجلوس ففعلنا مثله.

t.me/qurssan

- لكلّ واحدٍ منّا حلم يسعى إلى تحقيقه بعد وصوله إلى خريف حياته، مَن يخطّط لامتلاك منزل يموت فيه بعد سنوات قليلة من بنائه، مَن يسعى لأداء مناسك الحج بحثاً عن تطهير روحٍ لا يعترف بمدى قذارتها إلّا بعد بلوغه الستين، ومَن يفكّر في تجديد شبابه والتمرّد على سيطرة زوجة متسلّطة تفنّنت لعقود طويلة في إفراغ براميل من العلقم في جوفه.

كتم رشيد ضحكته، واكتفيتُ أنا بابتسامة لم تمنَعه من المتابعة:

- لا أدري إنْ كانت وظيفة بوزارة الخارجية نعمة أم نقمة على شخصٍ جَرَت دماء الأدب في شرايينه، زرتُ الكثير من البلدان، تعرّفت على ثقافات وآداب مختلفة، وتغيّرت نظرتي للعالم والحياة، فعدتُ إلى المغرب نهائياً بعد تقاعدي، محاوِلاً نقل تجربتي إلى بلدٍ أحبّه. جئت بفكرة دعم مواهب أدبية أعلم أنها موجودة بكثرة وتحتاج فقط لمن يبرزها. لم يُساعِدْني أحد، وحدها زوجتي آمنَت بحلمي، وشجّعت هدفي بتأسيس مكتبة ودار نشر بعد انتقال أبنائي إلى الضفة الأخرى. سمّيتها دار الأمل للنشر والتوزيع، متفائلاً بإمكانية بلوغ ما أطمح إليه...

قاطعَه رشيد بطريقة انزعجتُ من افتقادها للّباقة:

- وفي بعض الأحيان، يكون التفاؤل أبشَع جريمة ترتكبها بحقّ نفسك.

صمَتَ الناشر طويلاً، بما صوّر لي رغبته في معاتبته، لكنه خالَفَ توقّعي بقوله:

- لا، الجريمة الأبشع هي تمكّنهم من زرع بذرة اليأس في عقل شابّ مثلك.

افتعلتُ سعالاً قصيراً، كدلالة على رغبتي في العودة بالحوار

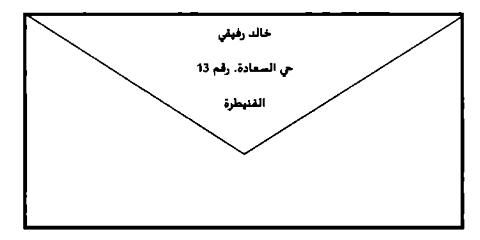
t.me/qurssan

إلى موضوعنا الرئيس، ففهم محسن الفاضلي القصد، ونهض بتثاقلٍ صوب مكتبته، واستغرقَ منه البحث دقيقة واحدة، عاد بعدها وبيده ظرف بريدي كبير مرَّره لرشيد، وقصاصة صحفية احتفظَ بها.

- فور توصّلي بمخطوط أحجية مغربية وقراءته بتمعّن قبل عرضه على لجنة القراءة، علمت أنني أمام رواية غير مألوفة، لم يلفت انتباهي تشويق الحبكة البوليسية، بقدر ما أثارني يأس ما بين السطور. تشعر بأنّ المؤلف شخص فقَدَ ثقته بكلّ شيء، بماضيه، بحاضره، بمستقبله، بالآخرين، ولم يجد سوى الكتابة ملجأً يحميه من انهيار ثقته بنفسه. هي أحجية بالفعل، بجريمة وتحقيق وغموض، لكن بخصوصية مغربية خالصة لن تجدها في أعمال أدبية أخرى.

- ما دام كاتباً مغربياً فمن الطبيعي أن يؤلّف رواية مشحونة باليأس، لو كان بها سطر متفائل واحد لنقلتها فوراً إلى خانة أدب الخيال العلمي...

تعليق آخر من رشيد، تجاهلته بإلقاء نظرة سريعة على المظروف، تغلّب فيها فضولي على جهلي باللغة العربية:



t.me/qurssan

سألت الناشر السابق:

- راسلته إذاً بعد الموافقة على النشر؟

- جهّزتُ عقداً وتواصلت مع المطبعة والمحرّر والمدقّق لبدء العمل، فصدمتُ بمفاجأة غريبة ومحيّرة.

- ما هي؟

- عنوان المرسِل لا وجود له...

سبقه رشيد بالإجابة، فصفق الناشر بيديه كطفل صغير، متفاعلاً مع سرعة بديهته.

- بالضبط، عادَ إليّ المظروف، وفهمتُ من مصلحة البريد بأنّ العنوان وهميّ، لا وجود له، أو أنه وجد في وقتٍ سابق لم يعُد يذكره أحد.

تدخل الباحث المغربي الشاب قائلاً بتهكّم ضمني:

- ما كنتُ لأصدّق أنّ شخصاً كتب رواية تعجّ بتفاصيل دقيقة من صلب الواقع المغربي البئيس، يسكن في حيّ يحمل اسم السعادة!

لمحت طيف ابتسامة ساخرة في زاوية فم محسن الفاضلي، مالَ بعدها إلى الأمام ليخاطبني ببطء:

- قدومكِ بعد ثلاثة عشر عاماً على صدور الرواية للبحث عن إجاباتٍ لسؤال الخيالي والواقعي في أحداثها، وشكّكِ في إمكانية ارتكاب والدكِ لجريمة قتل، يعني أنّ أحجية مغربية لم تكشف كلّ أوراقها بعد، وتطلّب منكما بصفتكما قارئين أن تتعاونا لكتابة فصول أخرى في حكايتها، ألا يذكّرك هذا بشيء؟

أجبته بالصمت، فيما أطلق رشيد رصاصته:

t.me/qurssan

- لغز إدوين دروود لتشارلز ديكنز. . .

كانت ثلاث ثوان كافية ليُشرق وجهي علامة على الفهم، مع شعور سريع بالغيرة من بديهته الخارقة، ما دفَعَني إلى إبراز سِعة اطّلاعي بالشرح:

- معك حق، لغز إدوين دروود واحدة من أشهر الروايات العالمية غير المكتملة، وما زال غموضها مستفزاً لخيال الملايين حول العالم. تدور الأحداث في مدينة وهمية سماها ديكنز كلوسترهام. إدوين طفل يتيم أوصاه والده قبل وفاته بالزواج من روزا اليتيمة أيضاً، بما سيمكّنهما من الحصول على ثروة ضخمة بعد بلوغهما سنّ الرشد. يتولى غاسبر عم إدوين والعضو في فرقة الإنشاد بالكنيسة أمر تربيته. يكبر الطفلان ونراهما شابّين ناضجين. فجأة، يختفي إدوين بشكلٍ غامض، ويبدأ غاسبر البحث عنه، لكننا نُصدم في الوقت ذاته بكون العمّ، المتدين الطيب ظاهرياً، مدمناً على الأفيون، وعاشقاً سرّياً لروزا، كما نكتشف أمرَ لقاءٍ جَمَعَ بين إدوين وروزا ذات ليلة سبَقَت اختفاءه، اتّفقا فيه على إنهاء خطبة أثقَلَت كاهلهما، مع عدم وجود حبٍّ حقيقيّ يربط بينهما، ثم يظهر شخص يقدّم نفسه على أنه محقّق يُدعى داتشيري، بملامح مألوفة نوعاً ما للقارئ. كانت آخر رواية كتبها تشارلز ديكنز، مات عام 1870 ولم يُكمِلْها. مضَت أزيد من مائة وثلاثين سنة، وانشغل الكثيرون باللغز المحيّر، ليتحوّل الأمر إلى هَوَسٍ أطلق شرارة ما بات يُعرَف حالياً بالأدب الدروودي، المعتمد على حلّ الألغاز المعقّدة. هل دبَّر دروود أمر اختفائه؟ أم لقيَ حتفه؟ ومَن سيكون القاتل في هاته الحالة؟ العم الراغب في الاستحواذ على الثروة والزواج بروزا؟ أم شخص آخر؟ لعلمك يا رشيد، تنظّم حالياً مسابقات أدبية في عدّة

t.me/qurssan

دول، يُطلَب فيها من المبدعين الشباب تخيّل نهاية منطقية ومناسبة للرواية اللغز.

- فكرة رائعة، ولعلمك أيضاً، أعرف بلداً تُنظّم فيه مسابقات لاختيار أجمل حمار!

ثم أجبره عدم فهمي لقصده على استعادة جدّيته مرة أخرى:

- نحن الآن أمام معضلة مشابهة، معنا رواية مكتملة، لكن الكاتب المخوّل بكشف غموضها مجهول.

تزامن تعليقه مع اقترابي من المكتبة، مستعينة بترتيب كتبها لجَمع ما تشتّت من أفكاري.

- إذا كان عنوان المرسل وهمياً، مَن يكون خالد رفيقي؟

قال رشيد بثقة:

- إذا انطلقنا من فرضية الجريمة الواقعية، فإنّ الوصف الدقيق لتفاصيل مجريات التحقيق يُشير إلى أنّ الضابط مصطفى المحمودي أو أياً كان اسمه الحقيقي هو المؤلف، ربما شعر بالغبن بعد إغلاق الملفّ ونقله إلى مدينة أخرى، رغم اقترابه من توجيه أصابع الاتهام الرسمي إلى ستيف ماكميلان، فكتب الرواية ليريح ضميره، وباسم مستعار حرصاً على تجنّب المشاكل المتعلّقة بمنصبه الحسّاس، واختلق نهاية توحي للقارئ بأنه لقيَ حتفه، ليُبعدَ عنه الشّبهات.

سلَّمَ الناشر المقال إلى الشاب، مع توجيه الكلام إليّ:

- سنة 1988 لم أضَع في حسباني احتمال تناول الرواية لجريمة حقيقية، لكنني عثرتُ وقتها على قصاصة صحفية قديمة، عندما أردتُ التخلّص من كَومة جرائد تَركَها أحد موظفي دار النشر، فقادني المقال المقتضَب إلى تفسيرٍ مختلف تماماً.

t.me/qurssan

البحث عن مفقود

توجه عائلة رفيق خالدي نداء للبحث عنه، بعد مرور 25 يوماً على اختفائه في ظروف غامضة، يوم الاثنين 1 اغسطس 1988.

المختفي أستاذ في مادة الرياضيات، يزاول عمله في إعدادية السلام بدوار الحاج قدور، على بُعد كيلومترات من مدينة مكناس حيث يسكن مع عائلته، هو شاب في الخامسة والثلاثين من عمره، لا يشكو من أي اضطرابات نفسية او عقلية، لكنه يعاني في المقابل من مرض القلب، مع مشاكل في النطق وتحريك الاطراف بشكلٍ طبيعي، كما تزيّن شامة كبيرة خده الأيسر.

نرجو المساعدة في البحث عنه، وذلك بالتواصل مع العنوان ورقم الهاتف المرفق أسفله.

ألقيت نظرة متمعّنة خلف رشيد، فطالعتني الحروف العربية مرة أخرى، لكن باحث الدكتوراه الشاب لم يُمهلني لطرح السؤال، مترجماً محتوى القصاصة:

- رفيق خالدي، أستاذ رياضيات يُقيم بمدينة مكناس بحسب العنوان المذكور، نشرت الصحيفة خبر اختفائه، ويقول أهله إنهم فقدوا الاتصال به منذ يوم الاثنين 1 أغسطس 1988.

انكفأ الناشر السابق على الأريكة، متابعاً:

- توصلت أنا بمخطوط رواية أحجية مغربية عبر البريد نهاية شهر نوفمبر من العام نفسه!

نقلت بصري بينهما في حيرة، فسحب رشيد قلم حبر وورقة بيضاء من حقيبته، كتب فيها أحرفاً عربية:

خ ا ل د　　　　ر ف ي ق

ر ف ي ق ي　　　　خ ا ل د ي

t.me/qurssan

- فهمت، كان نقل حرف واحد من مكانه في اسم خالد رفيقي كافياً لتغيير اسمه بالكامل وتحويله إلى رفيق خالدي. . .

- ولكن تشابه الاسمين غير كافٍ لربطه بالرواية ومؤلّفها، كما أنّ تاريخ التوصّل بالمخطوط جاء بعد الاختفاء بأشهر.

قالها رشيد بإصرارٍ أغضبني، فعاجله محسن الفاضلي بالردّ:

- وهل تعتقد بأنني لم أفكّر في الأمر؟ لقد ذهبتُ إلى مكناس بنفسي، والتقيتُ بعائلة المفقود رفيق خالدي لأقطع شكّي باليقين!

* * *

t.me/qurssan

فيديو برنامج مواقف حرجة – حلقة خاصة عن حصار مسرح موسكو – قناة ناسيونال جيوغرافيك – إنتاج عام 2007

مقطع من الدقيقة 35 إلى الدقيقة 38:

(صوت المعلّق في الخلفية):

وأخيراً جاءت الفرصة التي انتظرها الجنرال، وحان الوقت ليضرب ضربته.

خلال دقائق، قامت القوات الخاصة بوصل أنابيب الغاز المخدّر بجهاز التهوية في المسرح.

تساقط رذاذ خفيف على القاعة، واعتقد مَن بقي مستيقظاً أنه غاز مسيل للدموع.

اتصلت رهينة خائفة بمحطة الراديو المحلية قائلة:

إنهم يطلقون الغاز! امنحونا فرصة للنجاة! أرجوكم أوقفوا الغاز!

ظنّ المتمرّدون أنهم أمام هجوم، فبدؤوا بإطلاق الرصاص على موقف السيارات، دون أن يردّ الروس على مصادر النيران.

يعمل هذا المخدّر بسرعة، فبمجرّد أن يتمّ استنشاقه ودخوله إلى الرئتين، فإنه ينتقل مع مجرى الدم، ليصل بعد ذلك إلى الدماغ، ويؤثّر على الجهاز العصبي.

فَقَدَ معظم الضحايا وعيهم، وفي الخارج تنتظر القوات الخاصة إشارة الاقتحام...

* * *

t.me/qurssan

(11´) مورفين

الحياة مستشفى تتملّك كلّ نزلائه
الرغبة في تغيير أسرّتهم.

شارل بودلير

الثلاثاء 12 نوفمبر 2002
المركز الطبي الأوروبي- موسكو:

تدارك الروس ارتباكاً أولياً رافق علمهم بوجود مغربيّ ضمن رهائن المسرح، فتقاطَرَ على غرفتي رجال شرطة برتب أكثر أهمية، يُتقنون اللغة الإنجليزية ويُظهرون الكثير من الودّ معي. أخبروني بوجودي في المركز الطبي الأوروبي، ثم طَرَحوا عليّ أسئلة سبقهم إليها الشرطي ذو الوجه الطفولي، مع بعض الاستفسارات الإضافية حول أماكن أعرفها أو زرتها سابقاً في العاصمة الروسية، ومن دون أي تطرق لساعات الرعب في مواجهة مجموعة باراييف المسلحة.

حدّثتهم عن جولة عرَّفني من خلالها صديقي على بعض المعالم الشهيرة في موسكو، ومشاركتي بمسابقة للشطرنج في بيتسا بارك، فدوّنوا المعلومات باهتمام غريب، مع أنها إفادات ثانوية لا علاقة لها بكوني أحد ضحايا الاحتجاز!

t.me/qurssan

فيمَ يفكّرون بالضبط؟

تمّ نقلي بعد أيام قليلة إلى غرفة أخرى بالمستشفى نفسه، ومعها طاقم طبيّ جديد، راقب تطوّر حالتي الصحية، وقدّم لي ما قال إنها منشطات تساعد جسمي على استعادة حيويته، بعد معاناة رهيبة، كدتُ أفقد فيها حياتي بطريقة ما كان ميخائيل ليرمنتوف -بلا مبالاته وسخريته الدائمة من الموت- قادراً على تخيّلها!

تحسّنت حالتي الذهنية بالفعل، لكن الإعياء فرضَ سيطرته عليّ، وانتبهت لمرور عدة أيام، تراجَعَ خلالها الصخب بالمستشفى، بعد انحسار فوضى عارمة رافَقَت نقل الرهائن المحرّرين لتلقي العلاج، وعودة الهدوء النسبي إلى المكان.

وجدتُ الشجاعة الكافية لطرح بعض الأسئلة، والاستفسار عن الجدوى من الإبقاء عليّ، ومنعي من إجراء اتصالات هاتفية بأسرتي في المغرب، فحاولَ ضابط شرطة يشبه أنطون تشيخوف -كما رأيت صورته سابقاً على أغلفة بعض نسخ الجيب المكدَّسة بالقرب من سرير سيرجي- طمأنتي، مؤكّداً على انتهاء أزمتي بسلام، ووجوب بقائي رهن المتابعة الطبية اللازمة، في انتظار إتمام بعض الإجراءات الإدارية للسماح لي بمغادرة المستشفى والالتحاق بمقاعد الدراسة في الكلية.

لو كنّا في المغرب لتفهّمت السبب، مع تحوّل مصطلح تأخّر الإجراءات الإدارية إلى أمر طبيعي ومألوف جداً في واقعنا الكوميدي المعطوب، والدليل هو تعاملي بالكثير من السخرية -عوض الغضب- مع جهل السفارة المغربية بوجودي ضمن الرهائن.

لكن الأمور تجاوزت بالفعل حدّها الطبيعي المعقول. . .

تضخّمت قائمة تساؤلاتي، مستشعراً -على طريقة أولغا- وجود

t.me/qurssan

فخّ تتعاون عصابة من العناكب على محاصرتي بخيوطه المتينة، فقرّرت البحث بنفسي عمّا يروي فضولي.

ولم تتأخّر الإجابات -أو بعضها على الأقل- هذه المرة...

*

أشرقت شمس يوم جديد، دلفت معه إلى الغرفة عاملة تنظيف كئيبة، قامت بمسح روتيني لزجاج النوافذ المطلّة على ساحة المجمع الطبّي الخلفيّة، مستخدمة أوراق جرائد مستعمَلَة.

أنا لا أتقن إلّا أقلّ القليل من اللغة الروسية، استناداً إلى مدّة وجودي القصيرة بموسكو، لكنني أملك عقلاً أحسبه قادراً على التصرّف بذكاء...

انتظرت فرصة ابتعاد العاملة للردّ على اتصال هاتفي، لإلقاء نظرة على سلّة مهملاتها، مستخرجاً ورقة جريدة قديمة، أخفيتها تحت وسادتي بأقصى سرعة سمح بها جسدي.

أنهت العاملة مهمّتها، فواجهتها بابتسامة عذبة مصطنعة، اختفت فور إغلاقها الباب، فعدتُ للورقة القذرة والمبلّلة، بما لا يَسمح بقراءة محتواها كاملاً، وفرَدتها على السرير.

هي صفحة افتتاحية لجريدة روسية بتاريخ الجمعة 1 نوفمبر 2002، أي بعد مرور ستة أيام على انتهاء العملية، يتصدّرها عنوان ضخم:

Скандал!

Российский спецназ использует секретный газ для прекращения захвата заложников на театре Дубровки, и жертвы превышают 100

t.me/qurssan

كان فهمي لكلمات فضيحة وغاز ودوبروفكا ومائة ضحية مؤشراً على تبدّد نزرٍ يسير من ضبابية المشهد، حفّزني على التمعّن في بعض الصور المرفَقَة، وتُظهر إحداها شخصاً يتحدّث في مؤتمر صحفي، وأخرى الجثث المشوّهة لموفسار باراييف ومجموعته، وثالثة عدداً من المواطنين فيما يشبه المظاهرة، يرفعون صور أحبائهم ممّن كانوا معي داخل المسرح، ورابعة عبارة عن رسومات لصيغ كيميائية لم يُساعدني ما أحتفظ به في ذاكرتي من دروس الكيمياء على فكّ طلاسمها فتجاهلتها، ثم بذلتُ جهداً للربط بين الحروف والكلمات الروسية في مقدّمة المقال وتتمّته في الصفحة الموالية، موظّفاً المنطق وبعض الخيال لملء الفراغات وفهم المقصود، فكوَّنتُ تصوراً شخصياً لسير الأحداث، لا أدري مدى مطابقته للواقع.

ولأن الحقيقة في جوهرها معاناة، يمكن لمعرفتها أن تكون أشدّ ضرراً من الجهل بها، فمن الطبيعي أن نكون مجبَرين أحياناً على تصديق ما هو غير قابل للتصديق...

كان شكّ أولغا في محله...

لم تكُن الحكومة الروسية جادّة في إعلانها قبول التفاوض مع مجموعة باراييف. هي مجرد حيلة كسبت بها وقتاً ثميناً، خدعت به المقاتلين الشيشان ونفّذت خطتها لاقتحام مسرح دوبروفكا كما أرادت.

لم يكن نومي بعد إذاعة خبر موافقة الكرملين على شروط الشيشان عادياً، إذ استخدمت القوات الخاصة -أو السبيتسناز كما سمّتهم أولغا- غازاً سرّياً، قامت بضخّه داخل المبنى، غالباً عبر منافذ التهوية، ممّا أدى إلى فقدان معظم الحاضرين -وأنا معهم- وعيهم ببطء شديد، ولم يستطِعْ مَن بَقِيَ مستيقظاً التحكم بوظائفه

t.me/qurssan

الجـدية الطبيعية، فهاجم الجنود المبنى حوالي الخامسة والنصف من صباح السبت، وقتلوا كلّ المسلحين ثم شَرَعوا في إجلاء الرهائن خارج المسرح.

خمسون مقاتلاً نام أغلبهم، واشتبكَ الباقون مع القوات الخاصة الروسية في معركة يائسة نتيجتها معروفة سلفاً.

لماذا لم يتمّ الإبقاء على مسلّح واحدٍ على الأقلّ للتحقيق معه؟

لا أحد يدري...

ظاهرياً، هي عملية مُتقَنَة نظيفة، لم تُرَقْ خلالها نقطة دم واحدة للمدنيين الأبرياء.

لكن الدم ليس الطريق المعبَّدة الوحيدة نحو القبر...

توافدت جحافل المحتجزين إلى مستشفيات موسكو عبر حافلات وفَّرتها سلطات المدينة، وتهيأ الأطباء للتعامل مع إصابات بأعيرة نارية وشظايا متفجّرات، لكنهم فوجئوا بأشخاص يعانون من العياء والإغماء أو الغثيان وضيق التنفس، توفي عدد منهم بعد وصولهم للمستشفى.

اكتشف الأطباء استنشاق الضحايا غازاً مجهولاً، وبكميات كبيرة، قدَّروا أنّ مكوناته قريبة من شيء اسمه الفيتانيل، فتعاملوا معه بمصل أو ترياق يسمّى النالوكسون، ذكره الطبيب العجوز قبل أيام.

ولكن النتائج لم تكُن فعّالة بالشكل المطلوب...

واصل عداد الوفيات صعوده الجنوني، ليتجاوز مائة ضحية، بينهم أجانب، وثارت ثائرة المواطنين الروس وممثلي سفارات الدول الأجنبية للكشف عن الحقيقة والاحتجاج على ظروف الإخلاء وسرقة ممتلكات الرهائن.

وسفارة بلدي غائبة عن الوعي طبعاً!

t.me/qurssan

تدخّل وزير الصحة الروسي، وعقد مؤتمراً صحافياً يوم 31 أكتوبر، تحدّث فيه عن غاز اسمه كولوكول 1، مختلف تماماً عن الفينتانيل رغم تشابه الخصائص، وأقوى من المورفين بمائة مرة، وأكّد رفض الجيش الروسي الإفصاح عن مكوّناته الحقيقية أو تزويد الوزارة بالمصل المضاد، مفضّلاً التضحية بأرواح العشرات على إماطة اللثام عن سلاحه السري.

هي الفظاعة في أسوء تجلياتها، أن تطمئن لنجاتك من كابوس مرعب، فتكتشف متأخراً خدعة رَمْيِكَ في دوامة كابوس أكبر...

تزامن وصولي لنقطة محورية في محاولات جمعي قطع أحجية مسرح دوبروفكا مع دخول ضابط الشرطة الشبيه بتشيخوف ومعه الطبيب المشرف وممرّض مرافق إلى الغرفة، وفي وقت مناسب تماماً، لإعادة تذكيري بقائمة الأسئلة المتعلّقة بمصيري أنا، بعد الإجابة الجزئية عمّا جرى بشكلٍ عام.

أدهشني تجاهل الضابط لمعنى وجود صفحة الجريدة بين يدي، حيث انتزعها من يدي بلطف، ثم كوّرها ورماها بعيداً، وقال بهدوء:

- رأينا بالتشاور مع الطاقم الطبي تجاوزكَ لمرحلة الخطر، ما يعني إمكانية مغادرتك للمستشفى.

لم أنجح في إظهار سعادة مزيفة بكلامه، فوضع الممرض بجانبي معطفاً قديماً وملابس رثّة، رافقها تعليق من الطبيب:

- لا يمكننا الجزم بتعافيك التام، فأنتَ تعاني من الإعياء وبعض الصعوبة الطفيفة في تحريك الأطراف، نتيجة استنشاقك كمية كبيرة من الغاز، لكنك بعد في التاسعة عشرة من عمرك، وتتمتّع ببنية قوية وذكاء ملحوظ.

اقترن ذكره لكلمة الذكاء مع التفاتة سريعة نحو ورقة الصحيفة المكوّرة والمرمية.

t.me/qurssan

الملاعين. . .

حسبتني ذكياً تمكّن من فهم خدعتهم مع موفسار بارابيف ورفاقه، فاكتشفتُ أنني أسير خدعة أكبر!

خدعةٌ ما زلت عاجزاً عن إدراك الهدف الحقيقي منها. . .

- ستتغلّب على صعوبات تحريك الأطراف مع الوقت، وستزورنا في حصص ترويضٍ محدّدة، لذلك سنتولى إيصالك إلى السكن الجامعي عبر مقعدٍ متحرّك، على متن سيارة إسعاف.

يا سلام، كلّ هذا من أجلي أنا، مغربي منعدم القيمة لم يهتمْ لأمره أحد!

تسلّل الخوف إلى صوتي وأنا أهتف:

- ما الذي تريدونه مني بالضبط؟ أنا مجرّد طالب جامعي قادَه نحسه للوجود بالمكان الخطأ في الوقت الخطأ!

ردّ شبيه تشيخوف بابتسامة غامضة المغزى، أتبعها بعبارة تجمع بين البراءة والاستفزاز:

- لِمَ الخوف يا عزيزي؟ قُمْ بارتداء الملابس، هيا. . .

لم أجد بدّاً من طاعته، مقتنعاً بعدم وجود خيار آخر، فساعدني الممرض على ارتداء الأسمال البالية بسبب الإعياء الشديد.

بدوتُ كأحد متشرّدي الأحياء الهامشية في موسكو، لا طالباً في كلية طب. . .

تعاون الطبيب والممرض لإجلاسي على الكرسي المتحرّك ثم نقلي إلى سيارة الإسعاف خارج المجمع الطبي.

ولأنني أتمتع بذكاء ملحوظ كما قالوا، فقد تأكّدت في قرارة نفسي من أنّ الوجهة ستكون بعيدة تماماً عن السكن الجامعي. . .

* * *

t.me/qurssan

ما سجّله رشيد بناصر في مذكرته، تلخيصاً لما رواه الناشر السابق محسن الفاضلي حول محاولته تقفي اثر استاذ الرياضيات المفقود رفيق خالدي:

- أفكار طرحها الناشر بعد قراءة المقال:

– خالد رفيقي مؤلف رواية احجية مغربية و رفيق خالدي أستاذ الرياضيات المختفي شخص واحد؟؟ (التلاعب بحرف الياء – تاريخ الاختفاء والتوصّل بمخطوط الرواية متقاربان)

– صدفة تشابه عادي في الأسماء؟؟

– القرار: الذهاب إلى مكناس ومقابلة عائلة المفقود رفيق خالدي.

- ما جرى صباح يوم الأحد 11 ديسمبر 1988 بمكناس:

– وصول الناشر إلى المدينة وبحثه عن العنوان المدرَج في المقال، لقاء اول بـ سمير قاسمي، صديق رفيق خالدي المقرَّب وزميله بصفته أستاذاً للّغة العربيّة في الإعدادية نفسها في دوار الحاج قدور. يفهم الناشر أنّ سمير يقيم ايضاً بمكناس، وهو مَن راسل الصحيفة للإعلان عن الاختفاء، لأنّ معظم أفراد العائلة أمّيون.

– لقاء ثانٍ بعائلة الأستاذ بحضور الصديق، يفهم من الحوار أنّ والدي المفقود توفّيا قبل اختفائه، وعلى فترات متباعدة. وانتقل العمّ مع أسرته (قادمين من بادية نالت نصيبها من موجة جفاف الثمانينيات) للسكن مع رفيق خالدي بالمنزل.

– ترجيح الأهل تسبّب أعمال سحر وشعوذة مجهولة في اختفاء الأستاذ بتلك الطريقة الغامضة!! (كلام فارغ... لا حول ولا قوة إلّا بالله)

– تأكيد لإصابة الأستاذ المفقود بضعف في عضلة القلب وصعوبة في النطق وتحريك الأطراف. (الأسباب؟؟؟)

– نفي قاطع من الصديق لفرضية تأليف الأستاذ المفقود للروايات، أو اهتمامه بالأدب، مع الإشارة إلى ميله للعزلة والهوس بحلّ معادلات ومسائل رياضية لا يفهمها إلّا هو. (؟؟؟)

t.me/qurssan

• ما جرى مساء يوم الأحد 11 ديسمبر 1988 في دوار الحاج قدور:

– دوار صغير يعرف فيه الجميع بعضهم بعضاً.

– اهتمامهم بقضية اختفاء الأستاذ المحبوب في نظرهم، ورغبتهم الصادقة في كشف مصيره. (ليس مجنوناً كما أشارت العائلة ضمنياً...)

– إشادتهم بصداقة رفيق وسمير، ومجهوداتهما المشتركة لإقناع الأسر بإلحاق الفتيات بمقاعد الدراسة، وتعاونهما لتشجيع الأطفال على المطالعة والتحصيل.

– حديث بعض التلاميذ عن فتور العلاقة بين الأستاذين، وصولاً إلى شجارٍ عنيف وقطيعة تامّة مع اقتراب السنة الدراسية الماضية من نهايتها، شهرين فقط قبل اختفاء أستاذ الرياضيات. (لماذا امتنع سمير قاسمي عن الإشارة إلى هذه التفاصيل؟؟؟).

– انتباه الناشر (بعد عودته إلى الدار البيضاء) إلى معاناة الكثيرين ممّن قابلهم في الدوار من مشاكل في المشي وتحريك الأطراف. (تشابه مع حالة رفيق خالدي؟؟!!!)

• ما جرى يوم السبت 20 مايو 1989 في الرباط:

– مرور أسابيع على صدور رواية أحجية مغربية وتوزيعها في بعض المكتبات.

– مرافقة محسن الفاضلي ابنته ليلى المقيمة بالرباط مع زوجها علي إلى مستشفى الولادة بالعاصمة بعدما داهمها المخاض. (~~ثرثرة لا تهمنا في شيء~~)

– في أثناء انشغال الناشر بالحديث مع مصلّح ثلاجات وضعت زوجته مولوداً اختارا له اسم عبد المجيد (~~وما شأننا نحن ؟؟؟~~) فوجئ بمرور سمير قاسمي أمامه مهرولاً، ومعه شابّة مرهقة تحمل بين يديها رضيعاً حديث الولادة.

– ناداه أكثر من مرّة، فتظاهر الشاب الثلاثيني بأنه لا يعرفه، قبل مغادرة المستشفى بسرعة. (ما علاقة سمير قاسمي بالرباط؟؟؟)

t.me/qurssan

– عودة محسن الفاضلي لدفتر المواليد المسجّلين بالمستشفى في ذلك اليوم، وتأكّده من وجود سمير واحد. (يسجّل المستشفى الاسم الشخصي واسم الأب من دون الاسم العائلي) وهو متزوّج من شابّة اسمها لبنى، وأنجبا طفلة.

Cherchez la femme!!! = لبنى



t.me/qurssan

(12) السائرون نياماً

الحقيقة الوحيدة في الحياة هي الأحاسيس.

فرناندو بيسوا

الأحد 27 أكتوبر 2002

بين محطة القطار ومقهى الأركاد - القنيطرة:

دلفنا إلى مقصورة خالية في الدرجة الأولى، وما إن تحرّك القطار ببطء، معلناً مغادرته محطة الرباط المدينة، حتى تكلّم رشيد:

- ما رأيك بما حكاه محسن الفاضلي عن قضيّة اختفاء رفيق خالدي؟

نقرت بأصابعي على الطاولة في ضجر، ثم قلت:

- قصة مثيرة للاهتمام، ولكنها بعيدة تماماً عن بحثنا، لم يعثر الناشر على أيّ دليل يربط أستاذ الرياضيات بالرواية.

فتح حقيبة ظهره المهترئة، وبحث فيها بإصرار، ليُحاصر ناظري بعد لحظات بصورة قديمة ملوّنة.

- تأمّلي الصورة التي قدّمها أحد تلاميذ إعدادية الدوار إلى الناشر، رفيق وسمير يوزّعان الحلويات والكتب على الأطفال،

t.me/qurssan

ويظهر مدى التفاهم بينهما وتعاونهما للقيام بواجبهما التربوي، كيف تحوّلت صداقتهما الراقية إلى قطيعة سبَقها شجار عنيف مجهول الأسباب؟

أجبته بلا مبالاة، كدلالة ضمنية على رغبتي في التركيز على ما يهمنا:

- ذاك شأنهما...

لم يأبَه بمغزى نبرتي مواصلاً:

- الجواب واضح، فتّش عن المرأة، أو **Cherchez la femme** كما قال ألكسندر دوما في رواية موهيكيو باريس، لن يدمِّر علاقة صديقين حميمين سوى تنافسهما على حبّ امرأة واحدة. يراودني إحساس قويّ بأنّ سمير قاسمي لم يقُل كلّ الحقيقة لمحسن الفاضلي، وقد يكون للمسماة لبنى دَخْل في الشجار والقطيعة، وربما الاختفاء أيضاً.

تحوّل تلميحي إلى تصريح، مع هتافٍ اقترب من حافّة الصراخ:

- فليذهبوا جميعهم إلى الجحيم. اتّصل بي براندون ليُخبرني بوفاة توني فاجنر قبل سنوات، وصار أملنا الضعيف الوحيد مرتبطاً بالبحث عن نادلٍ مغربي نَكِرَة في حانة نَجهل كلّ شيء عن حاضرها الآن!

ثم انفجرت باكية:

- لن أصل إلى الحقيقة التي قلَبَت حياتي الآن رأساً على عقب. أصحيحٌ أنّ أبي قاتل أفلَتَ من العقاب؟ ستنتهي المهلة قريباً، ولن أكتب حرفاً واحداً في روايتي الرابعة، وسيجدها دافيد هيرش فرصة لتدمير مستقبلي والقذف بي إلى غياهب النسيان وربما السجن، لو بعتُ إقامتي الشاطئية في ميامي وأفرغتُ حسابي البنكي، فلن

t.me/qurssan

أتمكّن من سداد ربع الشرط الجزائي، وحتى لو عملتُ بنصيحة الناشر المغربي وكتبتُ رواية عن حصار مسرح موسكو فسيتّهمني الجميع بالتكرار وجفاف القريحة لأنني تناولتُ تيمة الرهائن في روايتي الأولى!

أخرَسَته ثورتي، فتمتم بعد دقيقتين تقريباً:

- أنتِ مبدعة ولستِ كاتبة بالقطعة، الأدب أرقى وأجمل من هذه القيود الرأسمالية التافهة.

غامت عيناي بالدموع وأنا أردّ باستخفاف:

- أرجوك، لستُ بحاجةٍ محاضرةٍ حول دور الأدب في حياتنا، يكفي ما ألقاه براندون على مسامعي قبلك.

اقترب مني بتؤدة، وشعرتُ بخشونة أصابعه المرتعشة مع إمساكها بيدي.

- اطمئني، سيكون كلّ شيء على ما يُرام، ربما معك حق، وجبَ علينا التركيز في بحثنا، وبعدها سيتوجّب عليك قضاء بعض الأيام الإضافية في المغرب كسائحة. لربما أدركتِ أنّ مشكلتك أقرب إلى النكتة إذا ما قورِنَت بما أعانيه أنا وأمثالي هنا!

*

وصلنا بعد نصف ساعة تقريباً، فاستأنف رشيد كلامه بعد نزولنا في المحطة.

- لعلمك، المدينة الآن مختلفة تماماً عن الوصف الذي قدّمه خالد رفيقي في أحجية مغربية لسنوات الخمسينيات، قرأت أنّ القنيطرة احتفظت بوضعٍ خاصّ بعد إخلاء معظم القواعد العسكرية، وبقي بها بعض الأميركيين حتى بداية عقد السبعينيات.

t.me/qurssan

ساهمت الدقائق الماضية في عودة نزر من الهدوء إلى أعماقي، فتفاعلت معه بالقول:

- عاد أبي إلى الولايات المتحدة مطلع الستينيات، ثم التقى بأمي وولدت أنا عام 1963.

- سنرى، قد يكون لعودته تفسير معيّن.

- هل سنجد الحانة؟

أزاح خصلة شعر غطّت جبينه، وأجابني بحرجٍ غريب:

- الواقع أنّ المسألة معقّدة بعض الشيء. شهر رمضان يقترب، وهو مناسبة دينية مقدّسة ستجعل البحث صعباً، إذ يتذكّر المغاربة فجأة بأنّ الخمر حرام. سيتوجّسون وينظرون إلينا بعين الريبة والشكّ فور ذكرنا لاسم المكان!

- والحل؟

أشارَ بأصبعه إلى شاب يجلس على مقعد شبه مكسور، ويرمقنا بنظرات تجمع بين الاستغراب والتوجّس.

- سنستعين بخليل، صديق قنيطري شارَكني مقاعد الدراسة قبل سنوات، ويعرف المدينة جيداً.

كان مختلفاً عن رشيد، ببنية أقرب إلى البدانة، وملامح أكثر راحة. عانق صديقه، وتبادل معه حديثاً وديّاً بالعربية، قبل أن يخاطبني بفرنسية متعثّرة:

- اعذريني يا سيدتي، فإنجليزيتي ضعيفة، ولن تكون أبداً بطلاقة رشيد، أفضل طلبة فَوجنا على الإطلاق. كنّا نلقّبه بالمكتبة المتنقّلة لقوة ذاكرته وقدرته العجيبة على ربط كلّ شيء بكتاب أو رواية قرأها. موهبته فذّة، ولا تستحقّ بلداً لا يبدو أنه سيقدّر أمثاله في المائة عام المقبلة على الأقل.

t.me/qurssan

ثم مالَ نحوي وقال بتوسُّل مسرحي:

- أرجوك يا سيدتي، ابحثي عن طريقة لتهريبه إلى الولايات المتحدة، فإمّا أن ينجح هناك ويصبح قامة فكرية نفتخر نحن بها، أو يضيع هنا، بين عمل متواضع لا يناسب قدراته، وأطروحة قد يحوّلها أستاذه المشرف إلى عذابٍ أليم، ينتهي ببطالة ومواجهات دامية مع قوات الأمن أمام مبنى البرلمان!

ابتسمتُ مع استيعابي لما يعنيه كلامه، فيما أنّبه رشيد بنظرة غاضبة وكلمات عربية ممتعضة، أجبرته على التحوّل إلى الجدّية المباشرة:

- حسناً. أنتما محظوظان، تحوّلت حانة الأركاد إلى مقهى ما زال موجوداً حتى الآن. هو قريب جداً من شارع محمد الخامس الحيوي في المدينة، ولا يبعد عن هنا سوى بمسافة قصيرة. يمكننا الذهاب سيراً إن أردتُم.

*

تابعتُ ببصري الزبناء الجالسين على مقاعدَ محاذية للرصيف وهم يتهامسون فيما بينهم ويرمقون قميصي الأبيض المفتوح وسروالي الجينز وحذائي الرياضي بفضول، فرفعت عيني نحو اللافتة العريضة.

Café Les Arcades

هل قضى أبي ليالي كثيرة يسكر ويلهو مع أصدقائه هنا، قبل أربعين عاماً؟

إذا استثنيتُ عشرات الأعين المتفحّصة، فالمقهى هادئ جداً، ولا علاقة له بما قرأتُ عنه في أحجية مغربية وما قال رشيد بأنّ الكاتب المغربي محمد زفزاف وَصَفَه بدقّة في محاولة عيش.

t.me/qurssan

كان محقّاً، فقد تغيّرت المدينة كثيراً مقارنة بما ورد في «وايتين»، ولا شيء اليوم يدلّ على أنّ حانة صاخبة وُجِدَت في هذا المكان بالذات!

- انتظري هنا، لا داعي لدخولك معنا، سنتدبّر الأمر بأنفسنا وسأل العاملين في المقهى عن نادل الصورة القديمة.

أشحتُ بوجهي هاربة من النظرات المتفحّصة لروّاد المقهى، فتراءى لي على مرمى البصر، جهة اليمين، على بُعد مائتي متر تقريباً، انعكاس أشعة الشمس على صفحة مياه ساكنة، فلم أشعر بنفسي وأنا سائرة نحوها بخطوات متثاقلة كالمنوّمة، لأجدني بعد دقائق قليلة بالقرب من الضفة، مستسلمة لخلوة أبتعد فيها عن رشيد وخليل وبراندون وخالد رفيقي والعالم بأسره.

إنه نهر سبو بلا شكّ...

هل شهدت إحدى هاتين الضفتين تسلّل جندي أميركي اسمه ستيف ماكميلان، في جنح الظلام، حاملاً جثّة شابّة قتلها بوحشيّة، ليتخلّص منها هنا؟

مستحيل...

لستُ بحاجة إلى منطق أو بحث أو تحقيق أو أدلة أو حتى سعي خفيّ من رشيد لإدانة أبي، إرضاءً لرغبةٍ داخلية أفهمها وأتظاهر بتجاهلها.

رغبة في تحميل الأميركي كلّ مصائب باقي سكان الأرض، فقط لأنه الأقوى.

أبي ليس قاتلاً، إحساسي لا يكذب...

أيّ جنون دفعني إلى الشكّ في رجلٍ وديع عشقته أمي وقالت بأنّ هوليوود أعجز من أن تُعيد تمثيل مشهدٍ واحدٍ من قصة حبهما؟

t.me/qurssan

لماذا خنتُ ذكرى أبٍ لاعَبَني وحمَلَني على ظهره في طفولتي، ورافقني إلى السينما وملاعب البيسبول في مراهقتي، ثم شجَّعني على الزواج من براندون الطيّب عوض ملاحقة مايك الأخرق في شبابي؟

وكلّ هذا انطلاقاً من أحداث رواية مغمورة طواها النسيان ولم يقرأها حتى مواطنو مؤلّفها المجهول!

ولكنني روائية، وأكثر مَن يعلم بأنّ شجرة الخيال لا تنبت إلّا في تربة الواقع، وأنّ لكلٍّ منّا حديقة سرية تتصدّر بوابتها لوحة كُتِبَ عليها بحروفٍ كبيرة: ممنوع الاقتراب.

وحتى لو افترضنا خلوّ أحجية مغربية من سطر حقيقيّ واحد، لماذا اختار خالد رفيقي اسم ستيف ماكميلان؟

- ماذا فعلتِ يا كريستين؟ لولا فضوليو المقهى ممّن أدركوا اتّخاذك طريق ضفّة سبو لفقدنا أثرك!

جاء هتاف رشيد المفاجئ ليُعيد تثبيت قدمي على سطح الأرض، فأردفَ بوجهٍ محمرّ بعدما سعلَ وانقطعت أنفاسه من شدّة اللهاث:

- كان ذلك أسهل بكثير ممّا توقّعنا. كلّ العاملين في المقهى يعرفون البشير، أقدمَ نادلٍ هناك. يقولون بأنه شاخ كثيراً ولم يعُد قادراً على العمل، فتقاعد وظلّ حبيس منزله رفقة زوجته العجوز، بعد بلوغ معظم أبنائه سنّ الرشد وتفرّقهم طلباً للرزق. ألم أقُل لكِ بأنّ كلّ شيء سيكون على ما يرام؟

وتدخَّل صديقه خليل موضحاً:

- سنحتاج سيارة أجرة لأنّ العنوان بعيد قليلاً، لكنني أعرف الحيّ بلا شك. هيا بنا!

* * *

t.me/qurssan

من حوار سابق بين الصديقين زهير بلقاسم وسيرجي كرياتشكوف:

– ماذا تقرأ هذه المرة؟

– قصة قصيرة بعنوان الرهان لانطون تشيخوف، افضل من كَتَبَ القصة في روسيا وربما العالم، ويطرح فيها سؤالاً فلسفياً بالغ الأهمية. ما هي العقوبة الافضل: الإعدام أم السجن المؤبد؟

– سؤال مثير فعلاً، وكيف أجاب عنه الكاتب؟

– القصة هنا رهان بين مصرفيّ متبجّح وشاب يدرس القانون حول السؤال نفسه، يدفع بموجبه الاول مليونَي روبل للثاني إن تمكّن من البقاء في سجن انفرادي مدّة خمسة عشر عاماً.

– يبدو لي أنّ الروس شعب مهووس بالمراهنات، قرات الكثير عن لعبة الروليت الروسي، أن يقامر الإنسان بحياته ويربطها بساقية دوّارة في مسدس، هذا مرعب!

– يوافق الشاب ويدخل إلى الغرفة الصغيرة المحروسة. كانت البداية صعبة، إذ عانى من الوحدة والاكتئاب، لكنه درّبَ نفسه على التعايش مع الوضع، فدرسَ اللغات والأدب والعلوم وتاريخ الاديان، وتغيّرت نظرته لنفسه وللحياة بشكلٍ تام.

– وماذا جرى بعد ذلك؟

– مع مرور السنوات واقتراب موعد نهاية الرهان، تراجَعت ثروة المصرفي بشكلٍ كبير، وأدرك بأنّ دفع المبلغ يعني تعرّضه للإفلاس، ففكّر في التخلّص من المراهِن وقتله، وبالفعل زاره في غرفته، يوماً واحداً قبل الإعلان عن مرور خمس عشرة سنة كاملة على الاتفاق الاول، فوجده نائماً، لكنه عثرَ على رسالة مكتوبة، يحتقر فيها المراهن ما سماه الماديات الفارغة، ويقول بأنّ ما اكتسبه من معارف خلال السنوات السابقة أهم بالنسبة له من اموال الرهان. يصدم المصرفي بما قرأه، فيرحل. ليُخبره الحراس في اليوم الموالي بهرب المراهن الذي شعرَ ربما بأن حياته في خطر!

– لا تتسرع في إعادة النسخة إلى المكتبة، شوّقتني لقراءتها!

t.me/qurssan

- ألم أقُل لكَ بأنه لا أحد يكتب مثل الروس؟ حسناً، هل سمعت يوماً ببندقية تشيخوف؟

- كان يحتفظ ببندقية وعثروا عليها تحت سريره بعد وفاته؟

- لا طبعاً، هي قاعدة أساسية في الكتابة الأدبية، تنوّعت صيغها الحرفية، لكن معناها واحد، إذا ظهرت بندقية في بداية القصة، فلا بدّ أن يتمّ استخدامها في نهايتها.

- فهمت، هو يقصد بأنّ الكاتب مُطالب بتجنّب الإطناب، وحذف أيّ سطر أو حتى كلمة لا تخدم القصة في شيء.

- لو أردت رأيي لقلت بأنّ العبقري توارى خلف القصة ليقول إنّ العبث لا مكان له في قاموس الحياة، حتى وإن أصررنا على حشره بين صفحاتها لتفسير جهلنا!

* * *

t.me/qurssan

(12´) سيد العتمة

عندما يتدخّل القدر في مصائر البشر،
فلا مكان لشفقة أو عدل.

تشارلي تشابلن

الثلاثاء 12 نوفمبر 2002
مخفر شرطة في مكان ما - موسكو:

وكما توقعت، كانت وجهة سيارة الإسعاف بعيدة تماماً عن السكن الجامعي، وهو ما أدركته بحدسي، لعدم وجود نوافذ تمكّنني من متابعة مسارها في مدينة ضخمة بالكاد ساعدني سيرجي على معرفة بعض معالمها.

توقّفت السيارة في مكانٍ ما، فوضع الممرض والشرطي عصابة على عيني، ثم أجبراني على الوقوف، ليخترق أذني صوت تكّة مفتاح تبعها تحفّز جلد معصمي لملمس فولاذ بارد، لا تفسير له سوى تكبيل يدي بالأغلال، كما لو كنت مجرماً سفّاحاً أو إرهابياً خطيراً، لا ناجياً من حادثةٍ مرعبة كدتُ أفقد فيها حياتي!

أم أنّ مسلسل الرعب لم يكتب سيناريو حلقته الأخيرة بعد؟

شعرتُ بيدين قويّتين فوق المعطف المهترئ، تمسكان بكتفي

t.me/qurssan

لدفعي بغلظة عبر ممرّ طويل، وكدتُ أن أفقد توازني مع هبوطنا عبر درجات سلّم فهمت من دوراننا أكثر من مرّة أنه حلزوني الشكل ويقود إلى طابق أو قبوٍ تحت أرضي.

سيطرت الآلام المبرحة على أطرافي، فأنستني اصطكاك أسناني من شدَّة برد لم يفلح المعطف في منعه من النفاذ إلى عظامي، ثم جاء الخوف ليمحو كلّ ما سبق، مع وقوفنا أخيراً.

- أين أنا؟

قلتها بالإنجليزية، فلم يُجِبْني أحد، وعندما كرّرت السؤال ضغطت اليدان على كتفي بقسوة أشدّ لإجلاسي على كرسي أصدر صريراً خافتاً، ثم نزعوا العصابة عن عيني بحركة فجائية عنيفة.

وجدتني في غرفة صغيرة بإضاءة خافتة لا تكاد تُنير سوى مكان جلوسي، ورائي جدار بلون أبيض يميل إلى الصفرة، وبجانبي مكاتب صغيرة خالية إلّا من أكداس الوثائق والأوراق، وأمامي عدسة آلة تصوير يحملها شرطي ويصوّبها نحوي كفوّهة مَدفع.

قلت بصوتٍ مرتعش، محاوِلاً لملمة شتات أعصابي المحطّمة:

- ما الذي يجري هنا؟ وعَدتُم بإعادتي إلى السكن الجامعي، ما الذي تغيّر؟ لماذا تعاملونني هكذا؟ أنا لم أفعل شيئاً!

بدأ الشرطي بالتقاط الصور، فأخفيتُ عيني بيدي، عاجزاً عن تحمّل قوة الوميض الخاطف والمتكرّر، قبل أن أستسلم له، مدرِكاً بأنّ كلّ ذهول الدنيا قد احتشَدَ ليترك أثره على وجهي، من دون الحاجة لمرآة تؤكّد لي ذلك.

حافظَ الحاضرون، وهم شبيه تشيخوف الجالس خلف مكتبه، وشرطي آخر، بالإضافة إلى المصور، على برودهم، وبدا أنّ الجميع

t.me/qurssan

بفهم حقيقة ما يجري باستثنائي أنا، فهتفت بما يوشك أن يصبح توسّلَ عبد لسيده:

- أنا بريء ولا علاقة لي بما وقع في المسرح الملعون سوى أنني أتعس رجال الأرض حظاً، اسألوا أولغا كوزنيتسوفا إن كانت على قيد الحياة، وستُخبِركم بكلّ شيء. أبلغوا سفارة بلدي بوجودي هنا، أرجوكم!

بدا أنّ شرطي المستشفى هو الوحيد الذي يُتقن الإنجليزية، إذ افترّ ثغره عن ابتسامة مستهزئة، أتبعَها بإشارة من يده لزميله، فتحرّك الأخير صوبي ودفعَني نحو المكتب.

بالكاد أنارَ ضوء مصباح صغير سطح ومحيط مكتبٍ جلسَ خلفه شبيه القاصّ الروسي الشهير، وقد منَحَتْه الظلال هيئة صارَت أقرب إلى مصّاصي الدماء في أفلام الخمسينيات، فيما وقف الشرطي الآخر خلفي، ومدّ يديه بالمفتاح ليفكّ قيدي.

انهمكَ الجالس في تعبئة معلومات مطبوع باللغة الروسية، غير آبهٍ بوجودي، فانتقل بصري إلى الصور المثبتة على سبورة بيضاء خلفه، محاولاً التركيز مع تفاصيلها، رغمَ ضعف الإضاءة.

جثث مشوّهة ببشاعة لمشرّدين مرميين على الأرض المغطاة بطبقات من الثلوج، ثم صور لمروجٍ ومساحات شاسعة خضراء، تغطّيها أشجار طويلة لا أعرف اسمها.

أعلم جيداً بأنني رأيتُ هذا المكان من قبل، ولكن أين؟

لماذا أشعر بأنّ ذاكرتي مشوّشة، وأنّ جسدي سينهار في أي لحظة؟

بماذا حقَنني هؤلاء الملاعين في المستشفى؟

قَلَبَ الروسي المطبوع، ففهمتُ متأخراً بأنّ الأمر يتعلّق بورقة

t.me/qurssan

حالة جنائية، قام بملء خاناتها ومعلوماتها بنفسه، وبقي مربع الصورة خالياً، غالباً في انتظار تحميض الصور واختيار واحدة منها.

هنا أمسكَ الشرطي الثاني بيدي اليمنى وأجبرني على غمس أصابعي في الحبر ثم وضعها على الورقة، مكرِّراً الفعل نفسه مع يدي اليسرى، ليتكلّم الجالس خلف المكتب أخيراً:

- قد لا أتّفق مع أديبنا العظيم دوستويفسكي عندما قال على لسان إحدى شخصياته بأنّ الأجدر ألّا يولد في العالم بشر لا فائدة منهم. كنّا في ورطة قد تعصف بكلّ العاملين في إدارة الأمن بموسكو، ثم بعثكَ إلينا حظّك السيئ، ومعه استخفاف سفارة بلدك بك، كهدية من السماء!

* * *

t.me/qurssan

تفاصيل ما جرى في اللقاء مع البشير الطاهري، النادل السابق في حانة الأركاد، كما رواها رشيد بناصر:

أوصلتنا سيارة الأجرة إلى الحيّ، فقال سائقها:

– مضطرّ للتوقّف هنا، لن أتمكّن من التقدّم أكثر، فهذه الخيمة تسدّ المدخل كما ترون!

التفتت كريستين نحوي مستفسرة، فأجّلت ترجمة كلامه إلى ما بعد دفع الأجرة والنزول.

خيمة بيضاء كبيرة، يعرفها كلّ المغاربة، بزخارفها السوداء، ومزيج الأحمر والأخضر والأصفر داخلها.

خيمة لا غرابة في أن يستاجرها أحدهم لإحياء حفل زفاف يرقص ويغني فيه الجميع حتى الفجر، قبل أن تنتقل في اليوم الموالي إلى عائلة أخرى تبكي وتعدّد مناقب ميّت رحل على حين غرة.

هو تناقض عجيب، لا أعتقد بأنّ الأميركية ستفهمه.

فجأة قفزَت إلى ذهني خاطرة مرعبة...

ماذا لو كانت خيمة عزاء النادل؟

ألم يقُل عامل مقهى الأركاد بأنّ البشير شاخَ كثيراً، واعتلّت صحّته بعد تقاعده؟

ستنهار كريستين، وقد تسقط فاقدة الوعي، بعد القضاء على الأمل الأخير في الوصول إلى معلوماتٍ حول والدها وحقيقة ارتكابه جريمة قَتل قبل أربعين عاماً.

ستتدخل سفارة بلدها في الموضوع، وتتدحرَج الأمور نحو كارثة دبلوماسية، لن تجد الدولة سبيلاً لحلّها سوى بالتضحية بي أنا، ككبش فداء يدفع الثمن، و...

مهلاً...

كيف قادني خيالي الجامح إلى هذا التصوّر بالذات؟ هل أبالغ؟ أم أنّ العيش لربع قرن في بلد كالمغرب يعني التعوّد على توقع الأسوء في كلّ لحظة؟

t.me/qurssan

رفعت عيني نحو المنازل، فانتبهتُ لوجود أسلاك مزدحمة بملابس تقطر بمزيج من المياه ومساحيق التنظيف، كما تناغمت روائح المرق والخضر والدجاج مع أصوات صفّارات الطناجر وثرثرات نسوة غير آبهات بخصوصيتهن، لعزف سيمفونية كان بيتهوفن محظوظاً عندما أصيب بالصَّمَم قبل سماعها.

ثم انبعث من العدم جيش من الأطفال، أصغرهم بالكاد يتعلّم المشي، وقد يكون أكبرهم في العاشرة أو الحادية عشرة، أحاطوا بكريستين، كسجن الباستيل عندما حاصَرَه المحتجّون الغاضبون الذين أشعلوا شرارة الثورة الفرنسية.

ملأ الفضول أعينهم، فيما أخرستها الدهشة، فوزَّعَت عليهم ابتسامات ذاهلة، وأرسلت عيناها إشارات استغاثة، بعد عجزها عن تفسير ما يجري حولها، فتدخّل خليل لإبعادهم عنها.

سألت أحدهم، يرتدي قميصاً فَقَدَ لونه الأبيض منذ زمن طويل، وينتعل حذاء رياضياً ممزّقاً، بما سَمَحَ بظهور أصبعه الكبير:

– ماذا يجري هنا؟ أين يقع منزل عائلة البشير الطاهري؟

رمَقَني في شكّ، فهمت متأخراً أنه تقييم لمكاسب وقوعي في قبضته، عندما قال بحسم:

– خمسة دراهم!

– نعم؟

– خمسة دراهم، وأقودك إلى المنزل مباشرة!

نهرته فولّى هارباً، ثم تبعه الآخرون كقطيع خرفان فقَدَ الراعي سيطرته عليها، مع ظهور امرأة تقارب الأميركية في السنّ، ترتدي قفطاناً أخضر، وتخاطبنا باستخفاف:

– أنتما مستخدما ممونّ الحفلات، أليس كذلك؟ هيّا بسرعة! أين صناديق التفّاح والمشروبات الغازية؟

ثم تحوّل استفسارها إلى استنكار، مع انتباهها لوجود كريستين.

– ومَن هذه النصرانية الشقراء؟

t.me/qurssan

زفرت في ضيق، عالماً بأنها لن ترتاح إلّا بمعرفة أدقّ التفاصيل، لكنني تلذّذتُ بترك حبال رغبتها معلقة:

- نحن نبحث عن منزل البشير الطاهري، نريد مقابلته لشأنٍ يخصّنا.

أجبرها اكتفائي الواضح بما قلته على التوجّه إلى باب الخيمة، والتلويح بيدها نحو أحدهم، ليظهر بعد لحظات شخص يكاد يطابق صورة البشير الملتقطة قبل أربعة عقود.

ابنه بلا شك...

هتفت المرأة محتمية به:

- يبحث هؤلاءِ الثلاثة عن منزلنا، يقولون بأنهم يرغبون في رؤية أبي!

هي ابنته إذاً...

تفحّصنا بأعين خبيرة، كأيّ مغربيّ يحترم نفسه، ثم سأل بحدّة:

- مَن أنتم، وماذا تريدون من والدي؟

قلت له باختصار إنّ الأمر يتعلق بأميركية ترغب في سؤال البشير عن والدها الجندي السابق في القاعدة الجوية لأنه يعرفه، وتجنّبتُ الإشارة طبعاً إلى موضوع الرواية.

داعب ذقنه مفكّراً، كما لو كان يبحث عن حلّ معادلة رياضية بالغة التعقيد، ثم قال:

- كما ترَون، فالوقت غير مناسب تماماً، الخيمة غاصّة بالمدعوين، نتحفل باستعداد أبي وأمي للسفر إلى الديار المقدّسة بعد أيام قليلة لأداء مناسك عمرة رمضان.

شجّعني تردّده على الإصرار:

- اطمئنّ، لن يستغرق الأمر منّا سوى دقائق معدودة، نرحل بعدها بسرعة، وبلا أيّ إزعاجٍ يُذكر.

لانت أساريره، مدرِكاً بأنه لن يخسر شيئاً، فقال بصرامة، كجنرال يُصدر أمراً قاطعاً لكتيبته:

- لا، ستتناولون وجبة الغداء معنا. فوزية، اصطحبي الأميركية إلى غرفة النساء، أكرِميها فهي ضيفتنا، وأنتما اتبعاني.

t.me/qurssan

قالت كريستين بخوفٍ بعدما أمسكَت فوزية بذراعها، كحارسةٍ تقتاد السجينة إلى زنزانتها:

– رشيد، ماذا هناك؟

كتمتُ ضحكتي وأنا أجيبها:

– اطمئني، هم فقط سيمارسون معكِ عادتنا كمغاربة في إكرام ضيوفنا!

*

انشغَلَ معظم المدعوين بالثرثرة وشرب كؤوس الشاي، منتظرين وجبة الغداء، فيما اقتادنا الابن إلى طاولة كبيرة، توسّطها رجل يرتدي جلباباً ناصع البياض، وتمسك يده بارزة العروق بسبحة يمرّر حبّاتها بين أصابعه الرفيعة.

كان طاعناً في السن، تجاوز الثمانين على الأغلب. مرّت ثلاث وأربعون سنة على التقاط الصورة، ورغم ذلك لم يُضِف إلى وزنه كيلوغراماً واحداً، ولم يفقد سوى خصلات قليلة من شعره، مع تحوّل الشارب الرفيع إلى لحية بيضاء مشذبة.

همسَ الابن في أذنه، فاعتذرَ لمجالسيه، ثم نهضَ متّكئاً على عكازه، وتقدّم نحونا ببطء فرضه سنّه، ليسأل بصوت لاهث:

– علمت برغبة أحدهم في مقابلتي، ولم أتوقّع أنّ الأمر يتعلّق بشابين في مقتبل العمر، خيراً، ماذا هناك؟

أخرجت الصورة من جيبي، ثم قدّمتها له، فوضع نظارته المربوطة بسلسلة إلى صدره.

– من فضلك يا حاج، هل تتذكّر الموجودين هنا؟ نريد أن نسألك عن الجندي الأميركي ستيف ماكميلان، جاءت ابنته إلى المغرب لجمع بعض المعلومات عنه، ونطمع في قوة ذاكرتك لإفادتنا.

استمرّ صمته لما يفوق الدقيقة، لينهيه بصرامة مشابهة لنبرة ابنه.

– خالد، قدّم الشاي لضيوفنا.

ظلّ الابن واقفاً، فضرب الوالد الأرض بعكازه.

– هيا!

نفّذَ خالد الأمر على مضض، فهرع خليل للإمساك بيد البشير، والبحث عن مقاعد بعيدة لا تصلها آذان الضيوف.

t.me/qurssan

– كيف حصلتم عليها؟ لا استطيع تحديد التاريخ بدقّة، ولكنني متأكّد من مرور اكثر من اربعين عاماً على التقاطها!

– كان ذلك بالضبط سنة 1959.

اعتدل في جلسته، بما اكّد استعداده لطَرق ابواب قلعة مهجورة في ذاكرته.

– فليغفر لي الله حديثي عن تلك الايام، وأنا أستعدّ الآن لزيارة بيته الحرام. لم اكُن راضياً عن وجودي في ذلك المكان، وامتعاضي الواضح في الصورة خير دليل، ولكنها قسوة حياة يجهل عنها جيلكم كلّ شيء.

– تتوالى السنوات وتتغيّر الظروف يا حاج، وتبقى الحياة قاسية على كلّ مغربي لم يولَد وفي فمه ملعقة من ذهب، او رسم ولادة يحمل اسماً عائلياً يبدأ بحرف باء مقدّس.

قالها خليل فابتسمتُ، فيما فضّل البشير تجاهل التعليق ومتابعة كلامه:

– تحوّلت القنيطرة في العهد الاميركي إلى مدينة لا تنام. كانوا مولَعين باللهو، يغادرون القاعدة ويزحفون إلى المدينة كالجراد، ليملؤوا حاناتها ومقاهيها وقاعاتها السنمائية.

اومأت براسي مؤيداً، مع تذكّري لبعض ما وصفه زفزاف ورفيقي في روايتيهما...

– هل كنتَ على تواصل مباشر مع ستيف ماكميلان؟

– هي اوّل مرة اسمعُ فيها باسمه العائلي، ولكنني اتذكّره لانه زعيم شلّته، شاب حيوي متحمّس، يقود أصدقاءه الستّة في عبثهم وعراكهم الدائم مع اميركيين آخرين ومغاربة، يسكرون ويلعبون القمار ويطاردون العاهرات داخل الحانة وخارجها، استغفر الله العظيم...

تسارع تمريره لحبات السبحة بين أصابعه، فانقذته من الحَرَج بإطرائي:

– ذاكرتكَ ممتازة يا حاج، لذلك ساطمع في إجابات أخرى، هل كان ستيف شخصاً عدوانياً؟

هزّ يده بلا مبالاة لإخفاء زهوه، ثم أجبَرَ ابنه على الابتعاد بعد تقديمه كؤوس للشاي.

t.me/qurssan

- هي أيام يصعب نسيانها. لم أكُن أحبّ مبالغات الشلّة، هم كما ترى في الصورة، ثيران مطمئنة لقوّتها، يُعربدون كما يحلو لهم، ولا يخشون أحداً باستثناء دوريات شرطتهم العسكرية، ولكن ستيف لم يكُن شريراً أو عدوانياً، بل كريماً جداً، معي أنا على الأقل، مرّة بعض القطع النقدية، ومرّة نظارات شمسية أو ساعة يدوية لم يعُد بحاجة إليها، بل وتدخّل ذات مرة ليُنقذني من إصرار صديقه المغربي المغرور على ضربي لأنني تأخّرت في إحضار طلبه.

تزامن اشمئزازي من طعم الشاي المثير للغثيان مع سماعي لعبارته الأخيرة، فهتفت:

- تقول صديقه المغربي! كيف؟

- سليمان بلعربي، غفر الله له، كان نموذجاً مثالياً لابن العائلة الثريّة المدلّل، ودائم التردّد على الحانة، يستمتع بنفوذ والده ولا يُفارق الأميركيين للحظة، معتقداً أنّ ذلك يمنحه قيمة إضافية. للأسف الشديد، كانت نهايته كارثية، ويبدو أن لعنة لاحقت أسرته الصغيرة أيضاً.

دقّ قلبي بقوة، فوجدتني خاضعاً بدوري لذلك الفضول المغربي المعتاد، عندما تساءلت:

- ماذا جرى؟

ابتسمَ بطريقة أفهَمَتْني أنّ السد المنيع لذكرياته قد انهار، ما جعله راغباً في كشف المزيد:

- بدأ الأمر بجريمة اهتزّت لها المدينة وتناقَل الجميع تفاصيلها، في وقتٍ لم تكُن فيه الجرائم البشعة طقساً شبه يومي. تمّ العثور على زوجته مليكة الفاروقي، وهي ابنة عائلة ثرية أيضاً، مقتولة في بيتها، كان سليمان هو المتّهم الوحيد، استناداً لما قيل عن سوء العلاقة بينهما، وشكّه في سلوكها، وعندما حاولت الشرطة إلقاء القبض عليه هربَ بسيارته، ثم لقيَ حتفه في المطاردة بعد اصطدام سيارته بشجرة.

أشعَرَني احتشاد المعلومات الجديدة داخل جمجمتي الصغيرة بالدوار، فقلتُ باهتمام:

- هل سبقَ وأن رأيتَ جمي..مليكة الفاروقي؟ لدي صورة وأتمنى أن تتعرّف عليها إن أمكَن.

t.me/qurssan

قرَنْتُ قولي بالبحث في حقيبتي عن الصورة التي عثرَت عليها كريستين في دنفر، فخابَ ظنّي مع ردّه:

– لا، سمعت عنها فقط. لم أقابلها ولا أعرف شكلها للأسف.

– ربما ظهرَت صورتها في صفحات الحوادث بجرائد تلك الأيام!

داس خليل على قدمي لكبح جماحي، فيما طأطأ البشير رأسه قائلاً بهمسٍ خجول:

– لم أكُن أقرأ الصحف لأنني أميّ يا بنيّ!

أغلقتُ حقيبتي مستسلماً، واستعادَت نبرتي هدوءها مع سؤالي:

– طيب، وماذا عن صداقة صالح، معذرة، أقصد سليمان، مع ستيف ماكميلان؟

أجابني، وقد ركّز نظره على كأس شايه الفارغ:

– كانت تجارة التهريب مزدهرة، القاعدة كبيرة جداً وتموينها ضخم للغاية، الاميركيون يبيعون كلّ شيء، الطعام والملابس والأجهزة المنزلية، وقد يضطرّ السكير والمقامر منهم إلى التخلص من متعلقاته الثمينة بأبخس الأثمان لتعويض خسائره. لم يكُن التجار المغاربة ليفوّتوا فرص عقد صفقات معهم، ولا أشكّ في أنّ سليمان كان واحداً منهم، وربما عمل ستيف كوسيط، أتكلّم فقط من منطلق ما عاينته في الحانة وتكرُّر لقاءاتهما فيها، ولا عِلْمَ لي بتفاصيل أخرى.

ختمت جملته اللقاء، فنهضتُ لتحيتّه والاستعداد للمغادرة، متجاهلاً احتجاجاً صامتاً من خليل الذي ينتظر وجبة الغداء، لتُجبرني فكرة ملحّة راودتني ليلة أمس على طرح سؤال حذر:

– معذرة يا حاج، قلت بأنّ لعنة لاحقت الأسرة، هل كان لهما أبناء؟

استند البشير مرة أخرى إلى يد خليل ليساعده على النهوض، وقال:

– نعم، ابن وحيد في الخامسة، لا أعرف اسمه، لكن المدينة كلها علمت وقتئذٍ بمأساته. يُقال إنه رافَقَ مربيته العجوز إلى أحد الدواوير، بغية إبعاده عن الأجواء الحزينة لوفاة والديه، غير أنّ حريقاً مَهولاً التهمَ الضيعة التي يملكها جدّه هناك، وكانت المربية ضمن الضحايا. أخمد الحريق ولم يَعثر أحد على جثّة الطفل، وبقي مصيره بعد ذلك مجهولاً!

t.me/qurssan

– هل تعرف أو سمعت وقتها باسم هذا الدوار؟

جاء الرّد صادماً، وإن توقّعه صوت خفي تردّد صداه في أعماقي منذ الأمس:

– نعم، دوار الحاج قدور، وأعتقد بأنه قريب من مدينة مكناس!

* * *

t.me/qurssan

(13) البحث عن الزمن المفقود

الأدب هو موهبة أن نحكي حكايتنا الخاصة كما لو كانت تخصّ الآخرين، وأن نحكي حكايات الآخرين كما لو كانت حكايتنا الخاصة.

أورهان باموق

الاثنين 28 أكتوبر 2002
شارع فرنسا - الرباط:

تلاعبتُ بالسيجارة بين يدي، من دون رغبة حقيقيّة في إشعالها، فيما عاد ذهني لوضع احتمالات لما ستكشفه الأيام أو حتى الساعات القادمة، استناداً إلى ما قدَّمه البشير بلعربي من معلومات جديدة دفعت بالقضية نحو مسارٍ آخر.

كان من المفروض أن يريحني ما سمعته من فَم رشيد، فقد نَقَلَ النادل المتقاعد كلّ ما يعرفه عن أبي بوضوح شديد، متحدِّثاً عن سهراته الصاخبة رفقة زملائه، وميلهم للهو والعبث، نافياً عنه صفة العدوانية، بل ومؤكِّداً طيبته وكرمه.

والأهم بالنسبة لي طبعاً هو عدم وجود علاقة بينه وبين الجريمة التي اختلفت بعض ظروفها عمّا ورد في رواية أحجية مغربية.

t.me/qurssan

لكن الشكّ لم يرحمني...

لماذا أصرَّ مؤلف الرواية على الربط بين جريمة قتل جميلة أو مليكة، والجندي ستيف ماكميلان؟ ولماذا غيَّر كلّ الأسماء، وبعض الأحداث، واحتفظ باسم أبي، ناسجاً حبكة متشابكة الخيوط، تخيلها واقعي، وواقعها أقرب إلى الخيال؟

حسناً، أليس روائياً ومن حقّه أن يفعل بحبكته ما يريد؟

أطلَّ رشيد من باب المطعم، قاطعاً حبل أفكاري بابتسامته، فتبادلتُ معه التحية بضربتين خفيفتين بقبضتينا كمراهقين عابثين، جلسَ بعدها على المقعد المقابل.

- بحثتُ عنك في الفندق فأخبرني أحد زملائك بخروجك مهرولاً قبل الخامسة مساء، أين كنت؟

لم يُجِب، فأردفت:

- موعد غرامي؟

تحوَّلت ابتسامته إلى ضحكة، وتظاهَرَ بتصفّح قائمة الطعام بانبهار كوميدي، ليقول بعدها مراوِغاً:

- كنت أستعدّ نفسياً لدعوة العشاء باعتبارها تجربة غير مألوفة بالنسبة إلى فقيرٍ مثلي. سنوات طويلة، التهم فيها عقلي ما يعادل مائة ضعف ما التَهَمَته معدتي، ومع ذلك أعجز عن فكّ رموز المكتوب في قائمة المأكولات بمَطعم مغربيّ فاخر. أنا محظوظ جداً بتعرُّفي على روائية أميركية مرموقة، أصبحتُ بفضلها قادراً على الدخول إلى أماكنَ فخمة كهذه!

بادله الضحكة، محاولة تقمّص أسلوبه في الردّ:

- وأنا لم أفهَم حتى الآن سبب كرم تلك العائلة معي، لا يعرفونني، وكانت استحالة التواصل بيننا مثيرة للسخرية، لكن زوجة

t.me/qurssan

البشير حمّلتني كيساً مليئاً بالمكسّرات والفواكه ومعها قنينة عطر تقليدي وقفطان جميل يُدهشني أنه مناسب لمقاسي بالضبط!

تسلّل الخُبث إلى نبرته مع قوله:

- نساؤنا خبيرات بهذه الأمور، نظرة خاطفة واحدة قادرة على منافسة دِقّة آلة تصوير متطورة!

لامست طرف الطاولة بأصابعي، باحثة عن كلمات مناسبة للاعتذار، لأهمس بخجلٍ بعد صمتٍ لم يَدُم طويلاً:

- أردتُ التعبير عن أسفي بطريقة لائقة، ففكّرت في دعوتكَ إلى العشاء. نبّهتني لشكوكك حول علاقة ممكنة بين الرواية وأستاذ الرياضيات فنهرتكَ، وجاءت تصريحات البشير لتُثبت ذكاءك وبُعد نظرك.

قال ببساطة مَن لا ينتظر الإطراء:

- كلّ ما في الأمر أنني راجَعتُ تفاصيل الرواية وما رواه الناشر عن زيارته لمكناس والدوار، فانتبهت لارتكابنا خطأً فادحاً، عندما تجاهلنا وجود طفل في الخامسة من عمره، هو ابن صالح وجميلة، لم يكُن له أيّ دور في أحداث الرواية، لكننا لم نتساءل عن مصيره بعد وفاة والديه، ثم نشرت الصحيفة خبر اختفاء أستاذ رياضيات في منتصف الثلاثينيات من عمره، عام 1988، أي بعد مرور ثلاثين عاماً تقريباً على أحداث الرواية، فربط ذهني بين الجزئيتين بسرعة، وسألت البشير فذكر دوار الحاج قدور، بما أكّد ملامستي جدران الممرّ الصحيح منذ البداية.

ولم يكتفِ بما قاله، مضيفاً بعد بضع ثوان:

- ولكن هذا الاكتشاف لا يثبت أيّ شيء حتى الآن...

t.me/qurssan

انتظرتُ انسحاب النادل الذي وضَعَ الأطباق أمامنا، لأقول:
- فعلاً، إذا كان الابن المفقود قبل ثلاثين عاماً، وخالد رفيقي مؤلّف أحجية مغربية، ورفيق خالدي أستاذ الرياضيات شخصاً واحداً، فعلامات الاستفهام ستتكاثَر هنا كالفطر، ما علاقة الطفل بمكناس؟ وكيف عادَ إلى دوار الحاج قدور سنوات طويلة بعد اختفائه؟ وكيف عَلِمَ بأدقّ تفاصيل ما جرى لوالديه؟ ولماذا تلاعب بالأحداث؟ ولماذا تكتَّمَت عائلة أستاذ الرياضيات عن حقيقة أصوله واستبعدَ صديقه إمكانية تأليفه رواية؟

فَرَدَ رشيد منديلاً ورقياً أمامه، وبحثَ عن قلمٍ في حقيبته، مجيباً:

- حاولتُ البحث عن إجابات ولم أفلح، شيء واحد أستطيع الجزم به، وله علاقة بسؤالك الأخير: عائلة رفيق خالدي وصديقه سمير قاسمي كذبوا على الناشر في تصريحاتهم، وربّما لهما دور معين في اختفائه، ولا أستبعد نشرهما إعلان البحث عن مفقود فقط لإبعاد الشبهة عنهما، ملاحظة أخرى قد تكون مجرّد شطحة عقل مولَع بوَضع الاحتمالات: الفرق بين تاريخ ولادة الطفلة التي حمَلَتها لبنى بين يديها في 20 مايو 1989، وتاريخ اختفاء رفيق خالدي هو حوالي تسعة أشهر. لم أتخلّص حتى الآن من سطوة إحساسٍ يقول بأنّ لبنى هذه تحمل بين يديها مفتاح لغز الاختفاء وربما حلّ القضية كلها.

ملتُ بجذعي نحوه، فانتبهتُ لرسمه جدولاً سريعاً على المنديل الورقي:

t.me/qurssan

الحقيقة	الخيال
مليكة الفاروقي	جميلة البارودي
سليمان بلعربي	صالح بلقاضي
مقتل الأم في منزلها	العثور على جثتها في النهر
اتهام الزوج مباشرة	الشك ثم الاتهام
لا علاقة للأميركي بالقضية	الأميركي هو قاتل الزوجين

- ما هذا؟

- أرتّب أفكاري، وأحدّد أوجه التشابه والاختلاف بين ما وَرَدَ في أحجية مغربية وما سمعته من البشير، وأحاول ربطه بما كتبته في مذكّرة لخّصتُ فيها ما رواه محسن الفاضلي عن محاولته تقفّي أثر أستاذ الرياضيات المفقود.

تلذّذتُ بطعم السلطة، عاجزة عن تجاهل شعور حقيقي بالإعجاب تجاه الشاب المغربي المنهمك في مراجعة أوراقه وملاحظاته بتركيز، متناسياً الأطباق الشهية والمتنوّعة أمامه.

لقد أخطأ قبل قليل، فكلّ نساء العالم يمتلكنَ أعيناً خبيرة، بدقّة آلات تصوير متطوّرة، وليس المغربيات فقط...

حذاؤه قديم، ويبدو من آثار المسامير في نعله أنه أجبرَ على إصلاحه أكثر من مرّة، عوض شراء حذاء جديد.

سترته الجلدية مقلّدة، بهتَ لونها الأسود، ولم يغيِّرها طوال لقاءاتنا السابقة، لكنها نظيفة، مما يدلّ على اعتنائه بها قدر المستطاع.

t.me/qurssan

قميصه المخطّط وسرواله الأزرق مكويان، لكنهما غير مناسبين لبنيته النحيفة.

حقيبته مهترئة، قد يتمزّق حزامها الأيسر في أي لحظة، ولا تفارقه أبداً.

يظهر الإرهاق على ملامحه، فهو لم يحظَ بقسطٍ من الراحة منذ لقائه بي، لكن عينيه تبرقان بحماسٍ يعينه على متابعة تطورات القضية معي، كما لو كانت قضيته هو.

كنت ممتعضة في البداية من سوداويته ويأسه، ثم تحوّل تبرّمي إلى تعاطف...

ما حجم مشكلتي أنا إذا ما قورنَت بمعاناته هو وأمثاله؟

جاء من منطقة نائية للدراسة في الجامعة، تفوَّق على زملائه، واصَلَ مساره بنجاح، ثم وجَدَ نفسه مجبَراً على العمل كخادم غرف في فندق يتحمّل الضغوط ويصبر على إهانات مديره الذي يهدِّده بالطرد، ليُعين أسرته مادياً، واصطدم بأستاذ مشرف ربما لم يقرأ الرواية المقترحة أصلاً، ويضع أمامه العراقيل عوض تشجيعه ومساعدته...

كان خليل شجاعاً عندما مزج الجدّ بالهزل، واقترح عليّ البحث عن طريقة لمساعدة صديقه على مغادرة بلدٍ لا يبدو أنه سيُقدِّر أمثاله.

ويا له من ظلم، أن يُجبِرَ وطنٌ أبناءه على كراهيته والبحث عن ربع فرصة لتَرْكِه...

- متى سنسافر إلى مكناس لمقابلة عائلة أستاذ الرياضيات وصديقه؟

طرحتُ السؤال في محاولة لانتزاعه من شروده، ودفعه إلى تناول طعامه، فأجابَ من دون رفع عينيه عن الأوراق:

t.me/qurssan

- لسنا بحاجة ذلك، فلن تختلف أجوبتهم عمّا قالوه قبل أربعة عشر عاماً للناشر...

كتمتُ انزعاجي من لا مبالاته، مواصِلَة:

- لا نملك خياراً آخَر، أتفهَّم رغبتك أو ما تسميه إحساسك المرتبط بلبنى زوجة سمير قاسمي، ولكنكَ لن تصلَ إليها إلّا عن طريقه!

وضع قلمه على الطاولة، مستسلماً لما أظنّه فشلاً في حلّ معضلة عويصة لم تنجح خطوطه وأوراقه في استيعابها، ولم تنقل نبرته أيّ اقتناع مع ردّه:

- حصلتُ على عنوانها، هي مقيمة بالرباط...

فغرتُ فاهي مصدومة، فهتفتُ بانفعال:

- رشيد، أنتَ تخفي عني شيئاً ما، أين ذهبت في الخامسة؟ تكلَّم!

- إلى الكلية للتأكُّد من معلومة معيَّنة برزَت فجأة من العدم لتشرح كلّ شيء، وتقلِب مسار بحثنا رأساً على عقب.

دفعتُ مقعدي إلى الوراء ونهضتُ، مشيرة إلى النادل بيَدي اليمنى لأداء الحساب.

- هيا بنا إذاً، وذكّرني بمعاقبتك فيما بعد على تلاعبكَ السخيف بأعصابي، فأنت...

فاجأني تردّده، فبَترتُ جملتي وتساءلت:

- ماذا تنتظر؟

قال بعد تردُّد طويل:

- آسف جداً، ولكن المعلومة الجديدة قد تقودنا إلى تورّط

t.me/qurssan

والدكِ في كارثةٍ منسيّة، أجهَزَت على أرواح آلاف المغاربة، ودمَّرَت مستقبل عشرات الآلاف غيرهم. . .

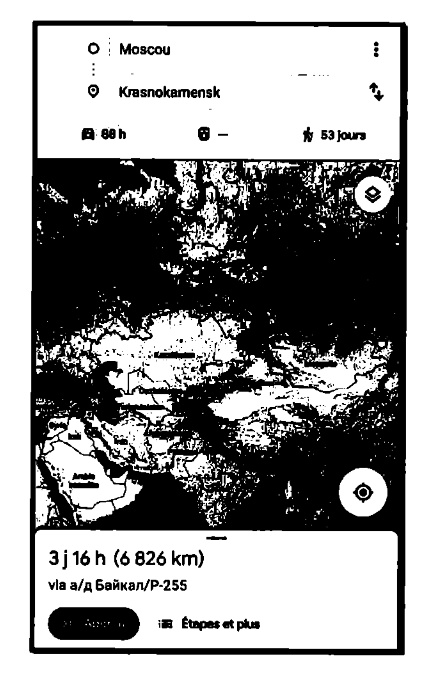
ولم أكَد أستوعب هَول عبارته حتى عاجَلَني بضربةٍ أخرى:

- وكان مؤلّف رواية أحجية مغربية أحد ضحاياها. . .

* * *

t.me/qurssan

المسافة بين موسكو ومدينة كراسنوكامنسك (سيبيريا) كما يقدّمها موقع Google Maps:



t.me/qurssan

(13´) طيف ألكسندر ولف

حقاً يا رفاق! لماذا نبقى هنا؟ ماذا نفعل هنا؟ إننا نحيا بلا حياة، إننا أموات بغير موت.

فيودور دوستويفسكي

الخميس 1 يونيو 2006
ضواحي كراسنوكامنسك- سيبيريا:

تمضي الأيام والشهور والسنوات، ويجد الإنسان نفسه معتاداً على كلّ شيء.

كل شيء...

ضرب أحد الحراس بعصاه على البوابة الحديدية، مُعلناً عن انتهاء استراحة الغداء، فابتلعتُ ما تبقّى من كسرة الخبز، ناظراً بسخرية مريرة إلى صحن الحساء البارد، ثم نهضت ببطء، متخذاً موقعي بين صفوف السجناء العائدين إلى المهجع الفسيح.

وقفتُ أمام المرآة المكسورة في المرحاض، فطالعني وجه يستحيل أن يكون صاحبه في الثالثة والعشرين من عمره فقط.

t.me/qurssan

عينان غائرتان، وجنتان بعظام بارزة، شفتان متشقّقتان، وزغب متناثر قد أتنازل وأطلق عليه اسم اللحية تجاوزاً.

حملت سطل المياه بيد، والمكنسة بيد أخرى، واضعاً المنشفة على كتفي، ثم بدأتُ عملي.

أربع سنوات، بدَت كأربعة قرون، أدفع فيها ثمن جرائم لا تربطني بها أي علاقة، وأعيش واقعاً لا يمكن لأيّ عاقل أن يُطلق عليه اسم الحياة.

والتهمة؟

أنني إنسان بلا قيمة، أراد الروس التخلّص من صداع سلسلة جرائم وحشيّة أقضت مضجعهم، فلم يجدوا أفضل منه لإسكات سكان موسكو الغاضبين، مستغلين ما جرى في حصار مسرح دوبروفكا لحَبْك خطّة ثعلبية لم يكُن ليتفتّق عنها إلّا ذهن شيطان رجيم.

نظّفتُ المراحيض بسرعة، متجاهلاً شعوراً عارماً بالغثيان، مكّنتني السنوات الماضية من التآلف معه، فصرت قادراً على المواصلة من دون وضع يدي على أنفي، اتّقاء لنتانة روائح بقايا ما أفرغته أمعاء لا تستقبل سوى الخبز والحساء طعاماً لها.

عندما شاركتُ في مسابقة الشطرنج بحديقة بيتسا بارك، تحدّثت أولغا ومعها سيرجي عن جرائم غامضة يذهب ضحيتها بعض المتشرّدين، ممّن يُعثر على جثثهم المشوّهة بالطريقة نفسها، في بعض الأماكن المظلمة من الحديقة، وبلغَ عددهم مستوى قياسياً، عجزت معه الشرطة الروسية عن فعل شيء.

ثم أتيتُ أنا لإنقاذهم من ورطتهم. . .

عدت إلى سريري مرهقاً، وتلحّفت بالغطاء، رغم الانفراج

t.me/qurssan

النسبي في درجات الحرارة، وتجاوزها للصفر ببضع درجات، مستخرجاً عدّة قصاصات تمكّنت من جمعها بصبرٍ وأناة طوال السنوات الماضية، ومصدرها صحف يتخلّص منها بعض حراس السجن بعد قراءتها.

تعامَلَت السلطات الروسية معي في البداية كأحد ضحايا المسرح، ولكن فقدان أوراقي الثبوتية، وجهل السفارة المغربية بوجودي في المكان، حرَفَ مصيري نحو مسارٍ آخر...

أن يتمّ إجباري على ارتداء أسمال بالية، والتقاط عدّة صور لي، والتلاعب قليلاً بملامحي ببرامج الحاسوب المتطورة في مخافر الشرطة، ثم الإعلان رسمياً عن إلقاء القبض على سفّاح الحديقة، والقول بأنه متشرّد روسي لا عائلة له ولا معارف، يخترعون له أيضاً اسماً وهمياً لا وجودَ له...

وهكذا تحوّل زهير بلقاسم إلى ألكسندر جازدانوف بجرّة قلمٍ بسيطة!

ظللتُ حبيس السجن السرّي في مخفر شرطة موسكو، حيث هدأت الأوضاع بسرعة، وتوقف الضغط الشعبي، وعادت الحياة إلى طبيعتها في بيتسا بارك وموسكو بشكلٍ عام، كما لو أنّ شيئاً لم يكُن...

طبعاً، ففي نهاية المطاف، ارتبط خوف الناس بقدرتهم على التجوّل بأمان، وزيارة معلمة طبيعية يحبّونها، أمّا القتلى فكلّهم متشرّدون لا يهتمّ أحد لأمرهم بالأساس!

ورغم ذلك، أعدّت الشرطة عدّتها لكلّ الاحتمالات، خشية دخول الصحافة على الخطّ، وقالت إنّ الأمر يتعلّق بقاتلٍ متسلسل لن يظهر أمام وسائل الإعلام إلّا بعد التحقيق معه وإنهاء الإجراءات

t.me/qurssan

المتّبعة، قبل تقديمه للعدالة، لكي تقول المحاكم الروسية كلمتها، واكتفت بنشر واحدة من الصور الملتقطَة في المخفر، رأيتها فيما بعد على صدر إحدى الصحف، فكدتُ أجزم بأنها ليست لي، رغم تذكّري لأدقّ تفاصيل وظروف التقاطها!

كانت محاولة ذكية لكَسب الوقت وامتصاص غضَب الناس، فإمّا أن تضع الشرطة يدها على المجرم الحقيقي في أقرب فرصة وتُغلق الملفّ، أو أن يرتدع هو ويتراجع عن أفعاله.

ولم يستغرق إيمانهم بالخيار الثاني سوى شهرين فقط، إذ عثر شخص ما على جثة أخرى...

تبعتها ثانية...

وثالثة...

وانفجرت القضية مرة أخرى، لتضعهم أمام خيارين كلاهما أسوء من الآخر:

إذا ما أعلنوا عن مقتلي داخل السجن، منتحراً أو مسموماً، فسيَفهم الجميع بأنهم تخلّصوا مني لمداراة فضيحتهم.

وإذا ما أفرجوا عنّي فعلياً، فمن الطبيعي أن ينكشف كلّ شيء عن هويتي الحقيقية.

لقد بدا جلياً أنّ الشرطة تُواجه مجرماً نرجسياً، لم يتقبّل ما فعلوه، بإعلانهم إلقاء القبض على شخصٍ آخر، فأرادَ إثبات وجوده واستمراريته، ودائماً بالطريقة الدموية نفسها، كتوقيع خاصّ يميّزه عن غيره.

ضربة قاتلة في الرأس بمطرقة أو زجاجة فودكا...

وهكذا ادّعوا إفراجهم عنّي بلا مقدّمات، مقرّرين حقيقة إبعادي

t.me/qurssan

عن موسكو، ونقلي إلى سجن آخر، وهناك لن يعرفني أو يهتمّ لأمري أحد...

سجن محصّن، يُطلق عليه اسم G 14/10، في ضواحي مدينة كراسنوكامنسك بسيبيريا الشرقية، على بُعد أكثر من سبعة آلاف كيلومتر عن موسكو، وقريب جداً من الحدود مع الصين.

أو نهاية العالم إذا كنتُ أكثَر دقّة...

- ألن تفارق تلك القصاصات؟ أنت تضيّع وقتك بلا طائل!

التفتّ نحو الرجل الأصلع مجيباً:

- صارَ الأمر أشبه بهواية أسلّي بها نفسي يا فاسيلي، أن أتابع تطورات قضية سفاح بيتسا التي لم تجد طريقها إلى الحلّ حتى الآن، مع إدراكي بأنّ ذلك لن يفيدني بشيء، سأعيش وأموت وأدفن هنا...

ثم أضفتُ بمرارة:

- مرّت أربع سنوات، آمنتُ خلالها بأنّني شبح، طيف لا وجود له، ولا يهمّ أحداً مصيره أو مستقبله، ربما جاءت أمي بنفسها إلى روسيا للبحث عني بعد اختفائي، ولكن المنطق يقول بأنها لن تَعثر عليّ أبداً...

لم يعلّق، فشعرتُ برغبتي في المواصلة:

- عندما اخترعَ شرطي موسكو اسم ألكسندر جازدانوف، لم يَدُر بخلدي أبداً أنه اسم مركّب إلّا بعد قضائي عاماً ونصف العام داخل أسوار السجن، وما زلت حائراً حتى الآن، هل كان اختلاق الاسم مصادفة، أم أنّ الشرطي الماكر والعارف بتفاصيل حكايتي تعمّد ابتكاره...

- كيف؟

t.me/qurssan

- جايتو جازدانوف روائي روسي، ألّف رواية بعنوان طيف ألكسندر ولف، تتحدّث عن. . .

قاطعني بحماس مَن يريد استعراض معارفه:

- آه نعم، قرأتها في شبابي، ورأيت النسخة الموجودة في مكتبة السجن، تتحدّث الرواية عن شخص يقتل جندياً ويسرق حصانه خلال الحرب الأهلية الروسية، تمرّ الأعوام، وينتقل الراوي إلى باريس، وهناك يكتشف وجود كتاب لمؤلِّفٍ يدعى ألكسندر ولف، يتناول تفاصيل الحادثة بالضبط، لكن من وجهة نظر الضحية، فيبحث عن مؤلف الكتاب ويجده ويدرك بأنه غريمه القديم، لتبدأ هنا اللعبة النفسية الحائرة بين الواقعي والمتخيّل في مصيرهما!

ابتسمت قائلاً:

- لكَ أن تتخيّل بأنه الشعور نفسه الذي سيطر عليّ منذ اقتحام مجموعة بارايف المسلحة لخشبة المسرح، أو ربما منذ استسلامي للرغبة في ملاحقة أولغا وإغوائها للحصول على نسخة رواية بطل من زماننا لميخائيل ليرمنتوف، هل أنا إنسان حقيقي، أم شخصية في رواية كغريغوري بيتشورين أو ألكسندر ولف؟

ردّ بأسفٍ صادق:

- كان بودّي أن أمنحك أملاً ولو ضعيفاً، لكن ثِقْ بي، أنا روسي وأعرف جيداً كيف تسير الأمور هنا، قصّتكَ معقّدة، وقد تبقى هنا إلى الأبد. لولا معاناتي مثلكَ من الظلم لما صدَّقتُ حرفاً واحداً ممّا حكيته لي، منذ اعتدائك على الخادمة المسكينة في المغرب، إلى حين وصولك إلى كراسنوكامنسك.

قلتُ باستخفاف، متابعاً عينيه المتوقّدتين:

t.me/qurssan

- أنت ستُغادر المكان بعد أسابيع قليلة، حكموا عليك بخمس سنوات فقط. ستَنسى كلّ شيء بسرعة...

- وهل تعتقد بأنني سعيد بذلك؟ لقد دمَّروا مستقبلي المهني تماماً، صحافي اخترتُ قول الحقيقة والتعبير عن رأيي بحرية، فأعاقب على كتابتي مقالاً أنتقد فيه طريقة تعامل السلطات مع أزمة غواصة كورسك، وتسبُّبها بمقتل أزيد من مائة وثمانية عشر جندياً، بعد تقاعسها عن قبول مساعدات بريطانية ونرويجية لإنقاذهم، فقط لأنها غواصة نووية لا يجدر بالأعداء الوصول إليها، هل حياة إنسانٍ واحدٍ أرخص من هذه الأسرار التافهة أم...

تذكرت إشارة أولغا لمقتل والدها ضمن طاقم الغواصة الشهيرة، فيما قطع هو كلامه مع مرور رجلٍ في الأربعين، حليق الوجه، تتداخل الخصلات الرمادية مع نظيرتها البيضاء والسوداء في شعره، يضع نظارات صغيرة، ويرتدي بذلة رياضية متناسقة مع بنيته القوية.

ويمشي بثقة مَن لا يعنيه وجوده معنا هنا...

هزّ رأسه نحونا بتحية مقتضبة، بادلتها أنا بحركة مرتجلة مضطربة، فمالَ فاسيلي نحوي هامساً:

- أنت تعرفه طبعاً، ميخائيل بوريسوفيتش خودوركوفسكي، ملك البترول وأغنى رجل في روسيا، هل تعلم سبَب وجوده معنا هنا؟

- يُقال بأنه محكوم منذ العام الماضي بقضاء ثماني سنوات سجناً، في جريمة تهرُّب ضريبي.

مطَّ شفتيه مستهزئاً:

- كلام فارغ، لقد تجرّأ على دعم بعض معارضي بوتين، فعاقبه

t.me/qurssan

برميه في سيبيريا، ولكن كما ترى، نفوذه يسري على الجميع، ويبدو مَقامه هنا أقرب إلى العطلة منه إلى السجن.

لم يُجانب فاسيلي الصواب في كلامه.

وهو ما استوعبته منذ أول يوم لي هنا...

تسير الأمور في سجن كراسنوكامنسك وفق نظامٍ طبقيّ، فعلى رأس الهرم تأتي فئة يطلقون عليها اسم الكرمليِن، قد يكون خودوركوفسكي أبرز المنتمين لها، وهم لَفيف من الأثرياء أصحاب النفوذ، ممّن يُصدرون أوامرهم المُطاعة بلا نقاش، وتعتمد عليهم الإدارة لحفظ النظام في السجن. تتبعهم فئة البلاتني، وهم رجال عصابات لهم علاقاتهم داخل السجن وخارجه، وبعدهم الموجيك، ومعظمهم رجال تسمَح قواهم البدنية بالاعتداء جسدياً أو حتى جنسياً على الأوبوشتشينيين، الفئة الذليلة والأضعف، بالاستيلاء على الطرود التي يبعثها أهالي السجناء المغلوبين على أمرهم، وتقسيمها فيما بينهم كما شاؤوا.

كنت أنتمي طبعاً إلى الفئة الأخيرة، فأنا لا أمتلك نفوذاً أو قوة بدنية، ولولا سريان همهمات بين الجميع حول ارتكابي سلسلة جرائم بشعة في هذا العمر الصغير لاعتدوا عليّ بطريقة أخرى.

أن تفرض هيبتك، بحسب درجة وحشية ما اقترفَتْه يداك من جرائم.

وربما كانت تلك الفائدة الوحيدة من اكتسابي صفة إجرامية لا علاقة لي بها...

- هيا، دَع القصاصات جانباً، وركّز تفكيرك على الشطرنج، سنلعب مباراة أخرى، بي حماسٌ كبير لهزيمتك، بعد تعادلنا الأخير.

لم ينتظر ردّي، ملوّحاً أمامي بالرقعة الخشبية لإثارة حماسي،

t.me/qurssan

فأعدتُ القصاصات إلى مكانها تحت الوسادة، وساعدته على ترتيب البيادق لبدء جولة جديدة في مبارياتنا الطويلة، باعتبارها وسيلة فعالة لقتل وقتٍ أقسم على التوقّف في هذه البقعة المنسيّة.

- كم بلغ عدد قتلى سفاح بيتسا بارك حتى الآن؟

حرّكتُ البيدق الأول مجيباً:

- ستون، بين عامي 2001 و2006، وبمعدّلات عشوائية، قد تمضي أشهر لا تظهر فيها جثة واحدة، وقد تمرّ أشهر سوداء يتساقط فيها الضحايا كالذباب، ودائماً في الحديقة الفسيحة نفسها، لكن في أماكن مختلفة داخلها، والمثير للانتباه الآن هو ابتعاده عن المشردين واصطياده لأشخاص من طبقات اجتماعية أعلى...

ردّ بسخرية:

- هذا كثير جداً، هل يريد كتابة اسمه في موسوعة جينيس أم ماذا؟ هو يوشك على معادلة عدد مربعات رقعة الشطرنج الـ 64!

أوقفت عبارته الأخيرة حركة يدي الممسكة بالبيدق الثاني، فرفعتُ عيني نحوه هاتفاً بدهشة عارمة:

- يا إلهي، وماذا لو كان ما قلته الآن هو ما يدور حقيقة في عقل المجرم!

* * *

t.me/qurssan

بطاقة تعريفية لمادة Tri Ortho Crésyl Phosphate أو ثلاثي اورتو كريزيل فوسفات:

الصيغة الكيميائية:

$C_{21}H_{21}O_4P$

الوصف:

مركّب كيميائي عديم اللون والرائحة يحتوي على الفوسفور العضوي.

الاستعمالات:

- الصناعات البلاستيكية.
- تركيبة زيوت تشحيم بعض المحركات.
- المبيدات الحشرية.
- الزيوت المعدنية.

التصنيف الطبي والأثر المباشر على جسم الإنسان (يختلف بحسب الحالات):

- المسمّمات العصبية Neurotoxines المؤذية للنسيج العصبي.
- مهاجمة الخلايا العصبية والتسبّب في عرقلة عملها الطبيعي.
- اختلال التحكّم في العضلات والمفاصل الضرورية لأي حركة.
- الدوار والقيء والإسهال في المرحلة الأولى، ثم عجز عن تحريك

t.me/qurssan

مجموع عضلات الأطراف (الشلل الجزئي أو الكلي) بعد تمكّن المادة من الجهاز العصبي.

- فقدان البصر والذاكرة، والارتعاش اللاإرادي للأطراف، ومشاكل في النطق.
- مضاعفات أخرى كالسكري وضغط الدم وأمراض القلب.
- الوفاة.

حالات تسمم جماعي تسبّبت بها المادة:

- تسمم الآلاف بالولايات المتحدة الأميركية بعد استهلاكهم لكحول Ginger Jake الملوث بالمادة خلال ثلاثينيات القرن العشرين.
- إصابة عدد من الربابنة الأستراليين والكنديين بمجموعة من الأمراض بعد استنشاقهم لبخار المادة في أثناء قيادتهم للطائرات خلال خمسينيات القرن العشرين.
- مقتل الآلاف وتسمّم عشرات الآلاف في كارثة زيوت المائدة المسمومة بالمغرب، سنة 1959.

* * *

t.me/qurssan

(14) ذهول وارتعاشات

لكل امرأة سرّها الخاص: لكنة،
حركة، أو صمت.
أنطوان دو سانت-إكزوبيري

الاثنين 28 أكتوبر 2002
حسان - الرباط:

كدت أخنق رشيد بيدي، مع إصراره على الصمت المستفزّ، فسيطرتُ على غضبي وحيرتي بأعجوبة، ولم أتكلّم إلّا بعد وقوفنا أمام باب شقة في الطابق الثاني من عمارة صغيرة، تتموقع في حيّ حديث المعمار، توحي هندسة أبنيته بانتماء سكانه إلى طبقة متوسطة نوعاً ما.

- متأكد من أنها لبنى المقصودة ببحثنا؟
- إذا كانت استنتاجاتي صحيحة، نعم.
- استنتاجات؟ هل تسخر مني أم ماذا؟

قطعت عبارتي مع سماعي وقع خطوات بطيئة ثابتة، قادمة نحو الباب، تبعها هدوء دام للحظات، فسّرتها بلجوء الواقف خلف الباب إلى العين السحرية لتبيّن هوية القادم في وقت غير لائق.

t.me/qurssan

طبعاً، فلن يفكر أحد في زيارة امرأة لا يعرفها، في العاشرة ليلاً، وبلا أيّ موعد مسبق، إلّا إذا كان شاباً مندفعاً، أو كانت مجنونة...

أو هما معاً!

تساءل صوت أنثوي متوجّس عن الطارق، ما فهمته من دون حاجة إلى الترجمة، فتكرّر مشهد لقائنا بالناشر السابق بالحرف، إذ قال رشيد كلاماً بالعربية، ميّزت منه اسم الرواية واسم مؤلفها.

صمت آخر استمرّ لنصف دقيقة، قبل أن يتحرّك مزلاج الباب، وتظهر الواقفة أمامنا.

كانت إضاءة البهو خافتة، مما لم يسمح لي بالتدقيق في ملامحها من أوّل نظرة، لكن أثر الدهشة على محيّاها لم يكن لتُخطئه أيّ عين.

قد يعتقد مَن يراها لأوّل وهلة أنها في بداية الأربعينيات من عمرها، لكن آلة تصويري الأنثوية المتطوّرة كما سمّاها رشيد أدركت أنها لم تتجاوز منتصف الثلاثينيات بعد، رغم احتمائها بقناع من الوقار الزائد، وروب منزلي فضفاض يجعل من دراسة تفاصيل قوامها مهمة في غاية الصعوبة.

واصل رشيد شرحه المستفيض، وبقدرة هائلة على الإقناع، ثم أشرقَ وجهه مع جملتها المقتضبة الأخيرة، وسماحها لنا بالدخول بعد تحيّتي بهزّة من رأسها وكلمات ترحيب ومجاملة فرنسية.

شقّة صغيرة تضمّ ثلاث غرف مغلقة الأبواب، توسّطت قاعة جلوسها المضاءة أريكة وطاولة زجاجية منخفضة انتبهت لوجود قلم حبر وكتاب جيب ومذكّرة صغيرة مفتوحة فوقها، يقابلها تلفاز غير مشغّل، تعلوه صورة حائطية للمرأة وهي تحتضن فتاة في الثانية أو الثالثة عشرة من عمرها.

t.me/qurssan

ولا أثر أو علامة تدلّ على وجود رجلٍ في المنزل. . .

بسطت يدها اليسرى لتُشير إلينا بالجلوس على الأريكة، واختارت هي مقعداً في الزاوية.

هي أبعد ما تكون عن الجمال الصارخ، بتسريحة عملية لشعر كستنائي، وفمٍ صغير بالكاد تتحرّك شفتاه الورديتان عندما تتكلم، وعينين عسليّتين تؤطّرهما أو بالأحرى تحاصرهما نظارات كبيرة جعلتها أشبه بمديرة مدرسة داخلية تجمع كلّ الطالبات على كراهيتها.

لكنها جذابة بالفعل، والغريب أنّ جاذبيتها مرتبطة بمسحة حُزن تكسو وجهها، مع طغيان أنوثة رقيقة على حركاتها ومشيتها، رغم محاولاتها الظاهرة للتحكّم بها أو ربما دفنها.

هي امرأة خيِّل إليّ أنها تبذل ما في وسعها لقتل كلّ ما يميزها كأنثى، لا تريد الاستمتاع بسنوات شبابها، ومنزعجة من تأثير فتنتها، بل وتتمنى أن تقذف بها آلة زمن إلى العقد الخامس من عمرها مباشرة.

شجّعني ترحيبها بالفرنسية على كَسر جمود الحرج بيننا، ومحادثتها باللغة نفسها:

- سيدتي، الوضع غريب جداً، ومن حقّك التعبير عن امتعاضك، لكنني أعدكِ بالمباشرة وتجاوز المقدمات الطويلة. أنا كريستين ماكميلان، روائية أميركية، وابنة الجندي ستيف ماكميلان، الشخصية «الخيالية» في رواية أحجية مغربية، وقادنا بحثنا عن مؤلفها المجهول إلى الشكّ في كونه أستاذ الرياضيات المفقود، رفيق خالدي.

t.me/qurssan

نقلت بصرها بيننا في شكٍّ واضطراب فضح اقترابنا الفعلي من هدفنا، فواصلت الضغط لإجبارها على الاستسلام:

- هل أنت لبنى، زوجة سمير قاسمي، صديق أستاذ الرياضيات؟

شبكت أصابع يديها في محاولة يائسة للسيطرة على ارتعاشها، ثم تمتمَت بخفوت:

- كيف ربطتم بين الرواية ورفيق خالدي؟

نقلت إليها ما جرى، منذ قراءتي للنسخة المترجمة من الرواية، إلى حين طرقنا باب شقتها، ثم تحوّلت إلى رشيد، منتظرة الجزء الناقص من الحكاية، فعدل وضعية جلوسه، وبدأ بمقدمة ذكّرتني بهركيول بوارو، بطل روايات آغاثا كريستي، عند استعداده للكشف عن هوية القاتل:

- كان حلّ اللغز موجوداً بين يدي الناشر نهاية الثمانينيات، لكنه لم ينتبه لبعض الإشارات العابرة، ربما لأنه عاش طويلاً خارج المغرب، فغابَت عنه بعض التفاصيل المحورية.

تحاشى النظر إلينا، موجّهاً بصره إلى الطاولة الزجاجية، ومستعيناً بيده للتكلّم بأريحية أكبر:

- عندما أشارَ محسن الفاضلي إلى إصابة عدد من سكان الدوار بأعراضٍ مشابهة لما يعاني منه رفيق خالدي، تذكَّرتُ ما حكاه لي والدي قبل سنوات، عن كارثة زيوت مسمومة أغرقت المغرب نهاية الخمسينيات، وتسبَّبت في مقتل الآلاف وإصابة عشرات الآلاف بقائمة متنوعة من الأمراض، كالشلل وصعوبة تحريك الأطراف وأمراض القلب والشرايين والضغط الدموي، وصعوبات النطق وأحياناً العمى. اتصلت به صباح اليوم، فأكّد لي ما رواه سابقاً، وأضاف بأن ما أشيع يومها هو أنها زيوت تشحيم محرّكات طائرات

t.me/qurssan

حربية مصدرها القواعد الجوية الأميركية المتمركزة ببعض المدن المغربية، اشتراها تجّار مغاربة ومزجوها بزيوت المائدة، ثم أغرقوا الأسواق بها، فوقعت المأساة. قال بأنها قضية منسيّة لا يعرف عنها جيلنا شيئاً، وتمّ التعتيم عليها بشكلٍ غامضٍ وقتها، رغم أثرها البالغ والفظيع على ضحاياها.

هوى قلبي بين قدمي مع سماعي للمعلومات المرعبة، فانتقلت ارتعاشة أصابع لبنى إلى جسدي كله، فيما استطرد هو، وبفرنسية تنطق حرف r بشكلٍ رنّان مميز:

- كنت اليوم على موعد مع أستاذي المشرف في مكتبه بالكلية، لإطلاعه على ما توصّلنا إليه من معلومات مثيرة حول أحجية مغربية، لعلّه يقتنع برغبتي في العمل عليها كنموذجٍ تطبيقي في أطروحتي، لكنه تخلّف عن الحضور، دون أن يكلّف نفسه عناء الاتصال بي للاعتذار، فراودتني فكرة مقابلة أستاذ متخصّص في التاريخ، سبق وأن درّسني إحدى المواد الثانوية في السنة الثانية، سألته عن كارثة الزيوت المسمومة، فنقل إليّ معلومات مطابقة لما سمعته من والدي، مع بعض التدقيق في التواريخ والأماكن والأحداث، ثم نصحني بالاطّلاع على أطروحة تناولت الموضوع، أنجزَتْها باحثة في سلك الدكتوراه، ونالت عنها إشادة وتقديراً متميّزاً.

هتفت كتلميذة نجحت في حلّ مسألة حساب قبل أقرانها:

- وهذه الباحثة هي لبنى!

- نعم...

ردّت لبنى ساهمة، حتى بدَت لي غير مهتمّة بمواصلة رشيد شرحه:

- حدّثني الأستاذ عن إشرافه على الأطروحة منتصف

t.me/qurssan

التسعينيات، وكيف فكَّر في الاعتذار عن مهمته أكثر من مرة، نظراً إلى خطورة الموضوع وطرقه بعض التفاصيل ذات البُعد السياسي الحساس وقتها، لكن حماس الباحثة وقتاليتها للوصول إلى المعلومة انتقلت إليه، فدعَمَها وساعدها على مواجهة بعض الصعوبات. كانت تتحدى كلّ ظروف الإقصاء والتكتّم على ملابسات الكارثة وتداعياتها. تواصلت مع أسر الضحايا، وبحثت في الوثائق الأرشيفية ومحاضر الاستماع للمتهمين وملخّصات جلسات محاكمتهم ومقالات الصحف الصادرة آنذاك، وبعثت رسائل لباحثين مغاربة ومؤرخين أميركيين متخصّصين، بل وتطرّقت حتى إلى تحليل المادة المسمومة المسؤولة عن قتل وإعاقة الضحايا، رغم كونها جزئية مرتبطة بتخصّصات طبية وكيميائية بعيدة عنها. كان تعبيره دقيقاً عندما قال بأنه وجد نفسه أمام امرأة لا تُعِدُّ بحثاً أكاديمياً عادياً، بل تخوض معركة مقدسة، إما أن تنتهي بانتصارها، أو استشهادها...

امتزج الذهول بالإعجاب عند تطلّعي إلى المرأة الجالسة أمامي، مع تساؤلها بشرود:

- وكيف وصلتَ إلى عنواني؟

- تحدث الأستاذ عنها بالكثير من التقدير، واعتبرها فلتة لا تتكرّر، ولأنني كنت أحد أفضل طلبته أيضاً فقد رافقني إلى مكتبه، حيث سلّمني نسخة من البحث، وأراني صورة تذكارية من مناقشتها. قال بأنّ حياتها الشخصية بقيت سدّاً منيعاً أمامه، وتمنى فقط لو يعرف سبب اهتمامها الأقرب للجنوني بكارثة الزيوت المسمومة، مرة واحدة فقط وافقت على عرضه باصطحابها في سيارته، بسبب الأمطار العاصفية القوية، فطلبت عنوان مؤسسة تعليمية خاصة، قريبة من صومعة حسان، وتستقبل التلاميذ من الحضانة إلى الثانوية. لنقُل

t.me/qurssan

بأنني أعرف المؤسسة، فراقبتُ بوابتها في تمام السادسة من مساء اليوم، وبالفعل، لمحتُ السيدة لبنى العفوي قادمة لاصطحاب الفتاة التي تحتضنها في هذه الصورة، ثم الدخول إلى عمارة لا تبعد عن المدرسة سوى ببضع مئات من الأمتار.

احمرّت أذنا رشيد، فتدخّلت لإنقاذه من خجله:

- سيدتي، لولا إصرار زميلي على ملاحقتك أنت عوض السفر إلى مدينة مكناس لمقابلة عائلة المختفي وصديقه لما أزعجتك، فأنا لا أفهم حتى الآن طبيعة علاقتك بالموضوع، لكن القضية حاسمة بالنسبة لي، لذلك سأسألك، إذا كان رفيق خالدي بالفعل ابن صالح وجميلة، أو أياً كان اسمهما في الواقع، ومؤلّف رواية أحجية مغربية أيضاً، فلماذا أقحمَ اسم ستيف ماكميلان في الأحداث، واتّهمه صراحة بقتل والديه، رغم أنّ شهادة شخصٍ آخر عايَشَ تلك الفترة تنفي التهمة عن أبي؟ أنا روائية أيضاً، وأعلم بأنه لا أحد يملك حقّ التحكّم بخيال الكاتب، لكن وجود بعض التفاصيل الواقعية في الرواية يضعنا في مواجهة مفتوحة مع أسئلة لا حصر لها!

ارتسمَت على شفتَيّ لبنى ابتسامة مفاجئة، منحت وجهها شكلاً جميلاً مختلفاً، وقالت:

- لأنكما لم تضَعا في حسبانكما احتمالاً آخر، نعم، رفيق خالدي، أستاذ الرياضيات المفقود، الذي نفَت عائلته وصديقه سمير فرضية كتابته للروايات، هو مؤلّف أحجية مغربية الحقيقي، لكن المسودة لم تكُن مكتملة عندما اختفى، وتولّى شخص آخر مهمة إتمام فصولها الأخيرة، ثم إرسالها إلى دار النشر بذلك الاسم المستعار.

- مَن هو هذا الشخص؟

t.me/qurssan

كان هتافنا متزامناً بدقّة مثيرة للسخرية، فألقت هي نظرة سريعة على الصورة التي تعلو التلفاز، ثم ردَّت ببساطة من لا يعنيه ردّ فعلنا:

- أنا...

* * *

t.me/qurssan

ه موقع الخبركوم - الرئيسة - حوادث: ×

اختفاء زوج ناشطة حقوقية بارزة في ظروف غامضة

الأربعاء 6 مارس 2013 - 12:43

فتحت مصالح الشرطة التابعة لولاية الأمن بالرباط تحقيقاً حول ملابسات اختفاء البروفسور يونس بلقاسم (59 سنة) الاختصاصي في امراض النساء والتوليد، والأستاذ بكلية الطب جامعة محمد الخامس السويسي بالرباط، حيث افاد مصدر مطّلع للموقع انّ آخر مرّة شوهِدَ فيها الطبيب كانت ليلة السبت الماضي، بعد مغادرته الفيلا المتواجدة بحي الرياض، من دون إطلاع زوجته المحامية والناشطة الحقوقية حنان الفارسي (52 سنة) على وجهته، ومن دون استخدام سيارته الزرقاء من نوع أودي، لتقرّر هي إبلاغ الشرطة بعد مرور أزيد من 24 ساعة بقي خلالها هاتفه المحمول خارج التغطية.

اختفاء خلّف ردود فعلٍ استنكارية واسعة بين أساتذة وأطر كلية الطب، واكّدت طالبة تتابع دراستها بالسنة الثالثة (رفضت الكشف عن اسمها) انّ الأستاذ يتمتع بشعبية جارفة بين طلبته، ويشتهر بسعة اطّلاعه وابتعاده عن الرسميات المبالَغ فيها على حدّ تعبيرها.

تجدر الإشارة إلى انّ للطبيب والمحامية ابناً مفقوداً في روسيا منذ شهر اكتوبر سنة 2002، واشيع وقتئذٍ بانه أحد ضحايا عملية احتجاز رهائن مسرح موسكو، فيما نفت السفارة المغربية ذلك في بلاغ رسمي.

التعليقات (0) الآراء الواردة في التعليقات تعبّر عن آراء اصحابها وليس عن راي الموقع

t.me/qurssan

(14′) بدم بارد

لا أمل بلا خوف، ولا خوف بلا أمل.

باروخ سبينوزا

الثلاثاء 20 يونيو 2006

ضواحي كراسنوكامنسك- سيبيريا:

مضت أيام طويلة بعد إشارة فاسيلي الساخرة، راجعتُ خلالها كلّ تفاصيل قضية سفّاح بيتسا التي ألصقت بي ظلماً، مستعيناً بما ذُكِر عنها في الصحف المتوفرة بحوزتي، إلى أن توصّلت لفهم حقيقة ما يجري فعلاً منذ عام 2001.

وطبعاً، لم يكُن الأمر نتيجة ذكاء خارق مني، أو تقمّصاً لأدوار المحقّقين في بعض الروايات البوليسية المتوفرة بمكتبة السجن.

هي مجرّد استفادة فعلية من سكون السجن المعزول، ورغبة طبيعية في قتل مللٍ حاضر لا ينتهي، ومستقبلٍ لا وجود له في قاموس كراسنوكامنسك، فربع ساعة بجانب نافذة تطلّ على العدم هنا كافية لتحوّل أياً كان إلى فيلسوف تنافس أفكاره ما أنتجه نيتشه طوال سنوات عمره، لا مجرّد محقّق يدرّب عقله على التفكير دائماً خارج الصندوق.

t.me/qurssan

لقد عمل القاتل المتسلسل وفق خطّة صورة محكَمَة، لم يفهمها أحد طوال السنوات الخمس الماضية. . .

هو يريد ملء كلّ خانات رقعة الشطرنج الـ 64، واستقرّ على حديقة بيتسا بارك المشهورة بمباريات ومسابقات اللعبة لارتكاب جرائمه المتلاحقة.

ولم يكُن اختياره للضحايا أو المواقع داخل الحديقة عشوائياً. . .

والقاعدة تقول: إذا وقعت جريمة، ركِّز على الضحية، لا المجرم!

يعلَم أيّ هاوٍ للشطرنج بأنّ البيادق هي القطع الأقل قيمة في اللعبة، ويسهل على أيّ لاعبٍ التضحية بها، لخداع خصمه وتنويمه، ثم مفاجأته بفخٍّ غير متوقّع، يحصد به أثمن قطعه، قبل الإجهاز عليه بالنقلة الحاسمة.

هذا ما فعَلَه المجرم منذ البداية، عندما أقدَمَ على قتل عددٍ من المتشرّدين والمتخلى عنهم بدمٍ بارد، ممَّن لا يشكّل اختفاؤهم أو موتهم إزعاجاً أو خسارة لأحد، مستفيداً من خمول شرطة موسكو ولامبالاتها، ثم تفكيرها في القبض على أيّ كان لإغلاق الملف.

لينتقل بعدها إلى الخطوة الموالية. . .

تصفية عمّال أو موظفين بسطاء، لهم أسر وعائلات ستسأل عنهم بعد اختفائهم، وتُفجَع بالعثور على جثثهم، لكن أصواتها غير قادرة على الضغط بالقوة الكافية، كقلاع الرقعة وأحصنتها.

ولم تتحرّك شرطة موسكو لفتح تحقيق جدّي إلّا شهر فبراير الماضي، عندما سقط أستاذ وتبِعَه مهندس مرموق، قادهما نحسهما

t.me/qurssan

إلى حديقة الموت، ودلّت مكانتهما الاجتماعية على استهداف المجرم لطبقة المتعلّمين، أو أفيال الرقعة.

هو قاتل وحشيّ يستحق أقسى العقوبات بطبيعة الحال، وقد يُعاني من اضطرابات نفسية خطيرة، لكن متابعة فصول القضية قادتني إلى الإعجاب الفعلي بفلسفته، بعدما استطاع تحويل رقعة شطرنج صغيرة إلى مرادفٍ حقيقي لقسوة حياة لا تعترف إلّا بالأقوى...

حتى تغطية الصحافة لم تتّخذ زخماً ضاغطاً إلّا مع مقتل الأستاذ والمهندس، وتساءل الجميع عن الجدوى من تحقيقات الشرطة، مع استحالة حراسة 22 كيلومتراً مربّعاً من مساحات خضراء تغطي بعضها الأشجار، بخاصة في فترات الانخفاض المَهول في درجات الحرارة.

لم أكُن قادراً على متابعة أدقّ التفاصيل في الوقت المناسب، فالجرائد قليلة، وتصل إلى السجن البعيد متأخّرة بعدة أيام، ويتناوب بعض السجناء على قراءتها بعد تخلّص الحراس منها، وغالباً ما أكون آخر المحتفظين بها، ورغم ذلك انتبهتُ لوجود صحافية شابّة تذيل صورتها عدة مقالات وتحقيقات تناولت القضية باهتمامٍ كبير منذ البداية.

يانا زارشينكايا...

تردّد اسمها في ذهني أكثر من مرة، مع بدء تشكّل خيوط فكرة بدت لي كقشة يصعب أن تنقذ غريقاً مثلي، لكنني لن أفوّت فرصة التمسّك بها...

*

أغلق فاسيلي حقيبة ظهره الصغيرة، وارتدى معطفه، وعندما انتبه لنظراتي المتابعة لحركته، قال مشجّعاً:

t.me/qurssan

- انظر إلى الجانب الممتلئ من الكأس، لقد عانينا الأمرين هنا، لكن الأمور أفضل بكثير من الجحيم السيبيري الحقيقي الذي نقله دوستويفسكي في مذكرات من البيت الميت، وأهوال ما وصفه سولجينيتسن في أرخبيل غولاغ، صرت تتكلم اللغة الروسية بطلاقة، وقرأت معظم ما تضمّه مكتبة السجن من روايات ومسرحيات وقصص قصيرة، كما أصبحتَ قادراً على هزيمتي بسهولة تامة في الشطرنج، تذكّرني بـ. . .

قاطعته مبتسماً:

- قصّة الرهان لتشيخوف، عرّفني عليها صديقي سيرجي في السكن الجامعي، وأتيحت لي فرصة قراءتها هنا، هي ويوميات سخالين، التي نقل من خلالها معاناة المعتقلين في سيبيريا نهاية القرن التاسع عشر.

ثم أضفتُ بانفعال:

- سعيد جداً بالإفراج عنك بعد انتهاء مدّتك، لم يكُن سهلاً على صحافي مثلك أن يجد نفسه بعيداً عن أهله، لمجرّد كتابته مقالاً يعبّر فيه عن رأيه. الزمن هنا يمضي ببطء رهيب، ولكنه يمضي في كلّ الأحوال. . .

عانقني بقوة كشَفَت تعاطفه الصادق:

- لا أعتقد بأنهم سيتركونني وشأني حتى بعد حصولي على حريتي. سأعمل على مغادرة البلاد مع زوجتي وأبنائي في أسرع وقتٍ ممكن، ولكن اطمئن، سأبذل كلّ ما في وسعي لإنقاذك رغم اعترافي بصعوبة المهمة، أنت مظلوم ولا تستحقّ ما جرى لك.

غالبت دمعة قهر كادَت تفرّ من عيني، وقلتُ بحزمٍ ظاهري:

t.me/qurssan

- كما شرحتُ لك بالأمس، تمّ الإعلان في آخر صحيفة وصلت إلى هنا عن اختفاء سيدة في السادسة والثلاثين من عمرها، تُدعى مارينا موسكاليوفا، شوهدَت لآخر مرة في محطة مترو كاخوفسكايا القريبة من بيتسا بارك. إذا صحَّ ظنّي، فقد تكون مارينا الضحية الحادية والستين، أو الضحية الملكة، أوّل امرأة يقتلها المجرم، وسيتبعها بأخرى، احتراماً لقانون رقعة الشطرنج.

وضع يده على كتفي، كعادته عندما يرغب في مصارحتي بأمرٍ ما.

- ما زلت غير مقتنع حتى الآن باستنتاجاتك الغريبة حول القضية، ولكنني سأنفّذ رغبتك في الوصول إلى الصحافية المهتمّة بها.

- كان بإمكاني طلب زيارتك للسفارة المغربية مباشرة، لكن انتفاء العلاقة بين حصار المسرح وسلسلة جرائم المنتزه، مع ضياع أوراقي الثبوتية الحقيقية، واختراع اسم وهوية جديدة لي سيجعلهم منحازين للرواية الروسية بشكلٍ تام. ولأنني مغربي، فأنا أوّل مَن يستبعد احتمال تفكير موظف مغربي في ترك مقعده الوثير ومكتبه الدافئ في موسكو، وقطع سبعة آلاف كيلومتر فقط للتأكّد من هويتي هنا في كراسنوكامنسك. الصحافة وحدها كفيلة بإنقاذي.

- حسناً، إذا افترضنا نجاح مسعاي في الوصول إلى يانا زارشينسكايا ، ودفعها إلى إثارة الرأي العام حول قصّتك، ماذا ستفعل بعد الإفراج عنك؟

التقطتُ نفساً عميقاً، ثم نقلتُ إليه ما راودني طوال سنوات احتجازي الماضية:

t.me/qurssan

- سأعود إلى المغرب، وأبحث عن الغالية أولاً، ثم أجثو على قدميّ أمامها طالباً العفو عمّا فعلته بحقّها، قبل التفكير في بدء حياة جديدة. لقد ترسَّخ عندي اليقين بأنني حبيسُ حلقة مرعبة فتحتها بيدي، ولن تُغلقها إلّا أصابع يد الخادمة المظلومة. . .

* * *

t.me/qurssan

ما جرى ليلة اختفاء استاذ الرياضيات رفيق خالدي، يوم السبت 30 يوليو 1988، كما نقلته لبنى العلوي (بالتفصيل المملّ الذي تُجيده كلّ نساء الأرض):

وضعت أمي آخر لمساتها على تسريحة شعري، ثم طوّقت عنقي بذراعيها صامتة، لتتساقط دموعها على نحري بعد لحظات قليلة، كقطرات الندى صبيحة يوم ممطر.

الآن اطمأنّ قلبي وتأكّدت حواسي من جلوسي أمام المرآة الكبيرة في غرفتي، إذ يستحيل ألّا تذرف ايّ أمّ الدموع فرحاً بخطبة ابنتها.

أنا اليوم أسعد إنسانة على وجه الكرة الأرضية، ولا أعتقد بوجود مَن تُنافسني على اللقب سواها.

– مرّت بين يدي مئات العرائس في المحل، وكنت أعتبر نفسي محظوظة بعملي مصفّفة شعر وخبيرة تجميل، منتظرة بفارغ الصبر ليلة خطبتكِ انت. الحمد لله، تحقّق حلمي أخيراً، فوجدتني مكتفية ببعض التعديلات البسيطة، ما دمتِ يا أميرتي أجمَل من أن تتدخّل أصابعي للعناية بتفاصيل زينتك.

افترّ ثغري عن ابتسامة فرح، فقبّلَت خدي بحبّ، ثم طرحت سؤالاً كنت أعلم أنها تردّدت كثيراً قبل السماح للسانها بالإفراج عنه:

– متأكّدة من صواب اختيارك؟

وكانت إجابتي جاهزة:

– لا شأنَ لي بما يقوله أو يعتقده الآخرون يا أمي، شبه معوّق أو يتكلم ويحرّك أطرافه بصعوبة. لن أحاسب إنساناً أحببته على قَدَرٍ لم يكُن له ايّ دخل فيه، لرفيق قلب مرهف الأحاسيس، ولسان لا ينطق إلّا بما هو جميل، وعقل جبار لا يعلَم أحد من أولئك المستهزئين الحمقى حدود قدراته...

ثم غمزتها مضيفة:

– ووسامة قلّ نظيرها، بشهادتكِ أنت!

لم أغفل الحرقة في تنهيدتها، وإن حاولَت مُداراتها بابتسامة باهتة:

t.me/qurssan

– كما توقّعت تماماً، انت نسخة مني يا حبيبتي، عواطفكِ اقوى من أن تستسلم لصوتٍ آخر.

قلتُ بحزم وثقة:

– لن يتكرّر معي ما جرى بينكِ وبين أبي.

حاولَت التدارك بسرعة، لكنها تظاهرَت باللامبالاة، متحوّلة إلى نصح وجنّية أمومية افتقدتها طويلاً، بعدما حرمت من حنانها في سنّ مبكرة:

– علّمتني الحياة يا بنيّتي الاّ اثق بالمشاعر العاصفية المجنونة، فما يبدأ جباراً عاتياً لا ينتهي كذلك دوماً، واجمل حبّ ما حافظ على واقعيته وهدوئه حتى النهاية. ابوك ملأ الدنيا صراخاً، وهدّد اسرتي بخطفي إن لم تُوافق على زواجنا، وطبعاً اعجبت وقتها بتهوّره وجنونه فضغطت بدوري. تمّ له ما اراد، ومرّت الأيام فوجد نفسه غارقاً في دوّامة مرضية من الغيرة والشكّ، انتهت باتّهامي في شرفي من دون ايّ دليل ملموس. طلّقني بسهولة مرعبة، ولم يكتفِ بذلك، بل حملك وغادر الرباط نهائياً قادماً إلى مكناس، ودفعت انا الثمن لسنوات، من كرامتي، وسمعتي، ولولا إصرارك أنت لمنعتُ حتى من حقّي كامّ في حضور حفل خطبتك.

صمتت لبضع ثوان، قالت بعدها بصوتٍ متهدّج:

– اقسم لك يا ابنتي بانني لم اغدر بوالدك قط، لا ادري ما طبيعة الاكاذيب التي زرعها في راسك منذ طفولتك، لكنني لا اختلف في شيء عن حبيبك رفيق، إنسانة لم يكُن لها ايّ دخل في قَدَرٍ جَعَلَ انوثتها زائدة عن الحدّ، فكانت كلّ ضحكة عفوية، او كلمة عذبة، او نظرة حالمة، مشروع خيانة بالنسبة إلى عقل والدك المضطرب.

نهضت من مقعدي بانفعال، فاختلّ توازني بعدما دست على طرف قفطاني، وكدت أن أسقط، لولا انها هرعت لتتلقّفني بين ذراعيها، وتُعانقني بتأثّر بالغ، امتزجت خلاله دموعنا في اخدود واحد.

نشيج متبادَل، منحني سكينة إضافية، وخلّصني قليلاً من رهبة الليلة الموعودة.

ليلة الخطوة الأولى نحو الارتباط الأبدي بمَن أحب...

– سأتركك الآن، إنها ليلتك، ومن حقّك الاختلاء بنفسك لبعض الوقت،

t.me/qurssan

قبل قدوم فارسك الوسيم، لا تنسي آية الكرسي والمعوّنتين، أعيُن كثيرة تتربّص بكِ، ولن تحميك منها سوى عين الله الساهرة.

قالت ذلك، ثم قبّلت جبيني وغادرَت الغرفة نحو المطبخ، مشيحة بوجهها عن عيني أبي المشتعلتين غضباً، فاكتفيتُ بابتسامة لها مغزى واحد فقط:

ارجوكَ يا أبي، لا أريد مشاكل بينكما الآن، الضيوف قادمون بعد قليل!

تركت الباب موارباً، ثم فتحتُ الدُّرج المحاذي لسريري، والتقطتُ صورة رفيق، لأملأ عينيّ بتفاصيل ملامحه، كاستعدادٍ أخير لاستقباله، هو وأفراد من عائلته.

تنهّدت بشوق أمام عيني حبيبي في الصورة، فاستعاد ذهني شريط ذكرياتي منذ البداية. مستخدماً صوت عزيزة جلال العذب في أغنية «مستنياك» كموسيقى تصويرية مرافقة...

*

نشأتُ في كنف والدي، بعد انتقاله إلى مكناس، وامتناعه عن الزواج إثر طلاقه من أمي واتهامها الضبابي الغامض بالفساد، وعاشَ مقتنعاً بأنّ كلَّ النساء خائنات بطبعهن، ومجبولات على الغدر كلما أتيحت لهن نصف فرصة، وعاملني دوماً على هذا الأساس، فمنعني من مخالطة زملائي الذكور في المدرسة، ورفَضَ فكرة مصادقتي لزميلاتي أو حتى مراجعة دروسي والإعداد لامتحاناتي برفقتهن، ولولا حكم القضاء بإجباره على السماح لي بزيارة أمي في الرباط، لفترات زمنية محدّدة، لقطع علاقتي بها أيضاً.

كبرت وحيدة، أخضَع لنزواته في اختياره لملابسي وانتقاده المستمرّ لطريقة مشيتي وكلامي، المطابقة تماماً لغنج أمي بحسب وصفه. تجاوزت سنّ المراهقة وتحوّلاته بمفردي، وانسقت شيئاً فشيئاً وراء تلميحاته وتصريحاته المتكرّرة، فانزعجتُ بدوري من علامات أنوثتي، واعتبرتها حاجزاً أبدياً سيمنعني من كسب ثقته مهما فعلت.

لم يقاوم رغبتي القوية في التحصيل، وسمحَ لي بولوج كلية الآداب بعد حصولي على شهادة البكالوريا، رغم أنّ اجتهادي لم يكُن لطموح معين، بل فقط هروباً من معاناتي اليومية معه!

معاناة استمرت لسنوات، وبرز خلالها تناقض فظيع آخَر في أفكاره...

t.me/qurssan

كان يردِّد على مسامعي اكثر من مرة بأنه ينتظر اوّل طارقٍ لباب منزله ليتخلّص مني، وفي الوقت نفسه يحاصرني بأسوار من الريبة والشك، رغم تعرّضي لسيلٍ آخر من السخرية والاستهزاء في الكلية، بسبب عزلتي الشديدة ورفضي لكلّ اشكال التواصل الطبيعي مع الآخرين.

كيف لهذا الطارق كما سمّاه ابي أن ينتبه لي ويفكِّر في طلب يدي إذاً؟

ثم ظهر سمير قاسمي في حياتي...

تعرّفتُ عليه في امسية شعرية نظُمّتها الكلية، فابهرني بقوّة كلماته وتمكُّنه العجيب من إيصال افكاره بأسلوب جذاب لا يملّ منه ايّ مستمع.

شاب يكبرني بسنوات، وبدا من خلال ملاحظتي الاولى تمتّعه بشعبية جارفة بين الطالبات الصغيرات المفعمات بالأمل والاحلام الوردية المالوفة، استغلّها هو لإحاطة نفسه بكتيبة منهن، يتبعنه اينما حلّ وارتحل، كاطفال هاملن في حكاية عازف المزمار السحري الشهيرة.

المدهش انه لم يكُن صاحب ثراء فاحش او وَسامة خارقة، لكنه يُجيد استخدام سلاح قلّما نجحت امراة في مقاومته.

لسانه...

سالت بعض الزملاء عنه بشكلٍ محتشم، فعلمتُ بأنه يعمل استاذاً للغة العربية بإحدى الثانويات، ويتابع في الوقت نفسه مساره الجامعي، طامحاً إلى بلوغ أعلى المراتب الاكاديمية.

مع توالي الأيام، شعرتُ بحاسة انثوية (لم تفلح السنوات الماضية في قتلها) بمحاولته التقرّب مني، فشجّعته على ذلك في البداية، متسلّحة بمزيجٍ من الفضول والرغبة القوية في تحدي أوهام أبي.

تكرّرت لقاءاتنا إذاً في مكتبة الكلّية وساحاتها، فوجدت فيه إنساناً صاحب ثقافة موسوعية حقيقية، ينتقل بين المواضيع المختلفة بسلاسة، لكنه مندفع، ويميل للطيش، رغم طرقه ابواب الثلاثين، يتحدّث عن مشاريع مستقبلية لم ينجز منها شيئاً بعد، وتكاد ثقته بنفسه تلامس مرتبة الغرور والإيمان بأنه آخر اذكياء الارض، جعلته الظروف فقط يضطر للنزول من عليائه ومخاطبتنا نحن، جحافل المريدين والحمقى.

كان اوّل شاب أعرفه خارج دائرة زملاء الدراسة (على ضيق الدائرة)،

t.me/qurssan

ورغم توظيفه لكلّ إمكاناته وخبراته لإغوائي، كما نجح في ذلك مع الأخريات، إلّا أنّ المشاعر المستقرة في أعماق أيّ فتاة في مثل سني لم تتحرّك قيد أنملة.

ألأنني لم أرتَحْ له بكلّ بساطة؟ أم أنّ المشكلة فيّ أنا، المختلفة عن الأخريات بطبيعة ظروفي الشخصية والأسرية المعقّدة، والعجز التام عن التجاوب مع الأحاسيس الإنسانية الطبيعية؟

لم أكُن أعرف الإجابة، لأنّ وقتها لم يحِن إلّا يوم الجمعة 25 سبتمبر 1987، على الساعة الخامسة والربع مساء.

كيف لي أن أنسى تاريخاً وتوقيتاً قابلت فيه رفيق خالدي أوّل مرة؟

سنة جامعية جديدة، بدأتها كالمعتاد، مع مثلّث المحاضرات المتواصلة والصبر المستمر على طباع والدي المتقلّبة والتهرّب الدائم من سعي سمير الحثيث للوصول إلى هدفه بإضافتي إلى قائمة معجباته.

غادرتُ المدرج بعد محاضرة مملّة متعِبة، بالكاد تمكّنت من تلخيص أهم مضامينها، وما إن وصلت إلى بوابة الكلية حتى وجدتُ سمير بانتظاري، فاظهرتُ الانزعاج والتأفّف، لعلّه يفهم بذكائه المزعوم عدم وجود أيّ رغبة لدي في مقابلته.

ثم انتبهتُ إلى أنه لم يكُن وحيداً...

كان تقريباً في مثل سنّه، أو يكبره ببضعة أعوام، ببشرة سمراء وشعر أسود مصفّف بعناية فائقة، انسدلت بعض خصلاته لتغطي جبينه، وملامح متناسقة، بعينين سوداوين تتواريان خلف نظارات بإطارات كبيرة، وشفتين مكتنزتين مضمومتين، ووجه حليق راودتني رغبة خفية في لمسه.

وشامة تزيّن خده الأيسر...

كان وسيماً بشكلٍ لا يصدّق، وتخلط ملامحه بين رجولة وازنة وجمال أقرب للأنثوي، وإذا استثنيتُ الشامة، فإنّ ذهني لم يجد شبيهاً له في اليوم صوره سوى محمود درويش أيام شبابه.

لم تكُن ملابسه باهظة الثمن، ولا مبالغة في أناقتها، بل بسيطة وعملية، ولكنها بعيدة أيضاً عن ربطٍ غير مفهوم انتهجَه البعض، مزجوا فيه بين الشعر الأشعث، والملابس القذرة، والقيم الثورية!

t.me/qurssan

مددتُ يدي لمصافحته، ففوجئتُ بيدٍ شبه متصلّبة تلامس اناملي بصعوبة، وصوتٍ مضطرب يرصّ الحروف والكلمات ببطء كالسكارى:

– رفيق، رفيق خالدي، مرحباً بك...

اوجستُ منه خيفة، فتراجعتُ خطوة إلى الوراء، ثم ندمتُ على تصرّفي، بعدما لمحت انكساراً في نظرته مع ردّ فعلي العفوي.

ربَّت سمير على ظهره بلطفٍ وهو يغمزني بسرعة مَن يقصد بانه سيشرح لي كلّ شيء فيما بعد، وقال:

– رفيق خالدي، صديقي الرائع وزميلي في الثانوية، يعمل استاذاً لمادة الرياضيات، وفاجأني مؤخراً باهتمامه المميّز بالأدب، فقد اعتقدتُ طويلاً بانه حبيس ارقامه ومعادلاته غير المفهومة، جئنا لحضور ندوة ادبية تتناول موضوع تقنيات السرد الحديثة، ما رايكِ إذاً بمرافقتنا؟

لامسَت نظرات رفيق المنكسرة شغاف قلبي، فتحرّقتُ شوقاً للقبول، لكن لساني نطقَ بجواب آخر:

– آسفة، مضطرة للعودة إلى البيت مبكراً، اتمنى أن تسمح الظروف بمقابلتكما لاحقاً، سعدتُ بلقائك استاذ خالدي!

وانسحبتُ كالهاربة منهما، مع نظراتٍ فضولية ضاعفَت استغرابي عندما تحرّك بخطواتٍ غير متّزنة كالمخمور.

هل هو مدمن على الشرب بشكلٍ يتجاوز الحدّ الطبيعي؟

شعرَ سمير ببعض الانزعاج عندما سألته عن صديقه فيما بعد، ثم حكى لي كلّ ما يعرفه عنه بالتفصيل.

قال بانّ رفيق خالدي ابن أسرة من الطبقة المتوسطة في مكناس، كانت ولادته متعسّرة، ما تسبَّب في معاناته من مشاكل صحية مبهمة، أثّرت على النطق وتحريك الاطراف، لكن القدر عوضه عنها بقدرات عقلية رهيبة، وهوس عجيب بالارقام. امتلك والده مخزناً للخشب، لكنه قُتل في أحداث 1965 الدامية بالدار البيضاء، فقط لانه ذهب إلى المكان الخطأ في الوقت الخطأ، عندما سافر بنفسه لعقد صفقة تجارية هناك، فسقط صريع رصاصة طائشة. تولّت امه الممرضة تربيته بنفسها، مع مواجهتها لاطماع بعض افراد

t.me/qurssan

عائلة الزوج الراحل في الاستيلاء على ثروته الصغيرة ضداً على أحكام الشرع والقانون. كبر الفتى وتفوّقَ بشكلٍ ملحوظ على أقرانه، وكان قاب قوسين أو أدنى من الحصول على منحة جامعية بباريس، آلت في نهاية المطاف لمرشحٍ آخر، له علاقاته ونفوذه داخل أسوار الكلية. فانكسر، وفقد ثقته بكلّ شيء، خاصة بعد وفاة والدته وبقائه وحيداً، يُصارع أطماع عائلة عمّه في البيت الذي يسكنه وحيداً، واكتفى بتدريس الرياضيات في إعدادية بإحدى الدواوير القريبة من مكناس، وهناك التقى بسمير، فحاول إخراجه من عزلته، ونجحَ في ذلك بشكلٍ جزئي حتى الآن.

لم أنبس ببنت شفة بعد سماعي للقصة، وربما بدا التأثّر الصريح على وجهي، إذ أضاف سمير بمرحٍ مصطنَع لم أتجاهل تحذيره المبطّن الصامت، إنّ الوسامة ليست كلّ شيء، فمعظم مَن حاولن التقرّب من أستاذ الرياضيات ابتعدنَ عنه فوراً.

لكنني مختلفة تماماً عن الأخريات.

كما أثبتت الأيام بأنّ رفيق ليس رجلاً عادياً أبداً...

أبديتُ اهتماماً جيداً بلقاءاتهما المشتركة، ولم أفوّت لحظة تمكّنني من قضاء الوقت برفقتهما، لأكتشف بأنني أمام صديقين مختلفين، على طرفَي النقيض.

فعكس ما عرفته عن سمير، كان رفيق قليل الكلام، لكي لا يُثير انتباه الآخرين لإعاقته. متواضعاً، لا يتحدّث أو يبرز قدراته المذهلة في الحفظ وسرعة بديهته بأيّ فخر، بل إنه لا يتحدّث عنها إطلاقاً، إلّا إذا دفعه سمير لذلك. غامضاً، ككتاب صدر بلُغة لن يفهمها أحد.

وعلى ذكر الكتب، كثيراً ما بَدَونا أمامه كتلميذين في ابتدائية، أو حتى أميين، وأقولها بلا حرج.

كان مولعاً لأعمال أدبية لم نسمع بأسمائها من قبل (لأنّ معظمها لم يُترجَم بعد إلى العربية)، ومهتماً بروايات تبتكر أشكالاً سردية جديدة، يقول بأنها تختبر ذكاء القارئ، ولا تمنحه كلّ أسرارها بسهولة.

ثم أدركنا بأنه يولي عناية خاصّة بأعمال جماعة أوليبو الأدبية، المعروفة بثورتها على البناء الكلاسيكي للروايات والقصائد، ومحاولاتها هدم الجدار

t.me/qurssan

الفاصل بين قواعد الرياضيات والادب، مع تركيزه على ما يكتبه أبرز اعضائها، الفرنسي جورج بيريك، والإيطالي إيتالو كالفينو.

المهم أن توالي اللقاءات بفعني إلى نسيان صعوباته الحركية، وتجاوز الإعجاب الأوّلي بوسامته الشديدة، وتجاهل الفارق الكبير في السن بيننا، ثم النفاذ إلى قلبه وعقله.

دون أن اشعر بتسلّله الصامت والتدريجي إلى قلبي أنا...

استيقظَت غريزتي من سباتها، وأدهشني امتلاك عقلي دهاء مناسباً للتعامل مع مثل هذه الظروف، أنا التي نشأت في بيئة غريبة كانَت تنسيني بانني أنثى، فاخترعت حججاً وحوادث عفوية ومصادفات لألتقي برفيق بعيداً عن أعيُن سمير، وقد اقتنع قلبي أخيراً بانه لا يريد أحداً سوى رجلٍ استثنائي لم تفهمه الأخريات...

ولن تفهمه وتعشقه سواي...

لم أحتَج إلى وقت طويل حتى أطمئن لأنّ مشاعري لم تكُن من طرفٍ واحد، وإن خالط مشاعره هو إحساس بالذنب تجاه صديقه، وكان صريحاً عندما قال بالحرف الواحد:

– لا أريد المساهمة في خلق مثلّث حبّ جديد، نشكِّل انا وانت وسمير أضلاعه الثلاثة...

طمأنته أكثر من مرّة، متحدِّثة عن علاقات سمير النسائية المتعدّدة، وعدم جدّية مشاعره العاطفية تجاه النساء، فردّ بجملة غامضة غريبة، لم أدرك وقتها مَن المقصود الحقيقي بها:

– إنه الإنسان يا عزيزتي، الكائن اللغز، وهبه الله جمجمة بملايين الغرف المظلمة الموصَدَة والقادرة على إخفاء الكثير، التحدّي الأصعب هو في القدرة على الاحتفاظ بمفاتيح كلّ الغرف، فلا أحد يدري ماذا سيحدث إذا بقي باب واحد مفتوحاً!

وتطوّرت الأمور بيننا بسرعة، لتبلغ درجة لم أعُد قادرة معها على العيش من دونه.

جملة سخرت كثيراً من ترديدها النمطي في الأفلام العربية، ثم خضعتُ لها أخيراً باستسلام لذيذ.

t.me/qurssan

أن ترهن حياتك وحاضرك ومستقبلك، بحياة شخصٍ آخر، امتزجت روحك بروحه، لتخلق كياناً تؤمن بأنّ عراه لن تنفصم إلّا بالموت.

وهنا أطلعني رفيق على سرّه الصغير....

كتابته لرواية، قال بأنه سيسمّيها **احجية مغربية.**

كانت فرحتي لا توصف، وشعرتُ بالفخر، لارتباطي بمحاربٍ يتحدّى ظروفه القاسية ويكتب، في بلدٍ نَخَلَ نفق السنوات العجاف في الثمانينيات، ويكافح السواد الأعظم من أبنائه لكسب لقمة عيشهم، فما بالك بتأليف الروايات، أو حتى قراءتها!

ازعجته اكثر من مرّة برغبتي في الاطّلاع على المسوّدة لفَهم مغزى العنوان الغريب، فرفَضَ، متعلّلاً بأنه ما زال في بدايات العمل، ولم تنضج الفكرة بعد، لكن ضغط فضولي استمر، فبدأ يسلّمني على فترات متباعدة بعض الفصول المرقونة على الآلة الكاتبة، قرأتها وأنا مندهشة لامتلاكه أسلوباً أدبياً متمكّناً، مع شوق كبير لمعرفة طبيعة ما سيحدث في الفصول الموالية.

وطبعاً، لم يعُد إخفاء أمر علاقتنا عن سمير ممكناً...

تولّى رفيق أمر المهمة الصعبة، فاستغلّ مناسبة نهاية السنة الدراسية في إعدادية النوار ليُخبر صديقه بأنه سيتقدّم لخطبتي رسمياً نهاية شهر يوليو 1988.

كان ردّ فعل سمير نارياً غير متوقع، أو أنه لم يكُن متوقّعاً بتلك الشكل المبالَغ فيه، إذ عبَّر عن سخطه العارم، وقال بأنه وثق بنا ولم يشأ تصديق إحساس داخلي بوجود شيء مُبهَم بيننا، ثمّ اتّهم صديقه بالخيانة، ونَعَتَني في غيبتي بأقذَع النعوت، ففقدَ رفيق أعصابه، هو المسالم الأقرب للبرود، وتحوّل النقاش إلى عراكٍ في الإعدادية، انتهى بقطيعة تامّة بينهما.

شعرتُ بوخزة في صدري لانتهاء صداقتنا الجميلة بشكلٍ مؤسف، ولكنها الحياة، لا تمنحك شيئاً إلّا إذا سلبتك أشياء!

*

– هل أنتِ غائبة عن الوعي أم ماذا؟

أخفيتُ الصورة بحركةٍ سريعة مع اصطدامي بغلظة النبرة، فأجبت:

t.me/qurssan

- لا، أنا مستيقظة يا أبي، ماذا هناك؟

صرخ في وجهي بعصبية:

- مرّت أكثر من خمس وأربعين دقيقة على الموعد المحدّد لقدوم المعوّق وعائلته في التاسعة، رغم أنّ عنوانهم لا يبعد كثيراً عن هنا، ما الذي أخّرهم هكذا؟ إذا كانوا يتلاعبون بنا فسوف ألقّنهم درساً قاسياً، قبل معاقبتكِ أنتِ على وضعي في موقف محرج أمام الجميع!

قالها ثم أمسَكَ بمعصمي وهزّني بقوة، فتدخّلت أمي الواقفة خلفَه لتجنب ذراعه صارخة:

- ابتعِدْ عنها، لا شأنَ لك بها، قريباً ستتزوج وتتخلّص منكَ أيها المريض، قد يساعدكَ البقاء وحيداً على التفكير جدّياً في زيارة فقيه حاذقٍ أو حتى طبيب نفسي لإنقاذك من الجنون.

رفع يده الأخرى للَطمها، مطلِقاً شتيمة تنال من شرفها، فصرَختُ بكلّ ما أوتيتُ من قوة:

- كفى! أرجوكما!

ورنّ جرس المنزل...

كان مراهقاً في الخامسة عشرة تقريباً، خاطبَ أبي بصوتٍ منفعلٍ لاهث:

- أنا ابن عم رفيق، يسألكم والدي عنه، هل سبقَنا إلى هنا؟ قال بأنه سيذهب إلى بائع ورود لإحضار الباقة، ولم يعُد حتى الآن!

* * *

t.me/qurssan

(15) محاولة عيش

لم يخلق الحب ليجعلنا سعداء، بل
ليختبر مدى قدرتنا على تحمل المعاناة.
هرمان هيسه

الاثنين 28 أكتوبر 2002
حسان - الرباط:

سالت الدموع على وجنتي، تعاطفاً مع ما روته لبنى، فيما أطرق رشيد مفكّراً، فخيَّم علينا صمت القبور لما يقارب الدقيقة، قبل أن تقطعه هي بابتسامة حزينة:

- يبدو أنّ سهرتنا ستطُول أكثر...

فسرت كلماتها كدعوة مبطّنة للانصراف، رغم عدم اكتمال حكايتها، لكنها عاكسَت ظنّي بإضافتها:

- سأعدّ بعض الشاي، يمكننا مواصلة حديثنا في المطبخ.

ألقت نظرة طويلة عبر باب غرفة مظلمة، أغلقتها بعد ذلك، ثم أشارت إلينا بأصبعها، فلحقنا بها عبر البهو.

وضعت علبة قطع السكر والنعناع فوق طاولة صغيرة، ومعها إبريق وكؤوس نظيفة، ثم استغلّت فترة انتظار غليان الماء لتقول:

t.me/qurssan

- كدتُ أجنّ، فلا معنى لاختفاء رفيق سوى تعرّضه لمكروه. بحثنا ليلتها في المستشفيات وأقسام الشرطة، بلا جدوى.

سألتها باهتمام:

- وماذا عن بائع الورود؟

ردّت بلا اكتراث:

- هو يذكره جيداً بعدما اتّفق معه سابقاً على إعداد الباقة، لكنه لم يرَه قط يومها، ما يعني بطبيعة الحال عدَم وصول رفيق إلى وجهته بعد مغادرته المنزل.

وتكلّم رشيد أخيراً:

- ألَم يَدر بخلدك وقوف أسرة عمّه أو سمير وراء الاختفاء الغامض؟ كلاهما له دوافع قوية للتخلّص منه، الأسرة بسبب أطماعها في الاستيلاء على البيت وطرد رفيق منه، والصديق لرغبته في الانتقام بعد انهيار صداقتكم.

عقَدَت ساعدَيها أمام صدرها، مجيبة:

- كنتُ مشوّشة البال في البداية، بسبب خوفي على رفيق، ثم تدخّل أبي لمنعي من المشاركة في البحث، وصبّ اللعنات على رأسي، وعجزَت أمي عن تقديم أي مساعدة، لكنني تأكّدت فيما بعد من وجود شيء ما غير طبيعي.

- كيف؟

- كنت أشعر بعدم جدّية أسرة العمّ في البحث، رغم تظاهرهم بالعكس، وتذكّرتُ ما قاله رفيق، أياماً قليلة قبل اختفائه، عن استغرابه للتحسّن المفاجئ في علاقته المضطربة بأفراد الأسرة، وموافقتهم على القدوم معه لخطبتي، ثم ظهرَ سمير بشكل مفاجئ، ليعبّر عن دهشته ممّا وقع، ويُبدي استعداده للمساهمة في كشف

t.me/qurssan

مصير صديقه وطيّ صفحة الخلافات السابقة بيننا، واقترح نشر إعلان البحث عن مفقود في إحدى الجرائد الوطنية.

نبَّهها رشيد لتصاعد بخار الماء المغلي، فهرَعت لإطفاء الموقد، لأقول بنبرة مقصودة:

- هذا الحنان الغريب يدين الطرفين أكثر ممّا يبعدهما عن دائرة الشبهات.

- معك حق، وبدأت أقتنع بذلك أيضاً، لكن حدثاً مباغتاً بعثر أوراقي وأجبرني على الانسحاب من المشهد قسراً.

حاصرَتْها أعيننا المتسائلة، فأردفَت متردِّدة:

- كنت حاملاً . . .

شعرت ببذلها مجهوداً ضخماً لاستحضار ذكرياتها المؤلمة، فمنحتها ابتسامة مشجّعة، ساعدتها على الاستمرار رغم خجلها:

- اكتشفَ أبي الأمر فطردني من البيت وتبرّأ مني، متجاهلاً كلّ توسلاتي، فاضطررتُ لترك الكلية والمدينة، ثم العودة إلى الرباط، حيث احتضنتني أمي، ووقفَت بجانبي في محنتي.

أدارت ظهرها، مفضِّلة تحاشي النظر إلينا.

- بالكاد رمّمت هي سمعتها ونجحت في إثبات نقاء سيرتها، فجئتُ أنا كموجة بحرٍ دمَّرت قصراً رملياً بضربة واحدة. لا أغادر البيت إلّا لماماً. أبقى وحيدة مع انشغال أمي في محلّها، مستسلمة لهواجس مسمومة، عن تعرّض حبيبي ووالد طفلي أو طفلتي لمكروهٍ سلَبَه حياته، لم تنقذني منها سوى إعادة قراءة مسوّدة روايته غير المكتملة، إلى أن فكّرتُ جدّياً في إتمامها ثم نشرها بنفسي، مؤمنة بأنّ هذه المحاولة الرمزية هي السبيل الأوحد لبقاء كلينا على قيد الحياة.

t.me/qurssan

انتفضتُ كمَن صعقها تيار كهربائي:

- أتممت كتابة رواية أحجية مغربية وأنت حامل!

ردّت بزهو:

- واستغرق مني ذلك شهرين ونصف تقريباً...

عبَّرتُ عن استنكاري بالقول:

- غير معقول...

التفتَ رشيد نحوي مصحّحاً:

- لا بل ممكن، كيرواك كَتَبَ روايته الشهيرة على الطريق في ثلاثة أسابيع، وتمكَّن ستندال صاحب رواية الأحمر والأسود من كتابة رواية أخرى تحمل عنوان صومعة روما وتقترب من حاجز السبعمائة صفحة، في أقل من شهرين فقط.

وعاد لسؤال لبنى:

- نَصِلُ هنا إلى النقطة المحورية، أين انتهت مسوّدة رفيق؟ وأين بدأ خيالكِ أنتِ إلى حين إتمامك للرواية؟

- كان آخر ما كتبه رفيق في مسوّدته هو قراءة المحقّق مصطفى المحمودي لمحتوى مفكرة صالح بعد وفاته، وما تضمَّنته من إشارة للموعد مع الجندي الأميركي وتلك الأرقام التسلسلية الغريبة:

42F 33137

هتفت في انتصار:

- إذاً فوصول المحقّق ومعه الرواية إلى استنتاج ارتكاب ستيف ماكميلان لجرائم القتل كان من وحي خيالكِ أنتِ!

أومَأت برأسها موافقة، فغمزني رشيد هامساً:

- لغز إدوين دروود...

لكنها سمعت ما قاله وعلَّقت بهدوءٍ شديد:

t.me/qurssan

- تماماً، كان الأمر شبيهاً بمعضلة رواية ديكنز مع توقّف السرد في نقطة شديدة الغموض.

ثم قدَّمَت لنا كؤوس الشاي الساخنة، ووضعَت كأسها جانباً، مستطردة:

- لا أنكر بأنّ اتخاذ قرار إكمال كتابة الرواية كان غريباً ولا يخضع لأيّ منطق، ولا أدري إن كنت مدفوعة بمشاعري وخوفي على حبيبي المفقود، أم أنّ الاضطرابات النفسية المرافقة لفترة الحمل لعبت دوراً ما، المهم أنني بعد قراءة المسوّدة مرّة أخرى اصطدمت بعلامات استفهام متعددة، أولها الإهداء المحيّر، إلى فيرونيكا.

قلتُ بخبث:

- وطبعاً شعرتِ بالغيرة...

ظلّت ابتسامتها باهتة، وإن تراجَعَ حزنها:

- بالتأكيد، التهمني فضول معرفة هوية هذه الفيرونيكا المجهولة التي اختار رفيق إهداءها روايته ولم يسبق له أن حدَّثني عنها قط، ومع ذلك احترمتُ المسوّدة وتركتها كما هي، ثم انتقلت إلى معضلة أخرى، وهي محتوى المفكرة، هنا عدتُ إلى رواية محاولة عيش الصادرة عام 1985، لأخذ فكرة عن أجواء الخمسينيات والوجود الأميركي بمدينة القنيطرة. ولم أكتفِ بذلك، فتحيَّنتُ الفرصة وقابلتُ محمد زفزاف، على هامش لقاء أدبي بمدينة الرباط. ادَّعيتُ رغبتي في إنجاز بحثٍ جامعي عن مُجمل أعماله الأدبية، فحدَّثني بتفصيل أكبر عن القنيطرة وحياة الجنود الأميركيين فيها، وسجَّلتُ كلّ ما ألقاه على مسامعي بالحرف، وأعترفُ بكلّ صدق أنني لم أكُن راضية عن عدم توصّلي إلى فهم حقيقة تلك الأرقام التسلسلية الغامضة رغم

t.me/qurssan

بذلي مجهوداً كبيراً في سبيل ذلك، فاخترتُ لقلّة خبرتي وقتئذٍ اللعب على وتر المؤامرة الغامضة والنهاية المفتوحة، كحلٍّ سَهل لا شكّ في أنه سيعجب عدداً كبيراً من القرّاء. أتممتها قبل نهاية شهر نوفمبر بأيام قليلة، ومع امتلاكي معرفة لا بأس بها بميدان النشر بحُكم تخصّصي الجامعي، فقد وقع اختياري على دار الأمل للنشر والتوزيع لسُمعتها الجيدة، فوضعتُ على المخطوط اسماً مستعاراً، وكلّفتُ صديقة أثِقُ بها بإرسالها من القنيطرة بذلك العنوان الوهمي، إذ خشيتُ أن يؤدّي نشرها بالاسم الحقيقي إلى متاعبَ أخرى.

علّقَ رشيد ساخراً:

- لم يقرأها أحد تقريباً بعد صدورها...

أنّبته بنظرات صارمة، هرب منها بسؤالها:

- ماذا حصل بعد ذلك؟

- بدأت أقسى شهور حملي، ومعها خوف شديد ممّا سيحمله المستقبل، و...

بدت الأمور أوضح بكثير، فسبقتها:

- طرق سمير باب منزلك، مقدّما نفسه كعاشقٍ يجدّد تعبيره الصريح عن مشاعره تجاهك، ويعرض إنقاذك من المصير المجهول بالزواج منكِ والتكفّل بطفلك.

تنهّدت بحسرة:

- تماماً، ووجدتني مُجبَرَة على الموافقة، هرباً من نظرات وأقاويل مجتمعٍ لا يرحم، فكان ذلك خطأً قاتلاً دفعتُ ثمنه غالياً جداً فيما بعد...

*

عدنا إلى قاعة الجلوس، فتابعتُ من حيث توقفت قبل قليل:

t.me/qurssan

- لم يصدر عن سمير أيّ تصرف مسيء بعد توثيق الزواج واعتنائه بي خلال أشهر حملي الأخيرة، فلانت أسارير أمي ووثقَت به، وأثنَت على تمسّكه الشديد بي، وصَبره على التنقّل أسبوعياً بين مكناس والرباط لرؤيتي، ونَسِيَتْ وجود شخص أحبّه، ما زال مختفياً منذ ليلة خطبتي له. لستُ إنسانة جاحدة، وما زلت ممتنّة لكلّ ما فعله سمير من أجلي وقتها، لكنني لم أغفَل إحساساً قوياً بأنه يسير وفق خطّة محكَمَة لا أدري ما طبيعة تفاصيلها وأهدافها.

وضَعَ رشيد إبهامه وسبابته على ذقنه، علامة التفكير العميق، وقال:

- خطّة ربما أحسّ بالخطَر يتهدّدها بعد زيارة الناشر السابق لمكناس وسؤاله عن رفيق وإمكانية تأليفه للروايات، ثم جاءَ لقاء المستشفى يوم السبت 20 مايو 1989. فأجبرك على المغادرة بسرعة، أليس كذلك؟

وضعَت يدها في جيب الروب المنزلي الفضفاض، وردَّت ببطء، متأمِّلَة نقطة ما في الطاولة الزجاجية:

- حملت ابنتي جنان بين يدي، ورغم إرهاقي الشديد انتبهت للعجوز الذي نادى سمير أكثر من مرة فتظاهَرَ بتجاهله، وبرَّر تصرّفه فيما بعد بأنه لم يرد تضييع الوقت في ثرثرات فارغة مع أشخاصٍ لا يعرفهم، مما يتعارَض ضمنياً مع ما أعرفه عنه، بوصفه رجلاً يبحث دائماً عن علاقات اجتماعية متعدِّدة وسلسة.

سألتها:

- هل كنتِ تعرفين بأنّ الرجل هو ناشر الرواية؟

- لا، ونسيتُ أمر تلك الواقعة تماماً، إلى أن قادتني قدماي إلى الدار البيضاء بعد انتهاء فترة الرضاعة واستعادتي لقواي.

t.me/qurssan

ثم أضافَت بعدما قررت أخيراً منح ابتسامتها الجميلة حريتها الكاملة:

- يقول خبراء علم الجريمة بأن معظم مرتكبي جرائم القتل يعودون إلى أماكن ارتكابها. إذا اعتبرنا الكتابة جريمة، فأنا لم أقاوم رغبة لذيذة في الذهاب إلى دار النشر، لإلقاء نظرة على نسخ الرواية في المكان الذي حوَّلها من مخطوط إلى كتاب مطبوع، وهناك رأيت الناشر العجوز جالساً خلف مكتبه، وفهمتُ كلّ شيء عندما ربطتُ بين إعلان الاختفاء والاسم المستعار وحادثة المستشفى والناشر المهتم بمعرفة هوية المؤلّف المجهول.

- وماذا عن سمير، كيف كانت علاقتكما بعد ولادة جنان؟ وهل نَسِيَ فعلاً ماضي العلاقة الثلاثية المضطربة؟

- كانت شهور حملي الأخيرة مبرّراً كافياً للبقاء بجانب أمي والاحتماء بضرورة اعتنائها بي، فوافَقَ هو على رغبتي مرغَماً، لكن انتهاء فترة الرضاعة وضَعَني أمام الحقيقة المرّة، فالمنطق يقول بأنني سأعود معه إلى مكناس، وسأطالب وقتها بتقديم واجباتي الزوجية كأيّ امرأة طبيعية.

لمعت عيناها مع نطقها لكلمات الجملة الأخيرة، فتمنَّيتُ لو تشرح أكثر رغم إدراكي لقصدها، لكن نظراتها المختلسة تجاه رشيد أفهمَتْني بأنها لن تضيف شيئاً إلّا في مجلسٍ نسائي خالص.

- ألم تعتبري عرض سمير بالزواج منكِ وتبنّي الطفلة رغم علمه بكلّ ما جرى دليلاً على حبٍّ حقيقي؟

قال رشيد باهتمام، فمرَّرَت يدها على شعرها الكستنائي بحركة عفوية محببة:

- في البداية نعم، قدَّرتُ ما فَعَلَه معي، لعلمي بأنه غامَرَ بوضع

t.me/qurssan

نفسه في مواجهة غير متكافئة مع مجتمعٍ لن يرحمه وسينظر إليه بعين الريبة، وقد أكون المتّهمة مرة أخرى، بلجوئي مثلاً إلى السحر والشعوذة لإنقاذ سمعتي وإجبار رجل أعزب على الزواج بي وأنا حامل بطفلة من رجل آخر اختفى ليلة خطبتي له، لكن توالي الأيام وعيشي معه تحت سقفٍ واحد أكّد لي بأنّ ما سبق ولادة جنان لن يكون أبداً كما بعدها، وأنّ محرّك تصرفاته الغريبة لا علاقة له بالحب.

ابتسمتُ معلّقة بأسلوب الكاتبة القادرة على فهم عمق المشاعر الإنسانية:

- الغيرة، لم يكُن يحبّك بقدر ما رفَضَ تقبّل فكرة تفضيلك لرفيق عليه.

مالَ رشيد إلى الأمام، وتحدَّث بوقار ، دفعني إلى تخيّله كاختصاصي نفسي يشخّص حالة زبونه:

- ربما لم يكُن ما بينهما صداقة حقيقية راسخة، بل تنافساً خفيّاً محموماً، كان رفيق صموتاً، شبه معوّق، لكن سمير الحيوي الواثق من نفسه والمتمتّع بقدرات خطابية وإقناعية هائلة لم يستطِعْ مجاراة الإمكانات الذهنية الجبّارة لصديقه، ووجَدَ نفسه في مقارنةٍ خاسرة معه، توّجت باختياركِ لرفيق بدل الاستجابة لمحاولاته المتكررة لإغوائك.

- بالضبط. شيئاً فشيئاً تحوّلت علاقتنا الزوجية إلى حصصٍ متوالية من العذاب النفسي والمقارنات الضمنية بينه وبين صديقه السابق. يلتقط الصور لخرجاتنا أو أسفارنا على قلّتها بإصرارٍ غريب، ويمثّل أمام أبي وأمي دور أسرة سعيدة لا ينقُصها شيء، ولا يمنح ابنتي جنان الاهتمام والرعاية كما تستحقّها أي طفلة في عمرها، وعندما واجهته بالأمر في شجارٍ ملتهب بيننا، لم يتحرّج من توجيه

t.me/qurssan

طعنة نجلاء إلى قلبي بقوله إنه لا يشعُر تجاهها بشيء، ما دامت ثمرة علاقتي بغريمه المعوّق.

تهدَّجَ صوتها، فأكمَلَت بتهكّم:

- ولعلمكما، فالأستاذ والطالب الجامعي المثقّف والمتفتّح والمتنوّر الذي لم ينجز شيئاً من قائمة مشاريع ثقافية وأدبية صدّع رؤوسنا بها في السابق، رفَضَ حتى فكرة استئنافي للدراسة، وأصرّ على أنّ علاقتي بالجامعة قد انتهت، وأن الأفضل لي هو البقاء في البيت!

أطلق رشيد ضحكة قصيرة مردِّداً:

- كلّنا منافقون، كلّنا منافقون...

ثم صمتَ طويلاً قبل أن يسألها:

- هل اكتشفَ سمير وجود علاقة ما بينك وبين أحجية مغربية ورفيق خالدي؟

- تقريباً لا، إذ حصلَ على نسخة من الرواية فيما بعد، وقرأها خفية، غالباً ليبحث عن شيء ما لم يَعثر عليه في نهاية المطاف، فنسي أمرها تماماً. ربما شك في كلام الناشر وذلك التشابه الواضح بين اسم غريمه والاسم المستعار.

وتابعت بخُبث غير معهود:

- ولكما أن تتخيّلا شعوري وأنا أتقاسم حياتي مع زوجٍ لا يدري بأنّني مساهِمَة بشكلٍ ما في كتابة الرواية التي يقرؤها.

ثم التفَتَت إليّ مع سؤالي:

- ألم تُشعِرك كلّ هذه التصرّفات المتناقضة بالشكّ؟ لا تفسير لإصراره على عقد المقارنات والاستهزاء بصديقه السابق سوى علمه بأنّ رفيق على قيد الحياة!

t.me/qurssan

أيّد رشيد كلامي بالقول:

- نحن نقول بما معناه، اذكروا موتاكم بخير، والغائب حجّته معه، معك حق يا كريستين، مجتمعنا يتعامل بنوع من الاحترام اللاشعوري مع الموتى والمفقودين.

- كان صراعاً رهيباً بين الحدس والمنطق، الحدس يقول بأنّ سمير مسؤول عن اختفاء رفيق، والمنطق يقول بأنّ أمراً كهذا مستحيل، لعَدم وجود أيّ دليل. المهم أنّ الوضع استفحلَ أكثر، مع انفجار حدّة خلافاتنا وتحوّل شجاراتنا إلى طقسٍ يوميّ، ومطالبتي المستمرة بالحصول على الطلاق، إلى أن وصلت الأمور ذروتها ذات ليلة ممطرة، بعد مرور ثلاث سنوات على زواجنا.

تابعتُ حركة شفتيها بترقّب، كطفلة تنتظر تتمّة حكاية ترويها جدَّتها.

- عاد يومها بعد سهرة خمرية مع أصدقائه. كنت نائمة، ولم أغلق دُرج خزانة ملابسي، فاكتشف وجود علبة حبوب منع الحمل.

خفضَ رشيد عينيه، ورانَ الصمت، قبل أن تقطعه هي بما يُشبه التبرير:

- نعم، أجبرتُ في البداية على قبول عرضه بالزواج، لكنني لم أفكّر أبداً في إنجاب طفل منه.

غامت عيناها بالدموع، فاقتربتُ منها، وأمسكتُ بيدها متمتمة بإشفاق:

- آمنتِ في أعماقكِ بإمكانية عودة رفيق يوماً ما.

ردَّت بتأثّر دفَعَني إلى إحاطة كتفها بذراعي:

- نعم، رفضَ عقلي وقلبي وكلّ جوارحي تصديق فرضية موته...

t.me/qurssan

وأكملت بعد محاولتها إظهار بعض القوة في نبرة كلامها:

- تشاجرنا من جديد، فأوسعَني ضرباً ومزَّق أذني بسبابه الجارح وانتقاصه المهين من كرامة الجميع، أنا ورفيق وجنان، ثم خرَجَ، ولم أسمَع عنه شيئاً إلّا صباح اليوم التالي، عندما اتَّصلَ بي مَن يُخبرني بتعرّضه لحادثة سير خطيرة.

ارتعشت يدي الممسكة بكتفها، ولم ينتبه رشيد لسقوط فكّه السفلي من شدّة تركيزه.

- هرعتُ إلى قسم المستعجلات بالمستشفى، حيث أرعَبَني ما رأيت، ساق مكسورة وضلوع محطمة ووجه فَقَدَ كلّ علاماته المميّزة. أخبَرَني الأطباء باستحالة نجاته، فقد صدمته سيارة نقل مسرعة وهو يغادر إحدى الحانات ثملاً. ظللتُ بجانبه خلال ساعات احتضاره الأخيرة وتأرجحه المؤلم بين اليقظة واللاوعي، فماتَ وهو يكرّر بصعوبة بالغة اسم الدوار الذي يعمل فيه أستاذاً، دوار الحاج قدور، دوار الحاج قدور...

هتفتُ باستنكار:

- ولكن ما علاقة الدوار بالموضوع؟ ولماذا أصرَّ على تكرار اسمه قبل وفاته؟

- لم أفهَم شيئاً وقتها، واعتبرتُ الأمر هذيان شخص يلفظ أنفاسه الأخيرة، لكن وفاة سمير أحيَت لغز اختفاء رفيق من جديد، فظهرَت مفاجأة غير متوقّعة حول ماضيه.

- ما هي؟

- علاقته بقضية الزيوت المسمومة...

* * *

t.me/qurssan

فيديو برنامج لخطر القتلة حول العالم - حلقة خاصة عن قاتل رقعة الشطرنج - قناة تي إف 1 الفرنسية - إنتاج عام 2012

مقطع من الدقيقة 44 إلى الدقيقة 47 (تمّ نقل الترجمة العربية التي يوفّرها موقع YouTube):

معد البرنامج: أنت كصحافية روسية قامت بتغطية تفاصيل القضية المرعبة لحساب الصحافة الروسية والبريطانية، كيف شعرتِ مع الإعلان عن إلقاء القبض على ألكسندر بيتشوشكين سفّاح بيتسا بارك يوم الجمعة 16 يونيو 2006؟

يانا زارشينسكايا: بالسعادة طبعاً، فقد استعدتُ هدوئي بعد شهورٍ طويلة من العمل المتواصل. حتى سكان موسكو تنفّسوا الصعداء أخيراً، وتمكّنوا من العودة إلى الحديقة التي يحبونها للتجوّل ولعب الشطرنج بكلّ حرية، والطريف أنّ بعضهم استعادَ حسّ الدعابة أيضاً، فقد لاحقَني كهل أصلع ظريف لعدة أيام بعد انتهاء القضية، ليخبرني بأنه كان معتقلاً في كراسنوكامنسك، وأن أحد السجناء هناك تمكّن من حلّ اللغز بمفرده!

معدّ البرنامج: وهل صدّقْتِه؟

يانا زارشينسكايا: بالتأكيد لا، فقد نقل إليّ حرفياً ما توصّلَت إليه الشرطة بعد تحقيقها مع السفّاح واعترافه بجرائمه، وعندما تبيَّن له أنّ دعابته لم تَجد عندي التجاوب المطلوب انسحب، ولم أرَه بعد ذلك أبداً!

* * *

t.me/qurssan

(15) النفق

إذا كانت الحياة مفاجأة كبيرة، فلمَ
لا يكون الموت مفاجأة أكبر؟

فلاديمير نابوكوف

الأحد 22 سبتمبر 2019
ضواحي كراسنوكامنسك- سيبيريا:

مدَّ أصلان، السجين الشيشاني الشاب، يده الصغيرة إلى جبهتي، وتحسّسها بضع ثوان، قبل أن يقول بخوف:

- حرارتكَ مرتفعة، أنتَ بحاجة تدخُّلٍ طبّي عاجل، أخشى أن تكون الأعراض نفسها...

كان ملمَس يده المثلجة على جبهتي الملتهبة كافياً ليرتفع جفناي الثقيلان، فتطلّعتُ إلى وجهه الطفولي ولحيته الحمراء ذاهلاً، وتحرّر لساني من جموده بعد صمتٍ طويل كادَ يلامس مرتبة الخرس، لأردّ بصعوبة:

- أعراض؟ تدخّل طبّي هنا؟ منذ متى كان الطب قادراً على إحياء الموتى؟ هل ستبدأ مراسم الدفن؟

t.me/qurssan

قال بصوتٍ لا أدري إن كان مضطرباً أم أنّ ذهني المرهق عجز عن تحليل طبيعة نبرته:

- انت تهذي، سأنادي أحد الحراس لاصطحابكَ إلى متوصف السجن...

لم ألقِ بالاً لانسحابه، ودارت عيناي في محجريهما مع تركيزهما على السقف، قبل أن يقودني الغثيان إلى إفراغ حساء وجبة الغداء على البلاط الأبيض.

أجبر القيء جسدي على الاهتزاز بحركات عنيفة أشعَرَتني بأنّ معدتي ستقفز بدورها عبر فمي المفتوح، ثم خارَت قواي وسقطَ رأسي على الوسادة كصخرة ثقيلة.

سرى في عروقي شعورٌ وهميّ بالراحة بعد بَذْل جسدي الواهن مجهوداً رهيباً، ولم تَجد ذاكرتي المثقوبة شيئاً لتستحضره سوى تفاصيل خيبة ضربَت مسعاي في مغادرة الجحيم السيبيري، قبل ثلاثة عشر عاماً...

انتظرتُ طويلاً بعد مغادرة فاسيلي للسجن وانقطاع أخباره، ورغم تظاهري باليأس إلّا أنّ أعماقي لم ترفض الاستسلام، وتمسَّكت بخيطِ أملٍ واهٍ في قدرته على فعلِ شيء.

ألا تلجأ السفينة بعد هبوب العاصفة إلى أيّ ميناء قد تجده أمامها؟

المطلوب منه التواصل مع الصحافية، واستغلال حالة السخط الشعبي العارم على تصاعد عدد ضحايا السفّاح لإثارة قضيتي وإجبار الشرطة على الإفراج عني.

توالَت أيام الترقّب، وانتهَت بصدمة مؤلمة...

وصلت الجرائد إلى السجن، متأخّرة كعادتها، فعلمتُ معها بأنّ

t.me/qurssan

شرطة موسكو قد تمكَّنَت من إلقاء القبض على القاتل المتسلسل يوم 16 يونيو 2006، أيّ أربعة أيام قبل الإفراج عن فاسيلي.

إذا افترضتُ التزامه بوعده لي في البحث عن يانا زارشينسكايا، وما سمعته عن استغراق الرحلة البرية بين كراسنوكامنسك وموسكو ثلاثة أيام تقريباً، فمن الطبيعي أن يصل بعد مرور أسبوع كامل على الإيقاع بالمجرم، وبالتالي لن تصدّقه يانا أو غيرها إن تحدَّث عن سجين يبعد عن موسكو سبعة آلاف كيلومتر، اتّهموه ظلماً بما اقترفته يدا قاتل طليق، وتمكّن رغم ذلك من حلّ اللّغز بمفرده!

بدأت الصحافة في نقل تفاصيل التحقيق مع السفاح، فاتّضحت الصورة الكاملة المفاجئة لهم، والمضحكة بالنسبة لي، ما دامَت مطابقة تماماً لاستنتاجاتي...

كانت مارينا موسكاليوفا الضحية الحادية والستين بالفعل، إذ عثروا على جثتها يوم 14 يونيو بالحديقة ذاتها، وفي مكان مختلف عن موقع العثور على الجثث السابقة، لكن الجديد هذه المرة كان تذكرة مترو في جيبها، تتضمّن زمان ومكان دخولها إلى المحطة آخر مرة.

تمَّت مراجعة كاميرات المراقبة بالمحطّة في ذلك الحيّز الزمني المحدّد، واكتشفوا أنّ المرأة كانت على موعدٍ مع رجلٍ يقاربها في السن، اصطحبها إلى الخارج، وبدت مرتاحة جداً معه.

تعرّفوا على هويتها، امرأة في السادسة والثلاثين من عمرها، تعيش في حيّ هامشي بموسكو رفقة ابنها الصغير، قال شهود بأنها قابلَت مؤخّراً رجلاً في بداية الثلاثينيات، وربما أقامت معه علاقة عاطفية.

تعدَّدت لقاءاتهما، وقبل خروجها آخر مرة لرؤيته، تركَت رقم

t.me/qurssan

هاتفه لابنها، فوصَلَت الشرطة إلى الرجل، حاصَرَتْه بالأدلّة وصور كاميرات المراقبة، فاعترفَ أولاً بأنه قاتل مارينا، قبل أن يضيف بافتخار مذهل أنه هو سفاح بيتسا بارك الشهير.

رجل في الثانية والثلاثين من عمره، اسمه ألكسندر بيتشوشكين، يعمل في إحدى الأسواق الممتازة بالعاصمة، ويقيم مع والدته في شقّة بعمارة سكنية تطلّ مباشرة على الحديقة!

تمّ تفتيش المنزل، فعثروا على رقعة شطرنج قام بيتشوشكين بوضع أرقام على مربعاتها.

57	58	59	60	61			
49	50	51	52	53	54	55	56
41	42	43	44	45	46	47	48
33	34	35	36	37	38	39	40
25	26	27	28	29	30	31	32
17	18	19	20	21	22	23	24
9	10	11	12	13	14	15	16
1	2	3	4	5	6	7	8

كلّ رقم يطابق ضحية، مع تذكّره بدقّة مدهشة لأسماء ووجوه مَن قتلهم...

وهكذا أطلقت عليه الصحافة لقب قاتل رقعة الشطرنج، بعدما اعترفَ بكلّ ما استنتجته أنا، بل مضى أبعد من ذلك وقال بأنه كان سيتجاوز الرقعة ذاتها لو لم تنجح الشرطة في الوصول إليه، وعندما حاولوا العودة معه إلى بداياته الأولى في الإجرام، تحدّث عن ولعه بالشطرنج، وتخلّي والده عنه ورحيله عن البيت، ثم لخّص كلّ شيء

t.me/qurssan

بمقولة لن تَصدر إلّا عن روسي نشأ في بلدٍ أنجبَ دوستويفسكي وتولستوي وليرمنتوف وتشيخوف والبقية:

جريمة القتل الأولى كعلاقة الحب الأولى، كلاهما يصعب نسيانه...

أصدر القاضي حكماً بالسجن المؤبّد عام 2007، مع إيداعه في سجن بوليارنايا صوفا، بعد إدانته بارتكاب 49 جريمة قتل ثابتة في حقّه، فطلبَ هو بكلّ هدوء إضافة اثنتي عشرة ضحية أخرى، بمجموع 61، احتراماً لقانون رقعة الشطرنج كما ألزَمَ به نفسه!

الطريف (إن أمكَنَ إدراج الطرافة هنا) هو اشتراط المحكمة قضاء المتّهم الخمسة عشر عاماً الأولى في حبس انفرادي.

كبطل قصّة الرهان بالضبط!

في النهاية، أغلقت قضيته هو ونَسيه الجميع، وبقيت قضيتي أنا مفتوحة، دون أن يعلَم عنها أحد شيئاً...

لو كان الأمر بيدي لطلبتُ تصحيح معلومات الصحافة، وقلت بأنّ لبيتشوشكين ضحية أخرى، اسمها زهير بلقاسم، أو ألكسندر جازدانوف، رغم أنّني حيّ «أرزق».

وفي أحيان كثيرة، قد نقتل أحدهم بإبقائه على قيد الحياة...

مرَّت سنوات، دخلتُ خلالها نفقاً طوله ثلاثة عشر عاماً، لم يظهر خلالها ذلك الضوء المميّز في نهايته، ولم أستطِعْ حتى العودة إلى مدخله.

يفرج عن سجناء ويأتي آخرون، أسمَع عن ظهور هواتف محمولة تعمَل باللمس وتلتقط الصور، وانتشار مواقع تراسل فوري وتواصل اجتماعي يعبّر فيها الناس عن آرائهم ويشاركون صورهم مع متابعين آخرين.

t.me/qurssan

يتغيّر العالم من حولي، وأنا حبيس العدم، لا حاضرَ لي ولا مستقبل، ويتعاقَب على تسيير السجن مدراء لا يعترفون سوى بما بين أيديهم من وثائق مزوّرة تقول بأنني متّهم بارتكاب اثنتي عشرة جريمة قتل...

السنوات الأربع الأولى بعد احتجازي كانت أكثر حيوية، عندما تابعتُ تطوّرات قضية القاتل المتسلسل، لكن ماذا بعد؟

ماذا سأقرأ في الصحف الآن؟

تبادلٌ للسلطة بين بوتين وميدفيديف، عملية احتجاز رهائن أخرى في مدرسة أطفال ببيسلان، نزاع مع جورجيا حول أبخازيا وأوسيتيا الجنوبية، أزمات مع أوكرانيا واستقلال القرم، ثم تدخّل مباشر في حرب أهلية سورية أزهقت أرواح مئات الآلاف وشردت الملايين.

وكلام فارغ لا طائل منه، لن يفيد سجيناً في أقصى نقطة في سيبيريا بشيء...

طبيعي جداً أن أفكّر في الانتحار أكثر من مرّة، لكن آية في سورة البقرة، قرأتها في مصحف صغير، تركه معتقل شيشاني سابق بعد الإفراج عنه، أنقذَتْني من ذلك الوسواس:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ (155) ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ (156)﴾ صدق الله العظيم.

فصبرت أكثر...

ولأنّ المصائب كائنات اجتماعية بطبعها، فقد تسلّل قاتل صامت جديد لسَحق ما تبقّى من عنفوان شبابي، دون أن أحسب له أيّ حساب...

t.me/qurssan

تعاون حارسان على حمل جسدي النحيل بلا اكتراث، وقال أحدهما بضجر:

- متى سيغلقون هذا السجن الكئيب، سنموت جميعنا كالفئران، حراساً وسجناء!

علا التقزّز وجه الآخر وهو يتطلّع إلى عينيّ الزائغتين وآثار القيء على لحيتي فردَّ على زميله:

- سيموت مثل مَن سبقوه، ماذا تتوقع من سجن بُني فوق منطقة تسبَح في بحرٍ من اليورانيوم، فضيحة تشيرنوبل وصلت إلى العالم أجمع، ولكن ماذا عمّا يجري هنا؟

- على ذكر تشيرنوبل، يُقال إنّ المسلسل الأميركي رائع جداً، وحصَلَ على تقييم نقديّ وجماهيري مميّز، رغم تحيّزه الواضح ضدّنا في مناقشته لأسباب الكارثة...

ضحك الآخر مجيباً:

- سينتجون بعد سنوات قليلة جزءاً ثانياً عنوانه: كراسنوكامنسك!

تحوَّلت سخريتهما إلى الصمت مع دخولنا إلى المستوصف، فأغمضتُ عينيّ العاجزتين عن تحمّل الضوء القوي، وبلغني صوت الطبيب القائل بلا مبالاة واضحة:

- ضعاه هنا، سأرى ما الذي يمكنني فعله، يمكنكما المغادرة...

مرَّت دقيقة كاملة، نجحتُ خلالها في فتح عيني ببطء، لتتداخل الألوان أمام بصري المشوّش.

- هل أحلم أم ماذا؟ غير معقول! زهير، هذا أنت؟

t.me/qurssan

تطلَّعتُ إلى وجه الطبيب الأشقر ذاهلاً، فهزّني بقوّة وهو يهتف:

- أنا سيرجي، سيرجي كرياتشكوف، صديقك القديم في موسكو، هل تذكُرني؟

* * *

t.me/qurssan

رسالة بعثتها ممرّضة سويسرية إلى زوجها في جنيف في أثناء وجودها بالمغرب، قامت لبنى العفوي بترجمتها إلى العربية وإلحاقها بأطروحتها حول كارثة الزيوت المسمومة لسنة 1959، ضمن رصدها لشهادات الأطر الصحية الأجنبية حول آثار الكارثة على الضحايا المغاربة (فضّلت الباحثة ترجمتها ونشرها كما هي، رغم احتوائها على بعض التفاصيل الحميمية والشخصية التي قد لا تهمّ القارئ في شيء):

حبيبي لوريس...

احبك، ولا يشغلني عن عَدّ أسابيع وأيام وساعات تفصلني عن العودة إلى جنيف والارتماء في حضنك الدافئ مرة أخرى سوى الواجب، ما يحتّم عليّ البقاء هنا إلى حين انتهاء مهمّتي الإنسانية.

اعلم أنّ الأمور سارت عكس ما توقّعه كلانا، فقد قطعتُ شهر عسلنا في الكوخ الجميل بجبال جورا على الحدود السويسرية الفرنسية، وأُرغمت على تَرك فراش حبّنا المشتعل بعد توصّلي ببرقية الصليب الأحمر السويسري، وكانت تقتلني نظرات الأسى الواضح في عينيك العسليتين، لكنها ظروف عملي التي وافقتَ عليها منذ البداية...

كما وعدتكَ في اتصالنا المقتضب الأخير، أبعثُ لكَ هذه الرسالة لأشرح لكَ ما جرى بالتفصيل المملّ، مُذ تبادلنا قبلتنا الأخيرة في المطار، إلى حين إمساكي بالقلم الآن للكتابة.

أزعجني حديث البعض في الطائرة عن المغرب باستهزاء وما يشبه الاحتقار، لمجرّد انتمائهم إلى قارّة يحسبون أنها تمنحهم تفوّقاً حضارياً على الآخرين.

ما دامت نظرتهم للبلد الشمال أفريقي دونيّة وعنصرية هكذا، ما الذي دفعهم إذاً إلى المشاركة في البعثة؟ لماذا يَضربون روح عملٍ إغاثي نبيل لا يعترف بجنس أو لون أو عرق أو دين في مقتل؟

المهم، بمجرّد وصولنا إلى هناك، وجدنا في استقبالنا ممثّلاً عن وزارة

t.me/qurssan

الصحة المحلّية، رحّب بنا ونظّم حفل غداء بانخاً على شرفنا، مؤكّداً استعداد السلطات المغربية لتوفير كلّ التسهيلات لأداء مهامنا بيُسر.

الواقع أنّنا استغربنا قليلاً تصرّفه...

نحن قادمون في مهمة إغاثة عاجلة، والبلد يُعاني من آثار كارثة لم اسمع بمثلها من قبل، مما لا يحتمل فكرة تنظيم حفل، وإن كان ذلك تعبيراً لطيفا عن كرم سمعنا أنّ المغاربة معروفون به!

عرج المسؤول على موضوع بعثتنا، فاشتكى من ضعف الإمكانات المتوفرة، وعدم كفاية المساعدات المالية والتقنية والطبية المتقاطرة على موانئ ومطارات المغرب فور وقوع المأساة، ونقص الأطر المحلية المدرّبة والقادرة على التعامل مع الوضع المعقّد، ناقلاً إلينا تصريح وزير الصحة حول استحالة قدرة بلده على استيعاب متطلّبات عدّة آلاف من الضحايا في وقت واحد...

اندهش معظم الحاضرين بعد سماعهم كلامه، وهم ممرضون وأطباء وخبراء من جنسيات مختلفة، فرنسيون وسويسريون وهولنديون وألمان وكنديون وسويديون، لأنه يعاكس كلّ ما تلقيناه في سويسرا من تطمينات حول تعاون منظمة الصحة العالمية والصليب الأحمر الدولي لإيصال المساعدات التي تشمل الأدوية والمؤن والتجهيزات والمعدات المستخدمة في إعادة تأهيل المصابين إلى مَن يحتاجها.

وجد البعض منّا الشجاعة لسؤال ممثل الوزارة، فاكتفى بتكرار ما قاله بطريقة أخرى، والتأكيد على شكر المغاربة لنا على تضحياتنا ورغبتنا الصادقة في مساعدتهم في الظرفية الدقيقة التي يمرّون بها، ثم انسحب بشكلٍ مريب!

قيل لنا إنّ الاجتماع الذي تمّ بجنيف، بين موفدين من الوزارة المغربية المعنيّة وعصبة جمعيات الصليب الأحمر، أفضى إلى اتّفاق يقضي بإنشاء مستشفى مخصّص لاستقبال الضحايا، يرتبط بدوره بعدد من الوحدات الصحية المتفرّقة في المناطق المتضرِّرة من البلاد.

على أيّ حال، تمّ إرسالي إلى أحد المراكز القريبة من مدينة اسمها

t.me/qurssan

مكناس، وهناك قطعت الشكّ باليقين، بعد وقوفي على هَول ما وقع، بعيداً عن كلّ ما سمعته.

ومَن رأى ليس كمَن سمع...

سأنقل لكَ يا عزيزي كل شيء، كما لو كنتَ تشاهد فيلماً سينمائياً!

أفهمني السائق المغربي بفرنسيته الركيكة أنّ المركز يتموقع بضواحي إحدى المدن التي ضربتها الكارثة، ما يعني اضطرارنا لسلك بعض الطرق غير المعبدة، حيث اهتزّ بدن السيارة المتهالكة أكثر من مرّة، وأجبرني الغثيان على إفراغ ما في جوفي مرتين، ما تطلّب استعانتي بمهدّئ قويّ جعلني أشبَه بالمخدرة طوال ساعات الرحلة ومنع ذاكرتي من تسجيل تفاصيل الطريق.

(اعتبر من حسن حظّي أنك لم تَرَني في أسوأ حالاتي وهو ما لم تألفه عيناك من قبل، لربما ندمت ألف مرة على زواجكَ بي!)

توقفت العربة بالقرب من بناءٍ يبدو متماسكاً وقوي الأساسات رغم قِدَمِه الواضح، فاعتقدتُ أنها محطّة قصيرة تهمّ السائق في شيء يخصّه هو، لكنه فاجأني بإعلانه عن وصولنا إلى المركز الصحّي المقصود، مضيفاً أنّ الأمر يتعلق في الأصل بمدرسة قديمة بناها الفرنسيون خلال فترة وجودهم بالمغرب قبل حصوله على استقلاله، وأصبحت مهجورة بعد رحيلهم، ليتفتق ذهن أحدٍ ما عن فكرة تحويلها إلى مركز طبّي مستعجل للتعامل مع توابع الكارثة!

وماذا عن الاتفاق الذي يقضي ببناء وحدات جديدة في مواقع مختارة بعناية، بما يناسب الحالة الصحية الدقيقة للضحايا المصابين بالتسمّم؟ لا أدري...

منعني الحماس والرغبة الجامحة في تنفيذ مهمّتي -كيفما كانت الظروف- من الانشغال بالسؤال، غير عالمة بأنّ دخولي إلى المكان سيَضعني في مواجهة قائمة طويلة لا تنتهي أسئلتها، تبحث عن إجاباتها فتجد نفسك حبيس علبة دمى ماتريوشكا روسية، تتناسَل معها أسئلة أخرى جديدة!

لحقت بالسائق الأسمر الذي دارَ حول المبنى نصف دورة، متّجهاً نحو الباب الخلفي، لأصدم بجلبة لا علاقة لها بهدوء الواجهة الأمامية.

t.me/qurssan

العشرات من مختلف الأعمار، نساء يرتدين الجلباب أو غطاء علمتُ فيما بعد أنّ اسمه «الحايك»، ويخفين وجوههن بخمار أسود لا يسمح سوى بظهور عيونهن، أطفال حفاة أو بأسمال بالية...

ورجال وحّد الألم ملامح وجوههم، كهولاً كانوا أو شباباً...

استخدم معظمهم عصياً على شكل عكاز يعينهم على المشي، متكئين على أكتاف بعضهم، وعلامات الألم الفظيع غير المحتمل تترك أثرها على وجوههم، مع تصاعد صرخات وبكاء الأطفال -الذين تمّ حلق رؤوسهم بطريقة غريبة- إمّا من الألم الشديد، أو عدم القدرة على مواجهة قيظ لم أتوقّعه، أنا المعتادة على طقس يميل للبرودة أو الاعتدال.

تساءلت عن المغزى من ترك المرضى والمصابين هكذا، فانبعث فجأة من العدم رجلان، أحدهما يرتدي وزرة بيضاء، مما يوحي بكونه ممرّضاً على الأغلب، وآخر ببذلة رسمية وربطة عنق زاهية الألوان، يمشي بخيلاء كريه، انطباع عزّزته نظرته المتعالية نحوي، وهمسه بكلمات معيّنة في أذن صاحب الوزرة، الذي بدأ في الصراخ والوعيد ودفع المرضى نحو الحائط، كما لو كانوا أغناماً، لا بشراً، حتى مع محاولتهم المستميتة للدفاع عن أنفسهم وتحمّل آلامهم المبرحة.

سقط طفل أرضاً، فأطلق صرخة حادّة جمعت بين الرعب والألم، وحاولت أمه المُصابة إسعافه مقاومة صعوبة حركتها، فعاجلها صاحب الوزرة بدفعة أسقَطَتْها بدورها، وسط احتجاج البقية وحيرتهم بين مواجهة صلف الممرّض المفترض ومغالبة مشاكلهم الصحية الصعبة.

كان مشهداً مرعباً يا لوريس، هل يمكن لإنسان عاقل أن يُعامل آخر مثله كأنه أقلّ مرتبة منه، أو كأنه ليس كائناً بشرياً على الإطلاق؟

تجاهلت إرهاق السفر وصدمة ما رأيت، فهاجمت صاحب الوزرة البيضاء، معبِّرة عن احتجاجي الصريح تجاهه بكلمات قاسية وواضحة، أعلم يا لوريس أنك تخشاها عندما أكون عصبية بعض الشيء، فواجهني المغرور الآخر باستهزاء وعبارات باللغة العربية، لم يُترجمها لي أحد...

تدخّل السائق المغربي ودفَعَني برفقٍ للدخول إلى المبنى القديم، حيث وجدت في استقبالي البروفسور الفرنسي غايل، ومعه الخبير السويدي

t.me/qurssan

ميلينسون، اللذين رحّبا بي، ونصحاني بأخذ قسطٍ وافر من الراحة يسبق بدء العمل، ملمّحين إلى انه سيكون مضنياً وفي ظروف صعبة للغاية.

كلّ هذا مع عجزي عن الإجابة عن سؤال بسيط جداً: ما الذي يجري هنا؟

لم تدُم حيرتي طويلاً، فقد استقبلتني ايضاً بعض الممرّضات المشتغلات بالمركز، كلهن مثلي، قادمات من اوروبا في إطار المهمة الإنسانية الإغاثية، مع وجود بعض الراهبات الفرنسيات، ممّن قضين سنوات طويلة في المغرب، ولا يرتبط وجودهن بالصليب الأحمر أو الكارثة وحدها فقط.

فهمتُ من كلامهن أنّ الشعور الضمني العام لدى أعضاء البعثة هو وجود مَن يُعرقل عملهم، وعن سبق إصرارٍ وترصّد...

يقضي الاتّفاق ببناء وحدات صحية جديدة، فتتمّ الاستعانة ببنايات قديمة مهجورة وغير مناسبة...

تُوصي منظمة الصحة بتزويد المركز بآليات تقنية متطوّرة وعدد محدد من الاسرّة والاغطية، فتصل الاجهزة وبعضها معطّل، والاغطية بالية وممزّقة، والاسرّة غير مطابقة للمعايير المتّفق عليها.

من دون الحديث عن سرقة جزء من المؤن المخصّصة للضحايا بشكلٍ مستمرّ...

إنها الثنائية نفسها دائماً: عدم تنفيذ المهام المطلوبة بالشّكل الأمثل، وتجهيز الذريعة المناسبة لتبرير ذلك...

تحدّثت الممرضات عن صراعٍ خلف الكواليس، يدفع ضحايا الكارثة ثمنه الباهظ.

حزب يريد الاستئثار بملفّ كارثة الزيوت المسمومة لحسابه وأغراضه السياسية الضيقة، فيروّج في أوساط المغاربة البسطاء ممّن لم يكونوا محظوظين بالجلوس ولو ليومٍ واحدٍ على مقاعد الدراسة، إشاعات مضحكة، اننا نتآمر عليهم لقتلهم، وأدويتنا مسمومة أو ممزوجة بالخمور وشحوم الخنازير المحرّمة في ديانتهم، وهدفنا الحقيقي إبعادهم عن الإسلام ونشر المسيحية في صفوف أبنائهم.

ما هذا السخف يا لوريس؟

t.me/qurssan

الضحايا كثر، والوضع لا يَحتمل ايّ مماطلة أو تأجيل، وهم يضربون بمجهوداتنا العظيمة عرض الحائط، كما فعلوا مع البشر أنفسهم، ويتصارعون حول مكاسب أراها انا تافهة جداً!

أنا ممرِّضة خبيرة بالتعامل مع الحروب والكوارث الطبيعية، أشتغل منذ سنوات طويلة مع الصليب الأحمر الدولي، زرتُ برلين المقسَّمة والمنهكة نهاية الأربعينيات، وكوريا خلال الحرب التي انتهت بتجزئتها بداية الخمسينيات، والسويس المصرية قبل بضع سنوات فقط...

أؤكّد لك بأنّ غرابة ما عايشته هنا بالمغرب أكبر من قدرتي البسيطة على الوصف، مع أنه بلد يختلف عن سابقيه بعدم تعرّضه لحرب تقليدية مدمِّرة!

أخبرتني الممرضات أنّ المغرور الذي رافَقَ صاحب الوزرة البيضاء مسؤول حزبي لم يعُد له من هَمّ سوى التردّد على المركز بين الحين والآخر، مانحاً نفسه سلطة وهمية بالمراقبة، وتحريض عدد من الممرضين والمتخصّصين المغاربة ممّن أوكلت للبعثة مهمّة تدريبهم على تسلّم زمام الأمور فيما بعد، لمخالفة تعليماتنا وتوجيهاتنا، والتعامل معنا بنوع من الحذر غير المبّرر...

تعلم أيضاً يا عزيزي انني اجتماعية بطبعي، لم اجِدْ إذاً صعوبة في الانخراط في عملي، والارتباط بصداقة مع جوزفين، الممرضة الراهبة التي قضت في المغرب سنوات طويلة، صار فيها البلد الشمال أفريقي أحبّ إليها من فرنسا، وطنها الأصلي.

وضعتني جوزفين في إطار الصورة الكاملة لما يجري، ثم قادتني للتعرّف على مَن اتفق الجميع هنا في المركز على الوقوع في حبّه، ولم أكُن لأشذّ عن القاعدة...

اطمئن يا حبيبي، انا اتحدث عن طفلٍ في الخامسة من عمره، يحظى بتعاطفنا، مثلما تُثير قصته الغامضة حيرتنا.

هو إحدى ضحايا الكارثة أيضاً، ممّن ظلوا على قيد الحياة...

تناوبت الممرضات والراهبات والبروفسور غايل على سؤاله عن اسمه، فامتنع عن الإجابة، وحرّك رأسه بعلامة النفي عند استفساره عن هوية والديه.

t.me/qurssan

ووسط كلّ تساؤلاتهم، فاجأهم الطفل اللغز بقدراتٍ عقلية تسبِق عمره بكثير:

سهولة بالغة في فَهم التوجيهات، سواء كانت بالعربية أو الفرنسية، ذاكرة بصرية قوية، وإقبال مدهش على التعلّم.

وهوس عجيب بالأرقام...

اهتمت جوزفين بالأمر مبكراً، فأحضرت بعض الألعاب الملوّنة، ومكعبات الأحرف اللاتينية، مع مجموعة من الكتب المصوّرة المخصّصة للأطفال، أقبَلَ الطفل على تأمّل رسومها ومحاولة قراءة محتواها، مع عادة لافتة للانتباه:

ترتيب الكتب بحسب ألوان الأغلفة، وتكرار العملية بشكلٍ مختلف صباح كلّ يوم جديد، ليفهموا أنه خصّص لكلّ يوم من أيام الأسبوع لوناً محدّداً.

راقب الطاقم الطبي والمرضى أيضاً تجوّل الطفل بخطواته البطيئة المضطربة بين الأسرة لحسابها، وعدّ المرضى المتقاطرين على المركز يومياً، والتعامل بانزعاجٍ شديد مع نقص أو زيادة عنصر جديد في الطاقم، كما لو كان الأمر منغّصاً للتناغم الرقميّ الذي يريده.

كان يضبط توازن العالم من حوله، وبطريقته الخاصّة المتفرّدة...

تزامن وصولي إلى المركز مع بدء المرحلة الثانية من العلاج الطبيعي. صحيح أنني أتعامل مع كلّ المرضى، سواء المؤقتين أو الدائمين، من المضطرين للإقامة في المركز لتدهور حالتهم الصحية، بالاهتمام نفسه الذي تفرضه طبيعة مهمتي الإغاثية، إلّا أنني لا أخفي عنك إيلائي عناية خاصة بالطفل مجهول الهوية...

يا إلهي، كم هو جميل يا لوريس!

بشعره الأسود الناعم الذي يُغريك بلمسه، بعينيه السوداوين المتوقدتَين ذكاء وبراءة، الشامة التي تزيّن خده الأيسر، وصوته الجميل الذي يُحزنك أنه متعسّر وبطيء للغاية.

سننجب طفلاً بجمالٍ ملائكي مثله، أليس كذلك؟

كنت أمدّده على البساط الكبير، وأساعده على القيام بتمارين رياضية لساقيه الدقيقتين، وأخرى ليديه الصغيرتين، بحثّه على الضغط بأصابعه على كريات ملونة أو قطع من المطاط المَرِن، والانتقال بعدها إلى تسخين عضلاته

t.me/qurssan

الضامرة بمصابيح كبيرة تطلق الأشعة تحت الحمراء.

كان يهتمّ بترتيب الكرات المطاطية بحسب لونها وحجمها، وعدّها في كلّ مرة نبدأ فيها ترويض عضلاته، مع طلب تغيير اللون بما يتوافق مع يوم الحصّة المرتبط برقم محدّد في ذهنه.

طلبات غريبة كلها تدلّ على خضوع أشبه بالمرضي لنظامٍ رقميّ صارم...

وكما هو متوقّع، كان طبيعياً أن يُدخِلني هذا الاهتمام المتزايد بحالته في صراعٍ محتدم مع المسؤول الحزبي...

في كلّ جولة من جولات يعتبرها هو تفقّدية، يضايقنا بمنع الطفل بقسوة من قراءة الكتب وتأمّل صورها، محتجّاً بأنّ مصدرها راهبات همّهن الرئيس نشر الأفكار المسمومة بين أبناء المغاربة، فكنتُ أجيبه بضحكاتٍ مستفزّة تجبره على ترك الطفل البريء وشأنه.

لا تقلق يا لوريس، أنا قوية كما عهدتني دائماً، ويمكنني صدّه ومنعه من تحقيق أهدافه، ولكن إلى متى؟ لن نبقى هنا إلى الأبد، نسمع عن أجل ستة أشهر، أو سنة كحدّ أقصى، كما تقول الإشاعات القادمة من إدارة الصليب الأحمر ومنظمة الصحة العالمية، لكننا راحلون في نهاية المطاف، وأكثر ما أخشاه هو مصير الطفل ومعه عشرات المصابين بعد رحيلنا...

نحن ندرّب الممرضين، ونقوم بإعداد جداول وبطائق خاصّة تضمّ حالة كلّ مصاب على حِدة ومدى تطوّر علاجه، مما يسهّل من مأمورية الفريق المغربي بعد ذهابنا، ولكن وجود المسؤول المقيت وأشباهه يجعلني خائفة جداً على حاضر الضحايا ومستقبل علاجهم.

ومع ذلك، سأكون متفائلة وأضع ثقتي بقدرٍ رحيم لن ينسى هؤلاء المساكين في محنتهم المؤلمة.

سأعود قريباً يا حبيبي، فراش كوخ جبال جورا ينتظرنا، فبيننا كلام طويل لم ينتهِ بعد...

حبيبتك الوفية، فيرونيكا

1959-11-17

* * *

t.me/qurssan

(16) عبث الأقدار

غالباً ما يكون الكتاب الأول لأيّ
مؤلف أشبَه بالوصية.

إيريك نوهوف

الثلاثاء 29 أكتوبر 2002
كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الرباط:

آمنتُ دائماً بأنّ أطول ساعات حياتي كانت يوم الثلاثاء 20 أبريل 1999 عندما احتميتُ مع طلَبتي بالمقاعد والطاولات في ثانوية كولومباين، نرتجف هلعاً مع تواصل إطلاق النار الكثيف، وننتظر قدوم إيريك وديلان للإجهاز علينا في أي لحظة.

وجاءت الساعات البطيئة التي تَلَت لقائي الأول بلبنى لتقدّم نفسها كمنافس قويّ لساعات كولومباين...

عندما ألقت نظرة على ساعتها بحركة أنيقة مدروسة، انتبهنا فجأة إلى أنّ الوقت قد تأخّر كثيراً، بعد اقتراب عقارب الساعة الحائطية من بلوغ منتصف الليل، ولم يعُد من المناسب البقاء، فودّعناها بحَرَج، وقد بدا المشهد مطابقاً لتوقّف شهرزاد عن الكلام في حكايات ألف ليلة وليلة الشهيرة، لكنها وعدَت بمواصلة القصة

t.me/qurssan

في الغد، مقترحة اللقاء في كلية الآداب والعلوم الإنسانية، على الساعة الثانية زوالاً.

أبدى رشيد اعتراضه الصريح بعد مغادرتنا، لالتزامه بعمله في الفندق حتى الساعة السادسة مساء، وصعوبة موافقة مديره على السماح له بالمغادرة قبلها، فوعدته بنقل كلّ حرف أسمعه منها كآلة تسجيل أمينة، مثلما فعل هو عندما قابل النادل العجوز في القنيطرة.

وهكذا أمضيتُ الليلة والصباح الموالي في غرفتي بالفندق، أعدّ الدقائق انتظاراً للموعد المحدد، وأضع احتمالات لما ستكشف عنه من معلومات وأسرار جديدة حول القضية المعقّدة.

وأنقل أيضاً فكرة ملحّة سيطرت عليّ خلال الليلة الماضية إلى خانة التطبيق المباشر...

لن تكون روايتي الجديدة عن ماضي أبي في المغرب، بل عن رحلتي أنا إلى المغرب بحثاً عن ماضيه!

*

بدت لبنى أكثر ارتياحاً مع لقائنا في تمام الثانية زوالاً، وإن لم يختلف شكلها جوهرياً عمّا رأيته بالأمس.

التسريحة العملية، الملابس الداكنة الكئيبة، والابتعاد المتعمّد عن أي زينة تُذكّر مَن يقابلها بأنها بعد في منتصف الثلاثينيات من عمرها...

حيّت أحد الحراس بحميمية دلّت على أنها تعرفه جيداً، ثم دعتني للجلوس في مكانٍ منعزل بمدرج خالٍ غادره الطلبة للتوّ، ووضعت على الطاولة أمامنا نسخة عربية من رواية أحجية مغربية صرت قادرة على تمييزها، بطباعتها القديمة وأوراقها المصفرة،

t.me/qurssan

ومعها مطبوع سميك يتصدّره أيضاً عنوان باللغة العربية، لم أتمكّن من معرفة محتواه، وملفّ يضمّ حزمة كبيرة من الأوراق.

كلّ حركاتها وسكناتها تدلّ على أنها أَلِفَت الوحدة، تملأ فراغ حياتها بابنتها جنان، وتنغمس بإفراط في عملٍ لا أدري ما طبيعته بالضبط.

- بالأمس كنت مضطربة بعض الشيء، خشية استيقاظ ابنتي وسماعها لما يدور بيننا، لقد بلغت الثالثة عشرة من عمرها، لذا أحاول التوفيق بين ضرورة إخبارها بالحقيقة، وصعوبة التعامل مع فتاة في سنّها.

- هي جميلة جداً وتشبهكِ، كما رأيتها بالأمس في الصورة، لا شكّ في أنها تحمل الكثير من طباع والدها، أليس كذلك؟

قلتها بنبرة مشجّعة، وإن شعرت بألمٍ خفيّ في أعماقي، مع مرور وقتٍ طويل لم يكلّف خلاله رونالد وسيندي نفسيهما عناء الاتصال بي أو السؤال عني، فيما اكتفَت هي بشبح ابتسامة لمداراة بريق عينيها، وغيّرت دفّة الحديث بسهولة:

- غادرتُ منزل سمير بأسوء طريقة ممكنة، تلاحقني طعنات معنوية وجّهتها إليّ عائلته، باعتباري شيطانة ملعونة تحمل معها الشؤم والخراب أينما حلّت، أنا المتسبّبة في نظرهم في اختفاء رجل ومقتل آخر، ففضّلتُ التخلي عن كلّ شيء، بما في ذلك حقوقي القانونية، والعودة إلى حضن أمي.

علّقت بسخرية عصبية:

- يا له من عبث، أن يتكرَّر مشهد عودتك إلى منزل والدتك في الرباط بالحرف!

t.me/qurssan

استندت بمرفقيها إلى الطاولة، وشبكت أصابع يديها أمامها، محوّلة بصرها ناحية السورة الكبيرة.

- العبث الحقيقي هو أن يصنع مني الآخرون ما لم يشأ القدر أن أكونه، كان ذلك خطئي منذ البداية، عندما قبلت الزواج بسمير هرباً من أقاويل مجتمع لن يتوقّف محرّك انتقاداته عن الدوران مهما فعلت...

ثم أردَفت ساهمة:

- لم يكُن من السهل عليّ أن أتعامل مع واقعي الجديد بصفتي أرملة دون الخامسة والعشرين، لكنني شعرت أخيراً بامتلاكي لمصيري بين يدي، فكان أوّل قرار أتخذه هو استئناف الدراسة في كلية الآداب بالرباط، وتدبير شؤوني بأعمال صغيرة ومؤقتة، تعينني على تنشئة ابنتي والمساهمة في تحمّل مصاريف البيت مع أمي، ثم إعادة فتح ملفّ اختفاء رفيق من جديد.

شعرتُ بأنني على الطريق الصحيح للفهم، فقلت:

- ذهبتِ إلى دوار الحاج قدور...

أطلقت ضحكة عذبة، ففهمتُ بأنّ نطقي للاسم بالفرنسية لم يكُن في محله، لكنها استعادت جدّيتها بسرعة، كما لو أنّ ضحكتها ذنب صريح يستحقّ العقاب.

- لم أفهم سبب إصرار الراحل على ذكر اسم الدوار قبل وفاته، فسافرتُ إلى هناك، والتقيتُ بالسكان، فاستقبلوني وأكرَموني عندما علموا بأنني أعرف سمير ورفيق، وأصرَّت والدة أحد تلاميذهما السابقين على دعوتي للغداء.

- أنتم كرماء جداً، وقد لمستُ ذلك بنفسي عندما ذهبت رفقة رشيد إلى القنيطرة بحثاً عن النادل.

t.me/qurssan

هزّت كتفيها بحركة لم أفهم القصد منها، وتابعت:

- كان منزلاً صغيراً من حجرتين. واكتشفت بأنّ جدّ التلميذ السابق طريح الفراش، عاجز تماماً عن الحركة. ولأنّ المغاربة يتقنون فنّ الحديث عن مصائبهم ببراعة منقطعة النظير، فقد حكَت الأم معاناتها مع علاج والدها المقعَد، ضحية زيوت الأميركيين المسمومة، وكيف تدهوَرت حالته، من الآلام المبرحة في المشي وتحريك الأطراف، إلى الشلل التام. وقالت بأن عدداً كبيراً من شيوخ الدوار وكهوله يعانون من الأعراض نفسها. عدت إلى الرباط مصدومة، وسألت والدتي عن حقيقة الكارثة، فقالت بأنها وقعت قبل ولادتي بسنوات طويلة، وكانت مكناس ونواحيها أكثر المناطق تضرّراً. نقلت إليّ معلومات مطابقة تقريباً لما تحدث عنه زميلك رشيد بالأمس. لم أقتنع، أو بالأحرى سيطر عليّ إحساس بأنّ لهذا الموضوع علاقة مباشرة بي، فهرعتُ بلا وعي نحو مسوّدة أحجية مغربية غير المكتملة.

فتحت الملف الذي يضمّ أوراقاً قديمة كُتبت على الآلة الكاتبة، وقالت:

- أعدت قراءة مسودة رفيق، فكان سهلاً عليّ الوصول إلى الاستنتاج الأكثر منطقية...

قاطعتها:

- إنّ الهدف الحقيقي من كتابة رفيق خالدي للرواية لم يكُن تأليف عمل بوليسي تقليدي كما فعلتِ أنت، بل إحياء قضية الزيوت المسمومة المنسية...

فأكملَت هي جملتي بتناغم فرقة كورال محترفة:

- التي أخفى عني بأنه إحدى ضحاياها، فقد رنّ جرس قويّ في

t.me/qurssan

أعماقي، يربط بين ما رأيته وما حكته والدة التلميذ عن الجد، وما أعرفه عن رفيق، الأعراض نفسها بلا استثناء، صعوبة في المشي ومشاكل في النطق وضعف في عضلة القلب. لكن السؤال هو طبيعة علاقته بصالح وجميلة وستيف ماكميلان وباقي شخصيات الرواية، ما دام هو ابن عائلة تُقيم بمكناس، وبعيدة تماماً عن القنيطرة.

- ألم تفكّري في ابن صالح وجميلة، رغم ذكره بشكلٍ عابر وعدم تدخله في أحداث الرواية؟

- طبعاً فكّرت، لذلك قرّرت التحرّك بطريقتي الخاصة، والنبش في ماضي رفيق، بعيداً عن عائلة العم.

- كيف؟

التقطت نفساً عميقاً، مع إدراكي بأنّ وصولنا المباغت إليها أجبرها على التحوّل إلى آلة لاسترجاع الذكريات:

- اعتاد رفيق قبل اختفائه على زيارة سيدة عجوز تُقيم وحدها، صديقة قديمة لوالدته المتوفاة، لم أجِد صعوبة في العثور على عنوانها، ففرحَت كثيراً بزيارتي، وتحدَّثت بحسرة عمّا آل إليه المنزل بعد استيلاء عائلة العم عليه، وعندما سألتها عن رفيق قالت بأن صديقتها الراحلة كانت متزوجة من تاجر عصامي صغير، وعملت ممرضةً، وعندما تأخر إنجابها وتأثّرت علاقتها بزوجها قرّرت تبنّي طفل في الخامسة، لذلك حاولوا طرده بعد وفاة الأم ما دام ابناً غير شرعيّ في نظرهم.

- إذاً فقد أخفى عنك حقيقة أصوله، ألم تخبرك بشيء عن القنيطرة وعائلته الحقيقية؟

- لا، لكن التأرجح بين الواقع وما يُفترض أنه خيال روائي لم يكُن ليخفى عليّ، وتأكّد لي ذلك فيما بعد، في أثناء اشتغالي على

t.me/qurssan

الأطروحة، عندما حصلتُ على أعدادٍ قديمة من صحيفة مغربية معروفة، واكبت الكارثة فور حصولها عام 1959، وقتها تضاربت الأنباء حول مصدر الإصابات الغامضة بالشلل أو ما سماه الناس البطاء بيوركاب، أيّ المرض الذي يصيب الركبتين، قبل أن يكتشف خبيران من جامعة أوكسفورد البريطانية مسؤولية زيوت المائدة عمّا يجري، واحتوائها على مادة ثلاثي أورتو كريزيل فوسفات، وبعد التحقيق تبيّن وجودها في زيوت تشحيم طائرات حربية مصدرها القواعد الجوية الأميركية، خاصّة قاعدة النواصر القريبة من الدار البيضاء، تتمّ تعبئتها في براميل تحمل رقماً مميّزاً، أتدرين ما هو؟

لم أحِر جواباً، فقالت كمحقّق يرمي بأوراقه تباعاً لحلّ اللغز المحيّر:

- **33137**، الرقم نفسه الذي ورد في مفكّرة صالح ضمن مسوّدة أحجية مغربية غير المكتملة...

ابتلعت ريقي بصعوبة بالغة، مع إدراكي بأنّ كلّ الطُرق تؤدّي إلى إدانة أبي، فسألتها بعد برهة صمت:

- طيب، لماذا قرّرتِ إنجاز أطروحة عن الكارثة؟

حمَلَت المطبوع السميك بين يديها، وتصفّحته لبضع ثوان، قبل أن تقول:

- من خلال بحثي البسيط حول علاقة رفيق بالقضية، تبيّن لي وجود حالة من التعتيم أو التناسي المتعمّد لما جرى، رغم تسبّب الكارثة في تدمير حياة الآلاف، لذلك نذرت نفسي لكشف تفاصيلها للجيل الحالي، لتكون... لتكون...

سيطر عليها التأثر، فأمسكت بيدها علامة المساندة الصادقة، وأكملتُ ما عجزَت هي عن قوله:

t.me/qurssan

- لتكون خير إهداء للغائب. . .

مسحت دمعة فرّت من مقلتها، مجبرة نفسها على الاحتفاظ برباطة جأشها.

- بذلت كلّ ما في وسعي كما أشار زميلك بالأمس، وتشهد أروقة وممرّات هذه الكلية على ذلك، فوصلت بعد جهد إلى استنتاج يقول بأنّ الكارثة الحقيقية لم تكُن عندما وقع الآلاف ضحايا التسمّم، بل في الطريقة التي تمّ التعامل معهم بها بعد ذلك، أحجم بلدك عن المساهمة بشكلٍ فعّال في الجهود الإنقاذية لمنظمة الصحة العالمية، خشية اتهامه بالضلوع المباشر في الفضيحة. تمّ طرد المرضى من المراكز العلاجية بعد رحيل الفرق الإغاثية الأجنبية، وأهينوا معنوياً بعد الإفراج في ظروف غامضة ومثيرة للتساؤلات عن التجار المغاربة المتورطين، رغم صدور أحكام بالإعدام في حقّ بعضهم، لم تنفّذ أبداً. أنا عضو في إحدى جمعيات الضحايا، قمنا في العام الماضي مثلاً بدفع الوكيل العام بمحكمة الاستئناف بالرباط للبحث في الموضوع، بغية الحصول على نسخة من حكم محكمة العدل الخاصة عامَي 1959 و1960، فاكتشفنا اختفاء الملف الجنائي للقضية من أرشيف المحكمة، وعدم وجود أيّ أثر لأسماء المتّهمين بسجلّات السجن، كما لو أنّ القضية لم يكُن لها أيّ وجود!

احتقن وجهي بشدّة، وخيِّل إليّ بأنّ المدرج الكبير سجن يوشك على كتم أنفاسي، فهتفتُ بانفعال:

- فلنغادر، أرجوك!

*

شعرت بأنني أفضل حالاً، مع جلوسنا على أحد المقاعد في

t.me/qurssan

الحديقة الصغيرة بالكلية، وملامسة تيار هوائي خفيف لخصلات شعري، فقلت:

- ربما فهمت الآن مغزى عبارة أورَدَها رفيق في روايته، عندما كتب: المغربي أسوء حظاً من سيزيف، يفني عمره دافعاً صخرة قهره إلى القمة، ثم ينتهي به المطاف مسحوقاً تحتها!

همَّت لبنى بالإجابة، لأنتبه فجأة لوقوف سيدة في منتصف العمر أمامها، صافحتني باحترام، ثم عانقتها وتبادلت معها حديثاً بدا لي حميمياً وودّياً باللغة العربية، قبل أن تغادر بخطوات بطيئة.

- ساهمت الأطروحة أيضاً في وصولي إلى معلومة تهمّني كامرأة. أتحدّث عن الهويّة الحقيقية لفيرونيكا التي أهداها رفيق روايته. ساعدني الأستاذ المشرف على مراسلة منظمة الصحة العالمية بغية الحصول على شهادات حيّة لأطرٍ طبّية أجنبية شاركت في إغاثة الضحايا، ولأنّ عدداً كبيراً منهم فارقوا الحياة، فقد قدّمت لي المنظمة بيانات عددٍ قليلٍ جداً، سويديون وألمان وفرنسيون وهولنديون، وسويسرية اسمها فيرونيكا ديكر، ممرّضة متقاعدة عملت طويلاً مع الصليب الأحمر في مناطق ملتهبة حول العالم، راسلتها فتحمّست للفكرة وأبدَت استعدادها للتعاون، ثم بعثت لي عبر البريد السريع بعض الصور، ونسخاً طبق الأصل من رسائل شخصية تبادلتها مع زوجها خلال فترة وجودها بالمغرب، ولم تجد أيّ حرج في تزويدي بها، ما دام ذلك مفيداً لبحثي بحسب رأيها.

استخرجت من الملف أوراقاً محفوظة في مغلّف بلاستيكي، تمعّنت في محتواها، فاكتشفت أنّ الأمر يتعلق برسائل كُتبت باللغة الفرنسية، انهمكت في قراءة إحداها لبضع دقائق هتفت بعدها:

- المعلومات المفصّلة الواردة في هذه الرسالة لا تدَع مجالاً

t.me/qurssan

للشكّ في أنّ الطفل المقصود هو رفيق ذاته! الوصف الشكلي والانبهار بالقدرات العقلية والتعاطُف مع حالته المؤثّرة!

أومأت برأسها إيجاباً، فتسلَّل إليّ إحساس بأنها قدّمت كلّ ما في جعبتها من معلومات، وأنّ اللقاء ومعه القضية بأكملها في طريقهما إلى النهاية، فلم أجِد سبيلاً لختمه سوى بسؤالها:

- لو سمحتِ يا لبنى، أعلم بأنها مسألة شخصية ولكنني لم أتخلّص من إلحاح الرغبة في فهمها، كيف تحافظين على أملك القويّ في عودة رفيق رغم مرور كلّ هذه الأعوام؟ أنا امرأة وأعلم جيداً بأنّ الأنثى مجبولة على التفكير دوماً في الأسوء...

داعبَت خصلات شعرها مفكّرة، بحركة بدت معاكسة تماماً لطبعها الخجول والمتحفّظ، أتبعَتْها بقولها:

- سأعطيك مثالاً قبل الردّ. فريدة، السيدة التي حيَّتني قبل قليل، أستاذة جامعية تزاول عملها بهذه الكلية، وهي جارة قريبة لي في حسان، كلنا نعرف قصة ابنتها جيهان، التي فجعت بداية التسعينيات بمقتل خطيبها الضابط العسكري، بعد سقوط طائرته الحربية في الصحراء، مرّت الأيام وتعرّفت على طبيب فرنسي من أصول مغربية، فنشأت بينهما علاقة حبّ جديدة، وعندما اقتربا من إعلان ارتباطهما الرسمي ظهر الطيار بشكلٍ مفاجئ وتبيّن للجميع بأنه لم يمُت، بل ظلّ في الأسر فترة طويلة. انسحب الطبيب من حياتها وفضَّل الذهاب إلى البوسنة والهرسك في أقسى أيام حربها الطاحنة، ضمن بعثة تابعة للأمم المتحدة. لم تَسِر الأمور كما يجب بين جيهان الحائرة وخطيبها السابق فانفصلا، وتضاربَت الأنباء حول مقتل الطبيب أو بقائه حياً. انتهت الحرب عام 1995 ولم يظهَر له أثر. أتمَّت جيهان دراستها وراكمت نجاحات مميّزة في عملها، لكنها

t.me/qurssan

أغلقت الأبواب أمام كلّ مشاريع الارتباط، ولم تتخلَّ عن إيمانها بعودة الطبيب المفقود يوماً ما، رغم إصرار المنطق على استحالة ذلك...

أطلقت زفرة حارة، قالت بعدها بهدوء المطمئنة الواثقة:

- كلّنا نبحث عن قيمة معيّنة لحياتنا، مع أن الموضوع في جوهره بسيط للغاية. الحياة تكتسب قيمتها من قدرتنا على أن نحِب، وأن نحَب، ما دون ذلك مجرد مضيعة للوقت. الجواب عن سؤالك يا كريستين صعب وسهل في الآن نفسه، أنا أحافظ على أملي في عودة رفيق لأنّ الانتظار هبة، وقد يكون فناً في بعض الأحيان!

* * *

t.me/qurssan

ᑫ موقع الخبركوم – الرئيسة – حوادث: ×

جنس وابتزاز وقتل: حلّ لغز اختفاء زوج ناشطة حقوقية بارزة قبل ثلاث سنوات

الخميس 2 يونيو 2016 – 33:19

عندما نشر موقعنا ثلاثة أخبار متفرقة وعلى فترات متباعدة (راجع مقالات **اختفاء زوج ناشطة حقوقية بارزة في ظروف غامضة وعظام بشرية تستنفر الدرك الملكي بشاطئ سيدي العابد وطالبة بكلية الطب السويسي تقتل مجازاً عاطلاً وتسلّم نفسها للشرطة** حسب تسلسلها الزمني) لم يتوقع أحد، بما في ذلك مراسلونا بقسم الحوادث، أن الأمر يتعلق بخيوط قضية واحدة!

مقطع فيديو يخلط الأوراق:

نبدأ جمعنا لهذه الخيوط من الخبر الثالث، وهو إقدام (س.ح) (23 سنة) طالبة في السنة الرابعة بكلية الطب السويسي على تسليم نفسها للشرطة بعد قتلها (ر.ب) (27 سنة) العاطل المجاز في شعبة الجيولوجيا، طعناً بالسكين. اعترافات قادَت المصالح الأمنية إلى التعمّق في البحث، حيث توجّه أعضاء فريق التحقيق إلى منزل الهالك، وقاموا بتفتيش غرفته، وتفحّص خبير تابع للشرطة العلمية القرص الصلب لحاسوبه المحمول، وبالفعل، تمّ العثور على صورٍ ومقاطع فيديو حميمية للطالبة، كما قالت في إفادتها.

المفاجاة تمثّلت في وجود مقطع فيديو آخر، جرى إخفاؤه داخل ملفّ غير مرئي، وكان سبباً في تحريف مسار القضية!

وبحسب معلومات توصّلنا بها من مصدر موثوق، فإنّ الفيديو جرى تصويره بهاتف محمول، ويحتوي على مشاهد تحاول فيها شابة

t.me/qurssan

جرّ جثة ملفوفة ببطانية خارج غرفة نوم، لتؤكّد الخبرة التقنية ان الأمر يتعلق بالطالبة (س.ح)، لكنها أصرّت على إنكار ايّ علاقة لها بالشريط المفبرك على حدّ قولها، مؤكّدة على روايتها الأولى حول القتل المرتبط بالابتزاز.

مفاجأة الحمض النووي وذكاء ضابط شاب:

من جهة أخرى، حملت نتيجة اختبارات الحمض النووي التي أجريت على العظام البشرية المكتشفة بقطعة أرضية محاذية لشاطئ سيدي العابد (الخبر الثاني) صدمة للمحققين، لانها تعود للبروفسور يونس بلقاسم المختفي قبل ثلاث سنوات، وقُمنا بالإعلان عن خبر الاختفاء في حينه (الخبر الأول)، دون أن يظهر له ايّ أثر، بعدما وصلت تحقيقات الشرطة إلى الطريق المسدود وقتئذٍ.

هنا تدخلت فطنة وسرعة بديهة ضابط شرطة شاب عمَدَ إلى التنقيب في ماضي الطبيب الشخصي، بعيداً عن الرسميات المرتبطة بعمله، وراجع أدقّ تفاصيل المسار الدراسي للطالبة، ليتأكّد من معلومتين حاسمتين: تعدد العلاقات النسائية للبروفسور رغم حرصه على إبقائها طيّ الكتمان، وتدريسه ل (س.ح) في سنتها الأولى بالكلية.

معلومتان شكّلَتا طوقاً أحاط بعنق (س.ح)، فانهارت مدلية باعترافات جديدة مفصّلة، مما سمح للشرطة بتجميع قطع الأحجية كاملة.

علاقة مشبوهة خارج أسوار الكلية:

بدأت القصة بحسب أقوال الطالبة في سنتها الأولى بالكلية، عندما تعرّفت على البروفسور وأعجبَت به، بوصفه أستاذاً ناجحاً ومتمكّناً أولاً، ولكونه رجلاً وسيماً يتمتع بجاذبية قوية ثانياً، ورغم الفارق الكبير في السن بينهما، إلّا أنّها أحسّت بتقرّبه منها، بما يتجاوز حدود العلاقة الطبيعية بين طالبة وأستاذها، فدفعها طيشها إلى

t.me/qurssan

المغامرة، متجاهلة ما تناقلته الطالبات من همهمات خفية حول علاقات البروفسور النسائية المتعدّدة وما يُشاع حول لغز اختفاء ابنه الوحيد في روسيا عام 2002.

تطورت العلاقة بين (س.ح) وأستاذها، وتكرّرت لقاءاتهما بإقامة شاطئية يملكها البروفسور في شاطئ سيدي العابد، يتنقل إليها باستمرار ومن دون استخدام سيارته منعاً لإثارة الشبهات، لتنتهي العلاقة بما لا يحمد عقباه، إذ صعقت الطالبة ليلة السبت 2 مارس 2013 بتعرّض الطبيب لأزمة قلبية مفاجئة (سببها مجهود زائد) وضعت حداً لحياته على الفراش.

الاستعانة بصديق:

كانت (س.ح) على وشك الانهيار، خوفاً من إمكانية الربط بين هروبها واكتشاف جثة عشيقها، لتلمع في ذهنها فكرة الاتصال بـ(ر.ب)، الشاب الذي سبق وأن تعرّفت عليه عبر وسائل التواصل الاجتماعي، وعبّر لها أكثر من مرة عن إعجابه ورغبته في التقرّب منها أكثر، ولم يجد منها غير النفور والصدّ، بسبب وضعيته الاجتماعية المزرية.

فوجئ (ر.ب) بعد قدومه إلى الإقامة الشاطئية -تلبية لنداء الطالبة- بما رأته عيناه، لكنه استعاد رباطة جاشه بسرعة مدهشة، آمراً (س.ح) بلف الجثّة ببطانية للتعاون على نقلها في جنح الظلام خارج الإقامة، ودفنها في قطعة أرض قريبة، وذلك باستخدام أدوات للحفر وتقليب تربة الحدائق، عثر عليها في الإقامة.

تمّ لـ (ر.ب) و (س.ح) ما أراداه بالفعل، مستفيدين من سواد الليل وغياب حارس المنطقة، للتخلص من جثة طبيب قادَه شبقه المرضي إلى حتفه، وتنظيف المنزل بمحو أيّ دليل على وجود الهالك به.

t.me/qurssan

الفاتورة:

اعتقدت (س.ح) أنها تخلّصت من الكابوس إلى الأبد، لتتوصل بعد أسبوع واحد فقط بشريط فيديو على تطبيق «واتساب» صوّره (ر.ب) خلسة، يُظهرها وحدها وهي تحاول جرّ جثة الطبيب الملفوفة ببطانية، مع تهديد صريح بإرساله إلى الشرطة!

كان ثمن سكوت (ر.ب) واضحاً، الخضوع لنزواته ومطالبه المادية مدة ثلاثة أعوام، استنزف خلالها جسدها ونفسيتها المهزوزة، مستخدماً شريط الفيديو وصوراً حميمية أخرى قام بالتقاطها في لقاءاتهما لتهديدها بفضحها كمجرمة أولاً، وكساقطة لا علاقة لحقيقتها بما تروّجه عن نفسها بكونها طالبة ناجحة ومحبوبة بين زملائها في الكلية، فتراجع مستواها الدراسي، وتحوّلت إلى العزلة، بعد وضعها حداً لمعظم علاقاتها الاجتماعية، ثم جاءت الطامة الكبرى بحملها، رغم كلّ الاحتياطات التي اتّخذتها لتجنّب ذلك.

معالجة الخطا بكارثة :

واجهت (س.ح) خليلها وشريكها (ر.ب) بحقيقة حملها منه، فتجاوب مع كلامها ببرود ولا مبالاة، تضاعف معها إصرار الطالبة المنهارة في الانتقام، وبالفعل، ادّعت رغبتها في لقائه، وما إن استفردت به في منزل يملكه أحد أصدقائه حتى عاجلَته بطعنات مفاجئة أردته قتيلاً على الفور، لتسلّم نفسها بعد ذلك إلى الشرطة، مُدرِكَة أنّ مستقبلها قد دُمِّر إلى الأبد.

تمّ تقديم (س.ح) إلى العدالة لتقول كلمتها، وسط صدمة عارمة للجميع، زملاء الطالبة في كلية الطبّ الذين دافعوا عنها سابقاً، أصدقاء البروفسور من الأطباء والأساتذة وزبائن العيادة، وعائلة (ر.ب) التي ربطت كلّ ما جرى ببطالة ابنها، المُجاز الذي طرق كلّ الأبواب بشهادته الجامعية بحثاً عن عملٍ محترم يليق بمستواه، من

t.me/qurssan

دون جدوى، ما أجبره على سلك مسار ملغوم انتهى به جثة تحت التراب قبل بلوغه سنّ الثلاثين!

التعليقات (7) الآراء الواردة في التعليقات تعبّر عن آراء أصحابها وليس عن راي الموقع

1- **سليمة**: أنا حائرة، لست أدري مع مَن سأتعاطف في هذه المأساة المروعة!

2- **عبد القادر** : إذا كنت في المغرب فلا تستغرب.

3- **أبو ربيع**: هذا ما جنيناه من دراسة بناتنا في الجامعات.

4- **حسن المغربي**: الطالبة هي السبب في كلّ ما جرى وتستحق العقاب، والدليل قدرتها على إغواء شاب في الثلاثين وكهل في الستين.

5- **عاشق الليغا**: من الأحق بالكرة الذهبية، ميسي أم رونالدو؟

6- **أم ريان أميرة زوجها**: قناتي على اليوتيوب تقدم وصفات من المطبخ التركي، التحقوا بصفحتي الرسمية على الفيسبوك.

7- **امين**: ابن الطبيب محظوظ جداً، أجزم بأنه ذهب إلى روسيا فارتبط بشقراء فاتنة تشبه ماريا شارابوفا ونسي المغرب تماماً!

t.me/qurssan

(16) هروبي إلى الحرية

الحر فعلاً هو مَن لا يملك شيئاً.

جول فيرن

الاثنين 28 أكتوبر 2019

مطار نور سلطان نازاربايف الدولي- نور سلطان (أستانا سابقاً):

لم أستطِعْ السيطرة على رعشة أصابعي مع تسلّمي لجواز سفري، فاقترب مني أحد موظفي الأمن متسائلاً:

- سيدي، أنت بخير؟ هل من مساعدة أستطيع تقديمها لك؟

تظاهرتُ بالمرح عندما أجبت:

- لا، لا شيء، ربما لم أنَمْ جيداً بالأمس...

افترّ ثغره عن ابتسامة مشرقة، وقال بحفاوة:

- ستحظى بقسط وافر من النوم في الطائرة. رحلة سعيدة، نتمنى عودتك إلى كازاخستان مرة أخرى!

ثم أرشدني إلى ممرّ العبور نحو قاعة انتظار المسافرين، فبحثت عن مقعد فارغ، وقربت إليّ حقيبتي الصغيرة، فحانت مني التفاتة إلى شاشة عرض أكّدت ضرورة انتظار خمس وأربعين دقيقة قبل قدوم

t.me/qurssan

حافلة مخصّصة لنقل الركاب إلى الطائرة المتوجّهة نحو دبي، استعداداً لإقلاعها فيما بعد.

فتحت جواز سفري، وأعدتُ قراءة بياناتي الوهمية، قائلاً بصوتٍ هامس لم يسمعه أحد:

- الملاعين، تزويرهم متقَن فعلاً!

مددتُ ساقَيّ باسترخاء، وأغمضت عيني، مطمئناً إلى أنّ نجاتي من الجحيم الروسي صارت واقعاً فعلياً، لا خيالاً...

سأنعم أخيراً بنومٍ طبيعيّ لم أحرم منه لليلة واحدة فقط، بل طوال سبعة عشر عاماً!

*

كان توالي الصدمات خلال احتجازي في كراسنوكامنسك كافياً لأمنع نفسي من تصديق وجود صديقي القديم أمامي في المستوصف، ثم ساهم اشتداد وطأة المرض في تعقيد الوضع أكثر، ما اضطرّه للتعامل معي بعقلانية أكبر، فاستغرقت وقتاً لأجد تفسيراً مقنعاً...

الخيط الفاصل بين الرواية والحياة لا يكاد يُرى، وإذا كان ما يجري معي جزءاً من أحداث خيالية، فمن المعروف أنّ كلّ الروايات تعتمد في هيكل بنائها على نقطة تحوّل!

كان من الصعب على سيرجي أن يكتفي بحصة علاج واحدة ليُقاسمني أدقّ تفاصيل الأعوام الماضية، لذلك كتم أمرَ معرفته بي، وحثّ الحراس على ضرورة استدعائي لمتابعة العلاج في حصصٍ أخرى.

سيرجي كرياتشكوف، الصديق المثقّف والمنبهر بحضارة وأدب بلاده، ورفيق السكن الجامعي، الواقع في غرام فتاة لم يجسر على

t.me/qurssan

مصارحتها بما يعتمل في قلبه، فاستجبتُ أنا لإغوائها وسرقتها منه كأيّ وغدٍ آخر، مكافئاً ثقته بما لا يستحق.

أكسَبَتْه السنوات وزناً إضافياً وصوتاً أكثر خشونة، كما طالت لحيته الشقراء واحتفظت عيناه بالنظارات السميكة، فبدا غريباً على ذاكرتي البصرية أن تستوعب شكله الجديد كرجلٍ في السادسة والثلاثين من عمره.

وجدَ بدوره صعوبة في التعرّف عليّ بداية، بعدما حوّلني السجن إلى كتلة من العظام المتحرّكة، لكن يبدو أنّ بعض العلامات المميّزة التي فشل الزمن في محوها قد بقيت، رغم كلّ شيء...

لقيت أولغا كوزنيتسوفا حتفها في حصار مسرح دوبروفكا، متأثّرة بمضاعفات استنشاقها للغاز، ولم يفلح عقار النالوكسون في إنقاذها، كما العشرات غيرها، فأقامت لها الكلية حفل تأبين، ودُفِنت في مقبرة فاغانكوفو بموسكو مع باقي ضحايا العملية.

لم يدر بخلد أحد وجودي معها هناك، خاصّة مع نفي السلطات للأمر واعتبار السفارة المغربية في بيانها المتأخّر أنّ زهير بلقاسم طالب مغربي مفقود لأسباب لا علاقة لها باحتجاز الرهائن، كما برز تفسير جديد أقنَعَ الجميع بمنطقيته، هو وقوعي ضحية عصابة إجرامية تنشط في العاصمة، استغلّت حداثة مقامي بموسكو فقتلتني واستولَت على ما أحمله في جيوبي، ثم تخلّصت من جثتي في مكانٍ ما.

لم تصدّق أمي كلّ ما قيل، وسافرَت إلى موسكو أكثر من مرّة بحثاً عني، فالتقت بسيرجي، وأخضَعَته لما يشبه التحقيق حول طبيعة تنقّلاتي وعلاقاتي قبل اختفائي، وقابلت ممثلين عن السفارة المغربية وجمعية الطلبة المغاربة في روسيا، لم يفلحوا في إفادتها بمعلومة واحدة ذات قيمة.

t.me/qurssan

قامت بكلّ ما يمكنها أن تفعله، ووجدَت سيرجي بجانبها على الدوام، من دون جدوى، لتعود في كلّ مرة إلى المغرب وحيدة، بلا أمل أو أثرٍ لي أو حتى لجثتي...

سألتُ سيرجي إن كان والدي قد رافقَها خلال أسفارها المتعدِّدة إلى موسكو، فأجاب بالنفي، وهو ما أيقظَ في أعماقي الشك والاستغراب.

أتمّ الروسي دراسته، وبدأ في مزاولة عمله بمستشفى حكومي في موسكو. وانهمكَ في مشروع كتابة روايته الأولى. نسي أمري تماماً بطبيعة الحال، ثم تطوّرت علاقته بإحدى زميلاته الطبيبات فتزوّجها، وأنجبا طفلة جميلة، بدا معها أنّ المستقبل سيكون هانئاً سعيداً.

إلى أن انقلبَت حياته رأساً على عقب...

أعلم بأنها عبارة مستهلكَة ومكرَّرة، فالواقع يقول بأنّ الحياة سلسلة انقلابات مستمرة لا تنتهي بصاحبها إلّا في حفرة طولها متران وعرضها متر واحد، ولكنني لم أجد أفضل منها للتعبير عمّا تغير في واقع صديقي.

صفقة طبية كانت إدارة المستشفى طرفاً فيها، تابعَ هو خيوطها، فاكتشف وجود أدوية مغشوشة أو منتهية الصلاحية، مع كميات كبيرة من الثاليوم، يعلم هو بأنها لا تُستخدَم سوى لعمليات التسميم المتعمّد.

حاول الاعتراض، ورفضَ التوقيع على وثائق وأوراق تُثبت موافقته على تمريرها، رغمَ تلقيه وعداً بالحصول على عمولة كبيرة، فوضعوه أمام خيارات كان مجبراً على قبول إحداها: التوقيع أو النفي إلى سيبيريا أو حرمانه من زوجته وطفلته الصغيرة إلى الأبد.

t.me/qurssan

اختار النفي، وعندما أتى إلى هنا قبل شهرٍ واحد، ليعمل طبيباً في السجن، فهم أنّ الموضوع أكبر بكثير من مجرد إبعاد عقابيّ عن العاصمة.

كانوا يخطّطون لقتله ببطء...

قال سيرجي بأنّ المدينة السيبرية تضم أكبر منجم لليورانيوم في روسيا، وبعيداً عن أرقام ومصطلحات غير مفهومة ولا تهمّ أحداً سوى المتخصصين، فقد فهمتُ منه بأن الإنتاج المتصاعد (والموجّه بالأساس إلى مفاعل أنغارسك بالقرب من بحيرة بايكال) ساهمَ في تحويل المدينة ومحيطها إلى ما يشبه مكبّ نفايات نووية، وارتفعت نسبة الإشعاعات لتتجاوز في كراسنوكامنسك معدّلها الطبيعي بعشرة أضعاف، مما يفسّر توالي سقوط السجناء صرعى في الآونة الأخيرة.

وهكذا نقل إليّ صديقي القديم تفاصيل كلّ ما وقع في السنوات الماضية.

ولكن، ماذا سأنتظر من شخصٍ واحدٍ فقط، إذا كانت دولة بأكملها قد نسيتني؟

بمَ سيفيدني ما سمعت، إذا كانت القاعدة معروفة منذ عشرات السنين:

لا أحد يغادر سجن كراسنوكامنسك إلّا جثة هامدة!

*

قلَّبَ سيرجي الأمر في ذهنه عدة أيام، فوجَدَ نفسه أمام حلّ مقامر وحيد:

أن يوهِمَ الجميع فعلاً بمغادرتي للسجن السيبيري جثّة هامدة...

حلّ يقود إلى نتيجتين لا ثالثة لهما: النجاح في مسعاه بتخليصي

t.me/qurssan

من الجحيم الأبيض، أو الحكم على كلينا بالإعدام إن انكشَفَ أمره.

حقَنَني صديقي بمخدِّر قال بأنه سيُفقدني الوعي ويخفِّض عدد دقات قلبي بشكلٍ مؤقت، بما يسهِّل من مهمة تهريبي خارج السجن، وعندما رأى علامات الارتياع على وجهي طمأنني بأنه يعرف ما يفعله، ولا خوف عليّ من أي آثار جانبية.

ولولا خطورة الموقف لضحكت...

ألم يتحوّل جسدي إلى حقل تجارب امتدّت لسبع عشرة سنة؟

غاز مجهول أقوى من المورفين بمائة مرة، عقار نالوكسون، مخدرات غامضة أوهنت عضلاتي قبل مغادرتي للمستشفى في موسكو، إشعاعات نفايات نووية في السجن، ومخدّر معقّد الاسم الآن!

ما باليد حيلة، ألا يقول المثل المغربي بأنّ الميت لا يملك شيئاً لفعله أمام غسّاله؟

وضعني سيرجي في كيسٍ أسود مخصص للموتى، مخفياً بعض الثقوب التي ستسمح لي بالتنفس، ثم أعلن للحراس عن وفاتي، بعد تدهور حالتي وتردّدي أكثر من مرة على المتوصف للعلاج.

استغلّ الطبيب الروسي تحوّل الأمر إلى خبرٍ عاديّ ومألوف بالنسبة إلى الإدارة، مع توالي إصابة ووفاة سجناء وحتى حراس، معظمهم كهول أو شيوخ، لم تحتمل صحتهم المعتلة تعرّضهم لنسبة مرتفعة من الإشعاعات، وتردّد أنباء غير مؤكّدة حول عزم السلطات في موسكو إغلاق السجن ونقل الحراس والنزلاء إلى سجون أخرى متفرقة، فربط وفاتي المفترضة في تقريره بطول مدّة بقائي في السجن وعدم احتمال جسدي الضعيف لشدّة المرض.

t.me/qurssan

وبما أنه المسؤول عن توقيع شهادات الوفاة والإشراف على عمليات الدفن، فقد شدَّد على ضرورة التخلّص من جثتي بسرعة، خشية تحولّها إلى ما سمّاه قنبلة إشعاعية موقوتة تساهم في استفحال الوضع أكثر، وعندما حملتنا سيارة الإسعاف خارج السجن لـ «دفني» بمقبرة المدينة، علمتُ بأنه لم يجد أدنى صعوبة في رشوة سائقها مع حارسين مرافقين، اتفقوا جميعهم على ندب الحظ الذي ألقى بهم هنا، مع سخطهم على سلطات لم تتحرّك حتى الآن بشكلٍ جدّي لنقلهم بعيداً.

تعاونوا على وضع تابوت فارغ في القبر المعدّ لاحتضان جسدي، وتسلَّموا أتعابهم من سيرجي، ليعود الحارسان إلى السجن كما لو أنّ شيئاً لم يكُن...

*

- لماذا خاطرت بحياتك ومستقبلك من أجلي؟ قد ينكشف أمرك في أية لحظة!

- وهل تحسبني مغفّلاً حتى أثق بالحارسين وسائق سيارة الإسعاف؟ هم مستعدّون لبَيعي لمن يدفع أكثر، وقد يحوّلون مقامي هناك إلى سلسلة مقرفة من التهديد والابتزاز. كما أخبرتك سابقاً، تهريبك من كراسنوكامنسك مقدّمة لرحيلي أيضاً، لقد أعددتُ كلّ شيء لفراري مع زوجتي وابنتي، فأنا لا أتصوّر بقائي في سيبيريا إلى الأبد، ثم ظهرت أنت فجأة، كذكرى بعيدة من زمن جميل، فشعرت بأنني مُطالب بإنقاذك، حتى وإن تعلّق الأمر بمقامرة غير مضمونة، لكننا بشهادتك أنت شعب يعشق المقامرات، حتى لو كان ثمنها خسارتنا لكلّ شيء!

t.me/qurssan

- أنا لا أستحقّ تضحيتك، فقد بعتكَ بثمنٍ بخس مقابل رغبتي في التقرّب من أولغا...

- ألم أقُل لك بأنّ مقامك الطويل في السجن حرَمَك من فهم الحياة كما يجب؟ أولغا حبّ مراهقة تافه، وغادرت قلبي بعد فترة وجيزة من وفاتها. الزمن يا صديقي كفيل بمساعدتنا على نسيان كلّ شيء، بخاصة عندما يتعلّق الأمر بالحب. هذا هو الواقع، رغم إصرار الأدباء على الإيمان بالعكس.

- سيرجي يهاجم الأدب وينتقص من قيمته، مستحيل!

- لا طبعاً، والدليل على ذلك احتفاظي بمسوّدة رواية سأكملها وأنشرها لاحقاً. أقوى درس تعلّمته من الأدب هو تجنّب الاعتماد عليه في محاولاتنا المستمرة لفهم الواقع. الحياة تُعاش ولا تُقرأ في الكتب.

- أذكر كيف كنت مؤمناً حتى النخاع بعظمة بلدك، رافضاً أيّ مساس بتوجّهاته، فأجبرتك الأيام على تقديم الرشاوى والتعامل مع شبكات تهريب لاستخراج جوازات سفر مزوّرة ومغادرته في أقرب فرصة...

- يتجلى دهاء الأيام في قدرتها على وضع أيّ منّا أمام خيارَين بالغَي التعقيد: أن تخسر حياتك مقابل التمسّك بالقيم المثالية، أو تخسر مبادئك مقابل البقاء على قيد الحياة. سأغادر صوب بريطانيا قريباً، وسيتّهمني البعض هنا بالخيانة، لكنني مرتبط اليوم بزوجة وطفلة لا ذنب لهما في اختياراتي، والحقارة الحقيقية هي في التضحية بهما إرضاء لأفكار لا يؤمن بها أحد سواي.

- لن أنسى معروفك ما حييت...

- يقول نيتشه بأنّ مَن يحارب الوحوش مُطالَب بالحذر لئلّا

t.me/qurssan

يصير واحداً منها. عزائي الوحيد هو أنّ ما فعلته معك يثبت بأنني ما زلت محتفظاً بإنسانيتي. بالمناسبة، وحتى أؤكّد لك بأنني لم أكفر بالأدب، صدرت قبل ثلاثة أعوام رواية بعنوان جنتلمان في موسكو لكاتب يدعى أمور تاولز، أنصحك بقراءتها فور عودتك إلى المغرب، إلّا إذا كان بلدي قد تحوّل بالنسبة لك إلى كابوس مرعب لن تفكر في زيارته مرة أخرى، ولو من بوابة القراءة!

*

جلست على مقعدي في الطائرة، بجانبي شابة شقراء بملامح أوروبية تدلّ على أنها سائحة على الأغلب، التصقت عيناها بشاشة هاتفها المحمول، قبل أن تُجبرها نظرة عتاب من المضيفة الحسناء على وضعه في حقيبتها اليدوية، والالتفات نحوي وعلى محيّاها ابتسامة خجولة.

اختبأت لأيام في منزل منعزلٍ بضواحي مدينة إيركوتسك المطلّة على بحيرة بايكال، استأجره سيرجي قبل فترة لتسهيل رحيله فيما بعد، وزوّده بكلّ ما قد أحتاجه، فتحسّنت صحتي قليلاً، واستعدتُ نزراً يسيراً من حيويتي، مستفيداً من المناخ المعتدل والهواء النقي والمنعش في جزء لا أعرفه من سيبيريا المرتبطة في مخيلتي بالصقيع والسجن والموت.

من المبكر القول بأنني بخير، فلن تكفي جسدي الواهن بضعة أيام في الجبال ليستعيد قوته، وتنتظره رحلة علاج طويلة لتحديد قائمة أمراضه وعلله.

لكنني حرّ، وهذا يكفي...

انتقلتُ فيما بعد إلى ضواحي تومسك، المدينة التي ينحدر منها صديقي. استقبلني هناك قريب له واعتنى بي جيداً بتوصية منه،

t.me/qurssan

فحلقتُ شعري وشذَّبت لحيتي، ونظرت إلى المرآة طويلاً، فتأكدت فعلاً من أنّ ألكسندر جازدانوف دُفِنَ داخل ذلك التابوت الفارغ إلى الأبد، مما سمح لزهير بلقاسم بأن يُبعَث من جديد.

انتظرنا إشارة أحد الوسطاء للذهاب براً إلى الحدود مع كازاخستان، حيث زوّدني الوسيط هناك بوثائق مزوّرة دفع سيرجي نظيرها مبلغاً كبيراً من المال، ودرَّبني لأيام على التعامل مع هاتف يعمَل باللمس مزوّد بتقنية تُسمى الجي بي إس، وحاسوب محمول من الجيل الجديد، ومواقع الإنترنت بصيغتها الحديثة والمختلفة عمّا عهدته في بداية القرن، تجنّباً لأيّ طارئ يفضح حقيقة جهلي بهذه التكنولوجيا الغربية، فعبرت الحدود الروسية الكزخية بلا مشاكل، ثم انتقلت إلى العاصمة ومنها إلى المطار بحجز مسبق.

اتخذت الطائرة موقعها في المدرج استعداداً للإقلاع، فقالت الشابة بالإنجليزية:

- فليخترعوا تقنية تمكّننا من استخدام هواتفنا المحمولة في أثناء إقلاع الطائرة، لقد أجبروني على قطع محادثة شيّقة مع صديقتي في ميونيخ!

- اطمئنّي، سيخترعونها يوماً ما، العالم يتطوّر باستمرار يا آنستي، وكلّ شيء يتغيَّر بسرعة، أستانا نفسها صار اسمها نور سلطان!

* * *

t.me/qurssan

بعض ممّا جرى ليلة الثلاثاء 23 مارس 1965:

صفّفت شعرها بالطريقة التي يحبّها، منسدلاً بلا ضفائر على الكتفين، ليبلغ أسفل ظهرها، ومرّرت الكحل على عينيها، ثم أخفت كدمة الليلة الماضية أسفل جفنها بمسحوق تخبئ عبوته تحت البطانية الصفراء في الدولاب.

من حُسن حظّها أنّها حصلت على عطلة قصيرة من عملها بالمستوصف، بعد سلسلة أيام طويلة، عملت فيها بلا انقطاع، وإلا لكانت الكدمة الجديدة موضوع تندّر زميلاتها القبيحات، ممّن يحسدنها وينتهزن فرصاً (وهي كثيرة جداً) لتغليف شماتتهن بشفقة مصطنعة، ومحاصرة أذنيها بنصائح تتّفق كلها على ضرورة طلبها الطلاق من زوجٍ حوّلَ وجهها إلى كيس ملاكمة يختبر مهارته فيه بشكلٍ شبه يومي.

سيجدها الطبيب المشرف (ويبدأ اسمه بحرف الباء المقدّس) مناسبة ذهبية لتجديد عرضه بالزواج منها في السرّ، بعد طلاقها من زوجها، أو الاكتفاء على الأقل بمغامرة يبتعدان فيها عن أعين الفضوليين (ما دام المغاربة أساتذة في هذا المضمار) ولسببٍ بسيط هو رفض أمه الأرستقراطية أيّ إمكانية لارتباط ابنها بواحدة من حقيرات الطبقة السفلى من المجتمع.

فليذهبوا جميعهم إلى الجحيم. هي تحبّ زوجها، ولم تفكّر يوماً في إمكانية التخلي عنه.

وضعت أحمر شفاه غامقاً، أخبرها هو قبل أيام، في لحظة صفاء مفاجئة ونادرة بينهما، أنه يعجبه كثيراً.

تذكّرت همسته في أذنها عندما قالها، فعضّت شفتها السفلى ثم تنهّدت بحرقة، فقد صارت شبه متيقنة من أنها تحيا مع زوجين، أو بالأحرى رجلين في جسدٍ واحد!

الأول كائن نهاري لا يختلف في شيء عن الشاب الذي رآها أول مرة – أشهراً قليلة سبقت الاستقلال– تغادر منزل أسرتها متوجّهة نحو مقرّ عملها في مستوصف أداره النصارى وقتئذٍ، فأقسم على الزواج بها، حتى لو كان ذلك آخر قرار يتّخذه في حياته.

t.me/qurssan

الثاني مخلوق ليلي يشبه غول حكايات الجدّات، مرَّت عشر سنوات على ارتباطها به، يقتحم البيت بعد منتصف كلّ ليلة ليُشبِعها ضرباً وسباباً، محمِّلاً إياها مسؤولية جملة هزائم مُنِيَ بها في حياته.

ارتدت ثوباً جديداً عاري الكتفين والظهر، ابتاعته من محلّ دلّتها صديقتها عليه، يأتي أصحابه بسلع مهربة من الشمال، على حدود مدينة سبتة.

شعرت بأنه فاضح أكثر من اللازم، بالرغم من أنها في بيتها، لكنها تذكَّرت أيضاً ما قالته صديقتها عن انبهار رجال اليوم بما يرونه في شاشات السينما، وفقدانهم لصوابهم مع غمزة مارلين مونرو وابتسامة كلوديا كاردينال ونظرة صوفيا لورين، وهو تطوّر خطير لم تعُد معه أساليب الإغواء التقليدية كافية لتحريك غرائزهم، وسيؤدّي إهمالها للاعتناء بمظهرها إلى بحثِ زوجها عن حضن آخر.

يغضبها كلام صديقتها، فهي واثقة من إخلاصه أكثر من ثقتها بكونها حية.

صحيح أنه يهينها باستمرار، لكنها متأكدة أنه لا يعاشر أخريات غيرها، وهذا سبب كافٍ لتصبر على حماقاته، فالمرأة لا تغفر أن تُشاركها في رجلها امرأة أخرى، وقد تغفر ما دون ذلك...

على أي حال، صديقتها لم تتزوّج بعد، وتبذل كلّ ما تبقى من شبابها وأنوثتها لاصطياد فريسة تشاركها ما تبقى من عمرها، لكنها طيبة جداً، وخبيرة شيطانية بمواضيع حميمية تجد النساء لذَّة كبرى في الحديث عنها خلال اجتماعاتهن المغلقة...

ستكون ليلة اليوم بداية جديدة لعلاقتهما، حلَّ فصل الربيع، وكان مزاجه رائقاً عندما أخبرها بسفره فجراً لتسليم طلبية بالدار البيضاء، مع وعدٍ بالعودة سريعاً لقضاء ليلة لا تُنسى، فقد «اشتاق» إليها كثيراً...

وقفت أمام المرآة المشطورة إلى نصفين (كأثرٍ بارزٍ من معركة سابقة) لربط حزام الروب الحريري الأبيض، فتأمَّلت جسدها كما لو كانت تكتشفه لأول مرة.

امرأة في الثانية والثلاثين من عمرها (إن كانت تقديرات موظفي الحالة المدنية المغاربة صحيحة) لكنها منهكة، تُظهر الرضوض وآثار الكدمات

t.me/qurssan

واضحة في جنبها وفخذها الأيسر وأعلى ظهرها، وسيكتشف أيّ مدقق في ملامحها ما يشبه الانطفاء في بريق عينيها.

ولكنها متمسِّكة رغم كلّ شيء بالأمل...

الأمل في ماذا؟

لا تعرف!

اقنعت نفسها مراراً خلال السنوات الخمس الأولى لزواجهما أنّ سبب اضطرابه وهيجانه هو تأخّر إنجابها، فخشيت استسلامه لمطالبات والدته وشقيقه بتطليقها، لكنها فرحت لتشبّثه بها، وإن أحزَنَها في الوقت نفسه علمها بسلامتها هي من العقم، إثر كشفٍ أجرَته عند اختصاصي فرنسي معروف، رفض مغادرة البلاد بعد الاستقلال، فلم تجد بداً من الصمت، خوفاً من التأثير على نفسية زوجها المهزوزة أصلاً.

كيف سيتقبَّل رجل تقليدي شبه أميّ صَنَعَ ثروته الصغيرة بنفسه بعد هجرته المبكرة من البادية أنّ العيب منه هو؟

هي تحبّه، أو بالأحرى تتنفّس حبه، لذلك فعلَت المستحيل قصد إرضائه، وتمكّنت قبل بضع سنوات من إقناعه بتربية طفل يؤنس وحدتهما، ويمنح حياتهما نفساً جديداً إن لم يشأ الله منحهما ابناً من صلبه، رغم علمها بأنّ الفكرة لن تُعجب أمه.

كانت قد استغلَّت إغلاق مركز صحي بالقرب من النقطة الكيلومترية العاشرة على طريق دوار الحاج قدور، مخصَّص لمعالجة ضحايا كارثة الزيوت المسمومة، تدرَّبت فيه على يد خبراء أجانب، وقررت الاحتفاظ بطفلٍ غامض النسب، في الخامسة من عمره، أثار تعاطف الفريق الإغاثي لذكائه الملحوظ، وتأثّره بقائمة عللٍ صحية لا يستحقّها بريء جميل مثله.

اختارت له اسم رفيق، لعلّ القدر يرفق بحالها هي وزوجها...

اقتربت عقارب الساعة من الإشارة إلى منتصف الليل، فتحت باب غرفة نومها، ثم توجَّهت بخطى وئيدة نحو غرفة الطفل، فوجدته نائماً، وإن تأكّد لها بأنه يتظاهَر بذلك، كما يفعل دائماً.

هو يفهم كلّ ما يجري حوله، بمستوى يفوق أعوامه الأحد عشر، ويملك

t.me/qurssan

نظرات ثاقبة صامتة، حدث أكثر من مرة أن كانت سبباً في تراجع زوجها عن تعنيفها.

أحبَّته منذ أول يوم وقعَت فيه عيناها عليه، ففهمَت سرّ اتفاق مرضى وأطباء وممرضي المركز (مغاربة وأجانب) على حبّه، وعندما تمكَّنت من الحصول على حضانته بعد عودتها إلى مكناس ودخولها في صراع طويل مع إجراءات إدارية معقَّدة أثبتت من خلالها أنه متخلى عنه ولم يسأل عنه أحد، نذرت نفسها للاعتناء به، أولاً لأنه يستحقّ، وثانياً لأنها رأت فيه سنداً لحماية زواجها من الانهيار.

دلَّت طريقة كلامه القريبة من الخيلاء والترفّع (رغم مشاكل النطق) مع إتقانه للكثير من الكلمات والتعابير الفرنسية الراقية على كونه ابن عائلة من طبقة ثرية أو برجوازية أو أرستقراطية أو أيّ مصطلح يقود إلى معنى عدم انتمائه إلى المنطقة النائية القريبة من المركز الصحّي المؤقت، وربما كان وجوده هناك عرضياً أو لسببٍ مجهول لم يفصح عنه أو ربما لا يعرفه هو نفسه.

وشيئاً فشيئاً، ارتاح لها وتخلى عن الخوف الذي رافقه في المركز الصحي، وبدأ يكشف لها بعضاً ممّا يعرفه عن أصله.

قال بأنّ اسمه السابق هو صالح، والده يدعى سليمان، وأمه اسمها مليكة، كانوا يعيشون في منزل كبير، ويتشاجرون باستمرار، ويتردّد عليهم رجل أشقر ضخم وطويل جداً، اسمه ستيف، يتحدّث ويسهر كثيراً مع والده، ويلاعبه هو من حين لآخر، كما يحرص دائماً على إهدائه قطعاً لذيذة من الشوكولاتة.

يذكر جيداً تفاصيل آخر لقاء بين الضخم ووالده، عندما تجادلا، وكتب سليمان على ورقة بجانبه أرقاماً سجّلتها ذاكرة الطفل بسهولة.

33137

وبعد مغادرة الأشقر أضاف الأب كلمات وحروفاً أخرى للورقة، التقطتها عينا رفيق، أو صالح كما كان اسمه في السابق:

t.me/qurssan

33137 42F

STEVE MCMILLAN

ثم وضعها في جيبه.

وبعدها بأيام قليلة جداً تركته أمه في منزل جده، ولم يرها هي ووالده بعد ذلك أبداً، خاصة بعدما انتقل مع مربية عجوز إلى ضيعة في مكانٍ بعيد، وفي أثناء لعبه مع بعض الأطفال دخلوا إلى مخزن كبير، ليجدوا هناك عدداً من البراميل، فوجئ الطفل عندما اكتشف أن الأرقام المكتوبة عليها مطابقة للأرقام التي دوّنها والده على الورقة:

33137

وتحتها كلمة لم يفهم معناها وقتئذٍ، لكن ذاكرته احتفظت بها فقام بنقلها إلى الورق أمام أعين أمه الجديدة:

US Army

لم تمرّ سوى أيام حتى شبّ حريق مهول في الضيعة، وانشغل كلّ بنفسه، فضاع هو ولم يهتم احد بأمره، إلى أن عثر عليه رجل بجلباب ولحية طويلة، اعتنى به لأيام، ثم اقتاده إلى المركز الذي أنشأه النصارى، لعجزه عن الاحتفاظ به بشكلٍ دائم.

كان يتكلم بحماس يقاوم به صعوبة مشاكله مع النطق، ورغم دقّة التفاصيل التي قدّمها إلّا أنها لم تستوعب مغزاها، ففضّلت الصمت، خوفاً من كشفه لمعلومات أخرى أو حتى لرغبة معينة في العودة إلى أمه الحقيقية، وحاولت إقناعه تدريجياً بأنه مُطالَب بنسيان كلّ شيء، ما دام الآن في بيت جديد، مع أم جديدة، لن تتخلى عنه أبداً.

ما أدركته جيداً هو أنّ إغلاق المركز وطرد المرضى واختفاء المعدّات المخصّصة للترويض الطبي سيقضي على إمكانية شفائه أو حتى تعايشه مع مرضه المزمن، وإن تمتّع في المقابل بقدرات عقلية رهيبة، فذاكرته قوية، ويحفظ كلّ ما تقع عليه عيناه من سطور الكتب بسهولة، كما أنّ هوسه بالحساب الذهني والرياضيات يجعله محطّ حَسَد أقرانه.

استدعتها ذات مرة مدام دولاغارد، معلمة الرياضيات النصرانية بالمدرسة

t.me/qurssan

الحكومية، وحاولت شرح الكثير من المصطلحات المعقّدة التي لم تفهم منها الممرضة الحاصلة على الشهادة الابتدائية شيئاً، باستثناء حديث عن ذاكرة صورية أو تصويرية أو شيء من هذا القبيل، وأيضاً تجاوز نسبة ذكاء الطفل للمستوى الطبيعي، مع شعوره بالملل في القسم وفهمه السريع لكلّ الدروس وحبّه للمطالعة ورغبته الملحّة في الاستزادة، ما يعني ضرورة إيلائه عناية خاصة تُناسبه، وتصعيده مباشرة إلى المستوى الدراسي الموالي، وختمت كلامها باعتبار الطفل بذرة عبقري ينتظره مستقبل باهر، إن هو وَجَدَ الظروف المناسبة لتفجير مواهبه، وأعطت المثال بثريا الشاوي، أوّل مغربية تقود طائرة وهي بعد في السابعة عشرة من عمرها.

أشعرها ما سمعته بمزيج من النشوة والخوف، لعلمها بالمصير الأسود الذي لاقته ثريا مع اغتيالها بشكلٍ غادر قبل بلوغها سن العشرين، وأيضاً لما قالته جارة عجوز في الحي السابق عن استحواذ الجنّ على عقل الصغير، عارضة مرافقتها إلى مشعوذ يستطيع السيطرة على الأرواح الشريرة باقتدار يشهَد به كلّ مريديه.

تجاهلت دعوة الجارة بلا تردّد، ثم فكرت طويلاً واتخذت قرارها ببيع قطعة أرض صغيرة حصلت عليها كنصيب من ميراث والدها، عازمة على إيجاد هذه الظروف المناسبة كما أوصت المعلمة الفرنسية، وإن كان العيش في مغرب لم يتحقّق شيء من وعود كثيرة رافقت استقلاله سبباً كافياً لتدمير أي موهبة...

انحنت لتقبّل خدّ الطفل بهدوء، غير آبهة إن كان نائماً فعلاً أم مستيقظاً يتظاهر بإغلاق عينيه، فانتزعتها ضربات عنيفة مفاجئة على باب المنزل من شرودها.

استغربت الأمر، لعلمها بأنّ زوجها، وإن اعتاد على تحويل عودته الليلية العاصفة إلى فضيحة يتناقل الجيران تفاصيلها، قادر على فتح الباب بنفسه، ولا يبدأ حصّة الصراخ والضرب إلّا بعد إغلاقه.

هرعت لمعرفة الطارق، فانتبهت لضرورة إخفاء ملابسها غير اللائقة، وعانت لارتداء جلبابها، ثم فتحت الباب ببطء، لتجد أمامها أحد مساعدي زوجها في الورشة، خاطبها بخجل:

t.me/qurssan

– مساء الخير سيدتي، معذرة، هل سيدي في البيت؟

هزّت رأسها علامة النفي، ثم استولَت رعشة على جسدها مع قوله:

– لقد وعَدَ عمّال الورشة بمنحهم مكافأة نظير مجهوداتهم الإضافية في الأيام الأخيرة، لكنه لم يعُد من سفره حتى الآن...

وكان آخر ما سمعته قبل سقوطها فاقدة الوعي:

– يتناقل الجميع أخباراً عن اندلاع مواجهات عنيفة في الدار البيضاء، يُقال إنّ الجيش يجوب الشوارع بالدبابات لمطاردة المحتجين الغاضبين، وإنّ المروحيات تُطلق الرصاص بشكلٍ عشوائي على الجميع. أخشى أن يكون سيدي قد تعرّض لمكروه!

* * *

t.me/qurssan

(17) معذبو الأرض

ليست هنالك متعة في كتابة ما نعيشه،
التحدي هو أن نعيش ما نكتبه.

إدواردو غاليانو

الجمعة 1 نوفمبر 2002
المدينة القديمة - الرباط:

آخر ليلة أقضيها في المغرب...

أعددتُ حقيبة سفري، وحجزت تذكرة العودة إلى نيويورك في طائرة الحادية عشرة من صباح الغد، بعد اتصالي ببراندون، فعرض هو استقبالي في المطار بعد وصولي، كما أخبرني رشيد بقدومه إلى الفندق في الصباح الباكر لتوديعي، وإن كان السبت موعد عطلته الأسبوعية.

جئت إلى هذا البلد تائهة، قلقة، خائفة من المستقبل، فأغادره الآن وأنا محمَّلة بألف حكاية وحكاية...

عشرة أيام فقط، كانت كافية لأعرف الكثير، وتتغير نظرتي لتفاصيل حياتية صغيرة لم أكن ألقي بالاً لأهمّيتها، مع غرقي في

t.me/qurssan

دوامة حياة نيويوركية سريعة سلَبَتني إنسانيتي وقدرتي على الإحساس بمآسي الآخرين.

وأحياناً، قد يملأ يوم واحد خزّان ذكرياتنا بما يكفي عمراً بأكمله، ما فهمه ستيفان زفايغ بأفضل طريقة ممكنة، وصاغه على شكلِ رواية بديعة حملَت اسم أربع وعشرون ساعة من حياة امرأة.

لم يعُد لفكرة تخيّل فترة نشأة أبي في تكساس ثم عمله في المغرب أيّ معنى، فأزحتُ كلّ مسوّداتي وخطاطاتي السابقة جانباً، وانطلقتُ في سردٍ مسترسل، قرّرتُ من خلاله تقسيم مشروع روايتي الجديدة إلى عشرين فصلاً، تبدأ بحفل توقيع مكتبة ستراند بوك ستور، وتمرّ بلقائي ببراندون بعد قطيعة دامت ثلاث سنوات، ثم قدومي إلى المغرب بحثاً عن معلومات حول الوجود العسكري الأميركي بالبلاد خلال أربعينيات وخمسينيات القرن الماضي، ولقائي برشيد واكتشافي وجود اسم أبي ضمن أحداث رواية أحجية مغربية، ثم تنقّلنا بين الرباط والدار البيضاء والقنيطرة بحثاً عن الحقيقة، ومقابلتنا للبنى، لتصلَ في النهاية إلى المفاجأة القاتلة حول تورّط ستيف ماكميلان في كارثة الزيوت المسمومة.

القرار صعب جداً، وليس من السهل على أيّ امرأة أن تدين والدها بارتكاب جريمة بالغة الخطورة، لكنني مدفوعة برغبة صادقة في كَشف الحقيقة، وإيمان مطلَق بأننا قد نضطرّ أحياناً لتجاوز الخطوط الحمراء لفعل الشيء الصحيح...

هذا شعب مظلوم، وقع الآلاف من أبنائه ضحية فضيحة كان ستيف ماكميلان طرفاً فيها.

لا يتحمّل المسؤولية المباشرة، مجرّد وسيط بين تجار مغاربة وضباط كبار في القواعد الجوية الأميركية، جندي بسيط لا يُدرك

t.me/qurssan

الغرض الحقيقي لرغبة التجار المغاربة في شراء براميل زيوت تشحيم الطائرات.

كلها مبرّرات...

الكارثة مرعبة، غير قابلة للتصديق، وتسبّبت في تدمير حياة الآلاف من الأبرياء، وأنا مطالَبَة بوصفي كاتبة بنَقل كلّ تفاصيلها لقرّائي.

مهما كلّف الأمر...

أخطر ما في التاريخ هو عجزنا عن إعادة كتابته، رغم قدرتنا على إعادة قراءته أكثر من مرة، وبطُرق مختلفة ومتنوّعة.

لن أكون قادرة على إعادة صياغة مصائر الضحايا، لكنني سأبذل كلّ ما في وسعي لنزع الأيادي التي تكمّم أفواههم، ما دمتُ مقتنعة بأنّ الكتابة هي وسيلتنا الأقوى لقول كلّ شيء، بما في ذلك ما لا نجرؤ على قوله...

لا أريدها رواية تجارية فارغة، تُساهم أرقام مبيعاتها في تضخيم حسابي البنكي، وتضمَن لي الاستمرار في لعبة العرض والطلب الأميركية المَقيتة.

أريدها كلمة حقٍّ للتاريخ، وفقط...

حتى لو قرأها شخص واحد، فذلك يكفيني...

حتى لو كانت آخر رواية أنشرها في حياتي، فهذا أفضل...

ما معنى تأليفي لعشرات الروايات إذا كنت عاجزة عن إيصال صوتي ومعنى وجودي في رواية واحدة فحسب؟

جون كينيدي تول كَتَبَ رواية سماها **تحالف الأغبياء**، رفضها كل الناشرين، فدفعه الغبن إلى الانتحار عام 1969. لم تستسلم والدته، وجعلت من نشر الرواية هدف حياتها، فعثرت على ناشر

t.me/qurssan

بمساعدة الكاتب وويكر بيرسي، ونجحت في مسعاها، لتفوز الرواية عام 1981 بجائزة البوليتزر المرموقة، ويصل صوت كينيدي تول إلى العالم، حتى بعد موته.

هل سأكون أفضل منه، أو من لبنى، القديسة التي واجهت الأهوال وصنعت المعجزات، وما زالت تقاوم حتى الآن؟

ذنبها الوحيد أنها أحبّت، فاتُّهمت بالعهر، والسحر، والنحس، من دون أدنى اهتمام بفاجعة اختفاء حبيبها، وصدمة مقتل زوجها، واضطرارها لتحمّل مسؤولية العناية بابنتها بمفردها، وهي بعد في ريعان شبابها.

ماذا أعرف أنا عن الحب؟

كنت أعتقد بأنني لن أعرفه ولن أفهمه إلّا بالبحث عنه بين سطور الروايات ولقطات الأفلام، فأثبَتَتْ لبنى غباء ظنّي...

لقد صبرت، وقاومت، تجاوزَت مصائبها وقوة قدرها وديكتاتورية مجتمعها، فأكمَلت كتابة رواية حبيبها المفقود ونشرَتْها، وحرمت نفسها من نشوة وضع اسمه أو اسمها على غلافها، ثم أعدّت أطروحة مميزة عن كارثة الزيوت المسمومة لتخلّد ذكراه وذكرى كلّ ضحاياها، فلَم تحظَ بالتقدير المستحقّ ولم يهتمّ بها أحد.

صدمتني أيضاً عندما علمت بأنّ شهادة الدكتوراه لم تمكّنها حتى من الحصول على وظيفة تليق بمستواها، كأستاذة جامعية مثلاً، فهي الآن مجرّد موظّفة متواضعة في مصلحة الأرشيف بإحدى الوزارات، لكنها لم تستسلم رغم ذلك، فواصلت تربية ابنتها بعد وفاة والدتها، وتمسَّكت بأمل عودة حبيبها، حتى لو اجتمع كلّ ما في الدنيا من منطقٍ للبرهنة على استحالة رجائها.

t.me/qurssan

هي متأكّدة ممّا تفعله، متأكّدة ممّا في قلبها، ومستعدة لطاعة أوامر هذا القلب حتى النهاية. . .

مشكل بسيط بيني وبين ناشري دفعني إلى العويل والبكاء وتوقّع الأسوء، ثم قابلتُ رشيد، الشاب الذكي المثابر والمتمسّك بمقاومة واقعه القاتل بسلاح المطالعة والسخرية من كلّ شيء، حتى من نفسه، رغم غرقه في بحرٍ من العدميّة واليأس، فاقتنعت شيئاً فشيئاً بصواب ما قاله عن معاناته رفقة الملايين من الشباب أمثاله ممّا هو أشدّ وأمَرّ، مع فقدانهم للثّقة بمستقبلٍ هو أثمَن ما يملكونه. . .

رفيق خالدي، اللغز المحيِّر للجميع، عاشَ اليُتم والتشرّد في صِغَرِه بعد مقتل والديه البيولوجيين، ووقع ضحية كارثة قضت على قدراته الطبيعية في المشي والكلام، وعندما اعتقد بأنه محظوظ بأسرة جديدة تبنّته، قُتِل الأب في أحداث لا علاقة له بها، وتحمَّل هو مع الأم المربية أطماع أسرة العمّ الراغبة في الاستيلاء على المنزل. كان يحلم باستكمال دراسته في فرنسا مما يسمح له بتحقيق أحلامه المشروعة، فذهبت المنحة لمن لا يستحقّها.

بحث عن التعويض في الصداقة، فحولّت معركة الفوز بقلب لبنى أعزّ أصدقائه إلى ألدّ أعدائه. . .

صدق تشارلز بوكوفسكي عندما كتب ذات مرة قائلاً بأنّ حياة الكتاب كانت أمتع من كتاباتهم، أمّا الآن فلا هُم ولا كتاباتهم ممتعون في شيء. . .

كان بودّي لو تنتهي أيامي في المغرب، ومعها أحداث مشروع روايتي القادمة، بظهور رفيق ولمّ شمله بلبنى وجنان، كمكافأة سعيدة تثبت بأنّ القدَر ليس ظالماً إلى هذا الحدّ.

ولكنها الحياة، لا تكافئنا دوماً بما نريده. . .

t.me/qurssan

ستفتقر الرواية إذاً لأجواء الحركة على الطريقة الأميركية، وستبقى قائمة طويلة من الأسئلة بلا إجابات، وقد أجدني مضطرة لتعديل مخطّطي الأولي والتوقّف قبل الفصل العشرين.

أين اختفى رفيق خالدي؟ وهل لسمير وعائلة عمّه دور محوري في اختطافه؟

هل قتلوه مثلاً ثم دفنوا جثته في مكانٍ ما، واتّفقوا على نسيان أمره؟

لماذا أصرّ سمير على تكرار اسم الدوار قبل وفاته؟

ما دامَ الهدف المفترَض من كتابة أحجية مغربية هو كشف بعض خيوط قضية الزيوت المسمومة، كيف علم رفيق بأدقّ تفاصيل علاقة والده بستيف ماكميلان وهو طفل في الخامسة؟

والسؤال الأهم الذي فضّلتُ الاحتفاظ به لنفسي وعدم طرحه على لبنى: هل أحبَّها رفيق فعلاً؟

تبدأ علاقة الحب في رأيي عندما نمنح الطرف الآخر أدقّ أسرارنا وأكثرها حميمية، وإلّا كان الأمر مجرد رغبات متبادلة، قد نجد أنفسنا بعد انتهائها عراة، كحال ضحية تعرَّضت لعملية سرقة مباغتة.

من حقّ رفيق إغلاق صندوق ماضيه بإحكام، ولكنه كان مُقبِلاً على خطبة لبنى، ورغم ذلك لم يكشف لها حرفاً واحداً عن حقيقة أصوله وإصابته بتسمّم الزيوت!

أم أنّ مشروع أحجية مغربية غير المكتمل كان طريقته الخاصة في البوح بكلّ أسراره؟

تتابعت نقراتي على لوحة مفاتيح حاسوبي، غير شاعرة بكلّ ما يدور حولي، ومركّزة بكل حواسي أمام أوراق برنامج Word، إلى

t.me/qurssan

أن رنّ جرس هاتفي المحمول فجأة، ليُعيدني إلى الواقع ومقعدي المقابل للمكتب الصغير في غرفة الفندق.

كنت على وشك تجاهله، لكن اسم رشيد ورقمه أثارا تساؤلاتي، فضغطتُ على زرّ الاتصال، ليصلني هتافه الحماسي الأقرب للصراخ:

- لقد كشفَ سمير عن مكان رفيق قبل موته، لكن أحداً لم يفهم قصده طوال السنوات الماضية، كريستين، أعتقد بوجود احتمال ولو ضئيل لبقاء مؤلف أحجية مغربية على قيد الحياة حتى الآن!

* * *

t.me/qurssan

دليل الأنوار الباهرة في تحويل الضحية إلى عاهرة

الزمان : الثلاثاء 14 مايو 2002

المكان : بين المنزل الشاطئي في سيدي العابد ومخفر الامن الوطني.

تأليف وإخراج: المحامية حنان الفارسي

(1)

الوصول إلى المنزل الشاطئي، واكتشاف ما وقع بين زهير والغالية. الخوف من المصير الأسود الذي قد يلاقيه المراهق الطائش إن تمكّنت الخادمة من إثبات تعرّضها للاغتصاب.

(2)

التفكير بهدوء للتعامل مع الورطة، أي خطأ قد يقود إلى كارثة.

(3)

استغلال وضعية التهامي، الحارس البديل لشقيقه المعطي، بوصفه عاطلاً لا يملك عملاً ثابتاً، لرشوته والاستعانة به في تنفيذ الخطوات المقبلة.

(4)

تنظيف المنزل، التخلّص من زجاجة الفودكا، وإزالة آثار المعركة بين زهير والغالية.

(5)

إعادة زهير مع أمتعته إلى فيلا حي الرياض.

(6)

ما دامت الخادمة مصمّمة على تنفيذ وعيدها بإبلاغ الشرطة، فلا بدّ من التحرّك بسرعة للإبلاغ عن اختفائها في مخفر الامن الوطني البعيد بما يقارب النصف ساعة سيراً على الاقدام، وأيضاً في سرية الدرك الملكي القريبة من الشاطئ، رغم استبعاد معرفة الغالية بوجودها.

t.me/qurssan

(7)

الوصول إلى مخفر الشرطة رفقة الحارس التهامي، واكتشاف وجود الغالية هناك، ممزّقة الثياب وحافية القدمين، تحاول إقناع المفتّش بتقديم شكاية ضدّ زهير بلقاسم، ابن الدكتور يونس بلقاسم والمحامية حنان الفارسي، بتهمة الاغتصاب.

(8)

القانون واضح: لا يمكن للقاصر تقديم شكاية إلّا بوجود الوالدين أو أولياء الأمور.

(9)

تكذيب رواية الخادمة، والحديث عن اصطحابها إلى المنزل الشاطئي وحدها لتنظيفه، مع تأييد الحارس لهذا الكلام بقوله إنّ زهير بلقاسم لم يكُن موجوداً في سيدي العابد.

(10)

شهادة رجل وامرأة بالغين مقابل شهادة فتاة قاصر في السادسة عشرة من عمرها: النتيجة محسومة.

(11)

الانتقال من الدفاع إلى الهجوم: اتّهام الغالية بمحاولة التحرّش بزهير واستخدامه ككبش فداء لعلاقة أخرى تربطها بشخص مجهول.

(12)

استبقاء الغالية في المخفر طوال الليل، إلى حين استدعاء والدها من الدوار.

(13)

تصديق الأب لما سمعه ممّن اتفقوا على إدانتها، بل واتهامها أيضاً بالفساد وتشويه سمعته، ثم رفض تقديم الشكاية ضد زهير، رغم توسّلات الغالية.

t.me/qurssan

(14)

التدخُّل للعب دور المنقذ: إغلاق الملف بالتراضي ودفع مبلغ من المال للأب، مع اقتراح بعرض الغالية على دكتور متخصِّص في أمراض النساء والتوليد (يونس بلقاسم طبعاً) يثبت كذبها وعدم وجود علامات على افتضاض بكارتها أصلاً، مقابل الاستغناء عن خدماتها في الفيلا، ليصطحبها والدها إلى الدوار أو إلى الجحيم حتى، لا يهم...

(15)

إقناع زهير بنسيان الموضوع من دون تقديم تفاصيل إضافية، كمقدِّمة لإبعاده عن المغرب بعد حصوله على البكالوريا، خشية إقدامه على تصرُّف طائش في لحظة ندم مفاجئة.

* * *

t.me/qurssan

(17) رجل بلا صفات

نحن نلعب بأوراق تكفّل القدر بخلطها.

آرثر شوبنهاور

الأربعاء 6 نوفمبر 2019

الطريق إلى محطة الترام دبار- سلا:

اجتاحني شعور غريب بالنشوة بعد مغادرتي لمنزل السمسار، رغم إصراره على استبقائي، إلى حين توقف هطول الأمطار القوية التي أغرقت المدينة، فتحسَّست الوشاح المزركش القديم في جيبي، ثم شكرته بتحفّظ، من دون تقديم أيّ تفسير مقنع لرغبتي.

لن يفهم هو أو غيره بأنني اشتقت لكلّ شيء هنا، بعد غياب دام سبعة عشر عاماً، حتى لو تعلّق الأمر بالمشي وحيداً في شوارع مقفرة، وتحت سماء أقسمت غيومها على إفراغ كلّ ما في أحشائها طوال اليوم...

كيف سأخشى الليل وأنا محمَّل في أعماقي بما يكفي من الظلام؟

أنا صفر، عدم، راوغت أمي القدر بادّعائها عدم وجودي في

t.me/qurssan

المنزل الشاطئي ليلة اعتدائي على الخادمة، ففاجأها بتسجيل هدف مباغت في مرماها، عندما ادّعت السلطات الروسية عدم وجودي في مسرح دوبروفكا.

انتقلت من هوية ألكسندر جازدانوف في سيبيريا إلى جواز سفر مزوّر في كازاخستان، يقول بأنني رجل أعمال يمني يُدعى وجدي المتوكّل، أمّا اسم زهير بلقاسم فلا وجود له في الوثائق الرسمية المغربية الحالية، ويلزمني الكثير من الوقت والجهد لاستعادته.

لكن ما قيمة الأسماء إن كانت الروح المعذبة واحدة؟

كما توقّعت، لا يعلم السمسار شيئاً عن حال الغالية الآن، لكنه يعرف الدوار الذي تنحدر منه، وكل الدواوير المحيطة به، ما دامت منجماً ثميناً يستغلّه هو وأمثاله لإقناع البسطاء بدفع بناتهم للعمل كخادمات بيوت في المدن.

خطوة مهمّة ستقودني أخيراً إلى إغلاق دائرة عذاب أدركت، فور وصولي إلى فيلا حي الرياض ومعانقتي لأمي قبل أيام، بأنها ما زالت مفتوحة....

بلّلَت الأمطار معطفي الروسي الثقيل، ولم أكترث لعبور قدمي بركة من الأوحال، وقد سبح ذهني بعيداً، مستعيداً تفاصيل ما جرى على لسان أمي، ليلة عودتي إلى الرباط.

*

جلسنا متجاورين متشابكي الأصابع طوال تلك الليلة، كلّ منّا يحاول استيعاب ما حكاه الآخر من أهوال.

صرخت، فقدت الوعي، استعادته، ضحكت، أجهشت بالبكاء، ضربت صدري، عانقتني، قبّلتني، تحسّست العظام البارزة

t.me/qurssan

لوجنتي، أغلقَت عينيها وفتحتهما أكثر من مرة، ردَّدت الأسماء الغريبة لدوبروفكا والنالوكون وبيتشوشكين وألكسندر جازدانوف وكراسنوكامنسك كالمجنونة. . .

ردّ فعل طبيعي، بل جهزت نفسي استعداداً له، لكن المفاجأة لم تكُن من نصيبها وحدها، بعدما صعقتني بفاجعة وفاة والدي، وبطريقة فضائحية بشعة لطخت سمعة عائلتنا إلى الأبد.

قرأت سلسلة مقالات تناولت القضية عبر الشاشة الصغيرة لهاتفها المحمول، وتابعت ما يقوله أناس لا أعرفهم، ولا تربطهم أيّ علاقة بعائلتي، تراوحت تعليقاتهم بين الأسف والسخرية والتشفّي القاتل.

شلّ الذهول قدرتي على الفهم، ثم انتابني شعور عارم بالخزي، أدركتُ معه سبب إصرار الوسيط الروسي على تلقيني بعض أبجديات ما فاتني تعلّمه من تكنولوجيا متطوِّرة تسلَّلت شيئاً فشيئاً لتسيطر على أدقّ تفاصيل وأسرار الحياة اليومية للبشر.

هو عالم جديد يقتات فيه الجميع على فضائح ومصائب بعضهم، وربما تجلّت الفائدة الوحيدة لبقائي في سيبيريا في جهلي بكلّ ما يمتّ إليه بصلَة.

لم يكن الزمن رحيماً بحنان الفارسي أيضاً، إذ تحالفت المصائب وقسوة الأيام لتُفقدها كلّ شيء.

الجاذبية، الحيوية، وشعور قوي بالسطوة، نجحت في فرضه على الجميع خلال سنوات مجدها الضائع، في أثناء سعيها الدؤوب لرئاسة جمعية الوردة المتفتحة، كمقدمة لترشّحها للانتخابات أيضاً. . .

شعر رمادي متقصّف، ظهرٌ مقوّس، ساقان دقيقتان، وعينان

t.me/qurssan

بارزتان، مما يعاكس صورة أربعينية عرفتها سابقاً، كانت ملتزمة حدّ الهوس بالحفاظ على رشاقتها وتألّق مظهرها.

تبخّرت أحلامها بعد اختفائي، وانزلقت نحو دوامة التنقّل المستمرّ إلى روسيا بحثاً عني، وتتبّع أيّ خيط يقودها إلى كشف مصيري، وما يتطلّبه ذلك من وقتٍ وجهد ومال، فأهمَلَت عملها، وتخلّت عن طموحاتها الجامحة، وأفل نجمها سريعاً، فانقلبت عليها زميلاتها في الجمعية، من الراغبات في أخذ مكانها وخدمة مصالحهن وتقوية علاقاتهن ببعض المتنفذين بدلاً منها، ثم انفضّوا من حولها وألقوا بها في غياهب النسيان، وعندما حاولَت التعايش مع واقعها الجديد، جاءت حادثة اختفاء والدي، وبعدها فضيحة وفاته الكارثية، لتدمّرها تماماً.

الفيلا نفسها تحوّلت إلى ما يشبه قلعة أشباح مهجورة، استوطنت الرطوبة أرجاءها، والعناكب زواياها، وغطى الغبار كلّ شبر فيها، بما في ذلك صورة كبيرة في قاعة الاستقبال الرئيسة، نبتسم فيها لعدسة الكاميرا، معتقدين بأنّ القدر لن يجرؤ أبداً على التفكير في إيذائنا...

ولّت أيام احتضان الفيلا لسهرات وولائم عشاء، استضافَت خلالها أمي زوجات برلمانيين ورجال أعمال معروفين، من اللواتي يملأن أوقاتهن بالحفلات الباذخة والأسفار المتعدّدة، ولا تخرج دائرة مواضيع ثرثرتهن عن مشاكل ترهّل الأرداف وتجميل الأنف وخيانات الأزواج مع السكرتيرات الحسناوات...

حتى سبايك، كلب الراعي الألماني، لم يحتمل بقاءه وحيداً بلا رعاية، وماتَ قبل سنوات...

رباه، كيف استطاعت أمي العيش في قبرٍ كهذا بمفردها؟

t.me/qurssan

تساؤل تَبِعَه آخر فضّلت كتمانه في أعماقي، إلى حين استعادتي لتوازني، بعد ليلة لم تكُن وطأتها على قلبي أقلّ ممّا احتملته في الأعوام السابقة.

تسللت أنوار الصباح الأولى إلى مكان جلوسنا، فقلتُ مُنهِياً ليلة كدتُ أصدّق أنها بلا نهاية:

- إنها لعنة الغالية يا أمي، ما فعلناه بحقّها لا يُغتفَر...

أشاحت بوجهها المرهق، الشبيه بأرض جدباء، لا حمرة فيه ولا ماء، ثم نهضت في محاولة يائسة للهروب، فأمسكتُ بذراعها لأجبرها على الجلوس، ليتفجَّر شلال دموعها من جديد:

- كنت مجبَرَة على التصرف بتلك الطريقة لحمايتك، لكنني نادمة الآن أشدّ الندم...

- لا يقَع التراجع إلّا بعد ارتكابنا للفعل، لا قبله. أنا لستُ بخير، ولا أدري أيّ مفاجآت سيئة قد يخبِّئها كشف طبي روتيني لتشخيص حالتي الصحية، لكنني مصمِّم على البحث عن الخادمة المظلومة، حتى لو كان ذلك آخر ما أفعله في حياتي.

*

أجبرني صوت بوق حادّ على الالتفات، فوجدتُ على يساري سيارة أجرة صغيرة، قال سائقها:

- إلى أين أنت ذاهب؟

هزَّني هتافه، فتمتمتُ بلا وعي:

- حيّ الرياض...

- حيّ الرياض؟ هل أنت ثمل أم مخبول؟ هذه سيارة أجرة خاصة بمدينة سلا!

ثم فتح الباب المحاذي لمقعده على اليمين، مشيراً إليّ بأصبعه:

t.me/qurssan

- اركَبْ، أنا ذاهب أصلاً إلى مستشفى الولادة، لكن حالتك المزرية أثارَت شفقتي، أنت توشِك على التحوّل إلى كائن برمائي، سأوصلك إلى أقرب محطة ترام، وبعدها تدبَّر أمرك بنفسك. . .

أطعتُ أمره كالمنوم، فأغلق الباب وانطلق بسيارته مسرعاً.

- أؤكّد لكَ أنّ مهنة سائق الأجرة هي أصعب مهنة في العالم، فاجأ المخاض زوجتي الحامل بطفلنا الثالث، وعوض مرافقتها إلى المستشفى والوقوف بجانبها، أجدني مجبراً على الخروج الآن جرياً وراء لقمة العيش، اتّصلت بي أمي قبل قليل لتُخبرني بأن نعيمة ستضطرّ لإجراء عملية قيصرية. ما باليد حيلة، حياتها وحياة طفلي أهمّ من كلّ شيء طبعاً.

ردَّدتُ كلماته الأخيرة كالآلة:

- نعم، أهمّ من كلّ شيء طبعاً. . .

- أرادت كشف جنس المولود قبل أشهر، لكنني رفضتُ ذلك، أنا راضٍ بمشيئة الله.

- هي مصرّة على إطلاق اسم يانيس على المولود إن كان ذكراً، اسم غريب لا أفهم معناه، لكنه اسم بطل مسلسل تركي مدبلج تتابعه هي بشغَف.

بدا أنّ عدم تجاوبي مع كلامه قد أشعَرَه بالحنق فصمت، لتتوقّف السيارة بعد دقائق قليلة أمام محطة الترام، فأشعلَ مصباحاً صغيراً في السقف وقال:

- سبعة دراهم. . .

بحثت في جيب معطفي الأيمن عن النقود. لم أجد شيئاً فملتُ باحثاً في الجيب الآخر، لأقول بدهشة:

t.me/qurssan

- توجد حافظة جلدية في المقعد الخلفي، ربّما نسيها أحد الركاب!

التفت السائق بدوره نحو المقعد الخلفي، ثم ضرب جبهته بيده صائحاً:

- يا إلهي! إنه الشاب الذي أوصلته قبل قليل إلى تجزئة المكينسية!

تلقّفها بيده، ثم سلّمَها إليّ بحركة مفاجئة:

- اسمعني جيداً، الأقرب للظنّ هو توجّه صاحبها إلى المخفر الذي تراه أمامك هناك للإبلاغ عن ضياعها، أعتقد بأنه طالب في الكلية، شباب اليوم كثيرو النسيان، لكنني مضطر للذهاب إلى المستشفى، اطمئن، سأشرح لشرطي المداومة كلّ شيء فيما بعد، قُم بتسجيل رقم سيارة أجرتي 1099.

هممتُ بالاعتراض، فأوقفني رنين هاتفه المحمول.

- ماذا، حالتها خطيرة! نزيف! أنا قادم حالاً، دقائق قليلة وأكون في المستشفى!

حمَلَت عيناه التوسّل والرجاء:

- أرجوك، الحافظة الجلدية، المخفر، 1099، تبدو طيباً للغاية رغم حالتك المأساوية، نعيمة، مع السلامة...

ثم أغلق الباب وانطلق بسرعة فائقة.

ما هذا الجنون؟

أين هو المخفر؟ وكيف سأذهب إلى هناك لتسليم الحافظة الجلدية وأنا لا أملك أوراقاً ثبوتية مغربية؟ قد أدخل في دوامة استجوابات أنا في غنى عنها الآن!

يا لها من ورطة!

t.me/qurssan

لماذا قبلت بالركوب معه أصلاً؟ ألم أكُن مرتاحاً في تجوالي وحيداً، وإن غمرتني كلّ أمطار الدنيا؟

جلست بعصبية على مقعد الانتظار في المحطّة، متردّداً بين البحث عن المخفر المطلوب، وترك الحافظة في المقعد ونسيان أمرها، لكن إشفاقي على صاحبها دفعني إلى التراجع عن الخيار الثاني وضمّها إلى معطفي المبلّل.

حافظة قديمة سوداء اللون، متوسّطة الحجم، وزنها خفيف بعض الشيء.

تسلّل إليّ فضول لا يقاوم لفتحها وإلقاء نظرة سريعة على محتواها، فاكتشفتُ وجود حاسوب محمول، ومذكّرة زرقاء صغيرة...

* * *

t.me/qurssan

مقتطف من نشرة الأخبار المسائية على القناة المغربية ليوم الجمعة 1 نوفمبر 2002:

(...) ومن المتوقع أن يصل المسبار إلى المريخ مطلع العام المقبل، بعد انقطاع الاتصال بالروبوت الآلي المكلف بجمع عينات من الكوكب، إثر تعطّل بطاريته، وكانت وكالة ناسا قد أطلقته في مشروع طموح عام 1996. هذا وقد صرّح المسؤول الإعلامي للوكالة بأنّ المشروع الجديد سيمكّن العلماء من البحث عن دلائل ملموسة لوجود المياه، مع دراسة شاملة لجغرافية السطح وطبيعة الغلاف الجوي ومعدلات الإشعاعات الخطرة، تمهيداً لزيارة البشر للكوكب في المستقبل.

بالعودة إلى الشأن الوطني، وفي دوار الحاج قدور، ضواحي مدينة القنيطرة، أنشأت مجموعة من نساء المنطقة تعاونية لتربية وبيع الحلزون، وهو المشروع الذي نالَ استحسان ساكنة الدوار، وأكّد على الانخراط الفعلي في منظومة التنمية المستدامة، في إطار مقاربة تشاركية تهدف إلى تشجيع إنشاء المقاولات الصغرى والمتوسطة في الدواوير والبوادي المهمشة. نتابع تقريراً حول الموضوع من إعداد (...)

* * *

t.me/qurssan

(18) شحاذو المعجزات

يقتات الحب من الصبر، لا الرغبة.

أمين معلوف

السبت 2 نوفمبر 2002

دوار الحاج قدور - ضواحي القنيطرة:

تتابعت ضربات ماسحات الزجاج، مُحدِثة صوتاً رتيباً، امتلكت لبنى الشجاعة لقطعه باللغة الفرنسية، رغبة في إشراك كريستين في الحوار، رغم انتباهها في الوقت نفسه لمعالم الطريق الموحِلَة، مع قيادتها الحازمة للسيارة الصغيرة:

- لا أكاد أصدّق، دوار آخر يحمل الاسم نفسه، مرّت أربع عشرة سنة، ولم أفكّر في هذا الاحتمال مطلقاً!

أجبتُها من موقعي في الخلف:

- ولا أنا، لكن تقرير نشرة الأخبار كان حاسماً، الدوار موجود بالفعل، وربما كانت كلمات سمير الأخيرة إشارة غير مفهومة إليه.

أغلقت كريستين، الجالسة على المقعد المجاور للبنى، الزرّ العلوي في معطفها، معلّقة بجزع حقيقي:

t.me/qurssan

- المهم الآن هو وصولنا بخير، قد تحاصرنا الأمطار القوية في أي لحظة، والسيارة غير مجهزة للتعامل مع صعوبة الطرق الوعرة...

لم تنبس لبنى ببنت شفة، فلذتُ مثلها بصمتٍ دامَ عشر دقائق كاملة، قبل أن أشيرَ بأصبعي إلى الأفق القريب:

- ها هو، كما أشارَ عامل محطة البنزين بالضبط. صومعة المسجد الصغير والمنازل البسيطة المتحلّقة حوله!

انحرفت لبنى بالسيارة نحو مدخل الدوار، فأضفت شارحاً:

- ميزة الدواوير الرئيسة في صغرها وقلّة عدد ساكنيها، لا شكّ في أنّ البقّال يعرفهم جميعاً، وقد يقدّم لنا تقريراً مفصّلاً عن ماضي وحاضر وحتى مستقبل كلّ فرد هنا.

بدا الشقّ الأخير من عبارتي أقرب إلى دعابة ثقيلة لم يكُن مزاج أيّ منهما رائقاً لتقبّلها، فأشرتُ للبنى بالتوقف قرب جدار قصير متهالك، ما دام الدخول بالسيارة عبر الأحياء الضيقة مستحيلاً.

- كريستين، هل تفضّلين البقاء في السيارة أم الذهاب معنا؟

هتفت بحماس:

- سأذهب معكما طبعاً، لا تنشغل بأمر الترجمة، سنتدبّر أمرها بحسب سير الأمور!

تقدّمتُ المرأتين في بحثنا عن البقال، محتملاً أثر الأمطار على وجهي ومعطفي القديم، وقد لطخت حذائي كتلة قذارة تسلّلَت شيئاً فشيئاً، فشعرتُ بملامستها لجواربي.

عثرنا على محلّ صغير، بضائعه قليلة، وانزوى صاحبه المحشور داخل جلباب صوفي في ركنٍ منه، يحتسي كوباً من الشاي، وبجانبه طفل قد يكون في السادسة أو السابعة.

- مرحباً، من فضلك، هل هذا دوار الحاج قدور؟

t.me/qurssan

لم يتحرّك قيد أنملة، مُجيباً بتثاقل:

- نعم، أيّ خدمة؟

- نبحث هنا عن رجلٍ يُدعى رفيق خالدي.

وضع يديه في جيبه، ونهض ببطء، مظهراً امتعاضه، كما لو أنّ جملتي قد أجبَرَته على مغادرة مقعده في مختبر للأبحاث النووية، وسأل مرة أخرى:

- قلتَ ما اسمه؟

- رفيق، رفيق خالدي...

هزَّ رأسه نافياً.

- لا، لا يوجد أحد في الدوار بهذا الاسم الغريب، الأسَر قليلة ومعروفة هنا، هل تملكون أوصافاً أخرى؟

- هو في الخمسين من عمره تقريباً، يحرّك أطرافه بصعوبة، ويُعاني من مشاكل في القلب.

قاطَعَتني لبنى مضيفة بلهفة:

- وتزيّن شامَة جميلة خدّه الأيسر...

كتمتُ ابتسامتي، فيما ردّ البقّال بلهجة جافة:

- في الدوار بأكمله رجل واحد مشلول، لا يُغادر منزله مطلقاً، ويُقيم مع شقيقته البكماء في منزل صغير بأطراف الدوار.

تراجعت خائباً، ففاجأتني لبنى بسؤالها السريع:

- هل يمكنك أن تدلّنا على المنزل؟

هزّ كتفيه بلا مبالاة، ثم همس في أذن الطفل الصغير فانطلق الأخير راكضاً خارج المحل.

مرَّت دقيقتان فقط، لتظهر أمامنا فتاة طويلة القامة، قوية البنية،

t.me/qurssan

ترتدي معطفاً وردياً باهت اللون، دلّت ملامحها على أنها دون العشرين تقريباً.

- الغالية، تعالي إلى هنا، رافقي الشاب والمرأتين إلى منزل الضاوية، هم يبحثون عن شخصٍ ما ويعتقدون بأنه شقيقها، ذلك المشلول الذي لا نعرف حتى اسمه...

ترجمت لبنى محتوى المحادثة لكريستين بكلماتٍ سريعة مقتضبة، فيما طرَحَ البقّال سؤالاً يحمل سخرية واضحة:

- ألن تحملوا معكم قوالب سكر للرجل وشقيقته؟

ولم أكن أبطأ بديهة منه بردّي:

- لا، سنشتريها بعد عودتنا إلى المدينة...

حاولت استدراج الغالية للتحدّث عن البكماء وشقيقها بعد ابتعادنا بمسافة كافية، فقالت:

- أقامت الضاوية مع زوجها في منزلهما منذ سنوات طويلة، قبل ولادتي حتى، وبعد وفاة الزوج ظهر شقيقها فجأة، رغم أن أحداً لم يعرفه من قبل. أثار ذلك لغط وأقاويل السكان، وانتشرت الإشاعات بسرعة، لكن الزيارات المتكرّرة لنساء الدوار أثبتت بأنّ الرجل مشلول القدمين لا يفهم من كلامه المتعسّر شيء، فتركوه وشأنه، وإن اتّفقت النسوة على أنّ ملامحه الوسيمة لا تشبه الضاوية في شيء. أنا شخصياً لا أهتمّ بكل ما يُقال، البكماء والمشلول مجرّد بئيسين لا معيل لهما، لذلك أحرص على زيارتهما من وقت إلى آخر، للاعتناء بهما ومساعدة الضاوية في أشغال البيت.

وقالت بعد دقيقة من المشي المتسارع والقفز فوق البرك والأوحال:

- وصلنا!

t.me/qurssan

طرقت الباب الأزرق الصدئ، فارتجّ تحت ضربات يدها ليتردّد صوت شبيه بدوي المدافع.

فتحت الباب امرأة قصيرة القامة، تجاوزت الخمسين، ترتدي كنزة رمادية رثّة. كلَّمتها الغالية بالإشارات، فرمقتنا بعينين غائرتين خائفتين، عاجزة عن الإتيان بحركة أو كلمة، مع تمعّنها في ملامح كريستين الغريبة عمّا ألفته في الدوار، ولم تسمَح لنا بالدخول إلّا بعد انصياعها لطلب الغالية.

تجاوزت الممرّ الضيق، وكنت أول الداخلين خلف الخمسينية البكماء إلى غرفة رطبة معتمة، فاعتراني شعور سيئ بالانقباض، عوضته صعقة رؤية الجالس على كرسي متحرّك قديم أمامي.

رجل نحيل أسمر، أشيب الفودين، يعلو الوجوم محياه، وعلى خدّه الأيسر شامة منحته وسامة لافتة للنظر.

ضاقت عيناه السوداوان مع رؤيته للواقفين أمامه، مما أوحى لي بمعاناته من ضعف شديد في بصره.

فغرتُ فاهي مندهشاً، فيما أطلقت لبنى صرخة جمعت الفرحة واللوعة في آن:

- رفيق!

*

حلّ الظلام بسرعة بعد أذان المغرب، وتواصل هزيم الرعد وهطول الأمطار لساعات، تحلّقنا خلالها حول رفيق، نستمع لسرده المفصّل حول تورّط سمير وعمّه في اختفائه، في أجواء ذكّرتني مباشرة بقصّة وادي الدماء لعبد المجيد بن جلون...

استغرق أستاذ الرياضيات وقتاً طويلاً وجهداً كبيراً للتعامل مع مشاكل النطق والسعال المتكرّر، حتى خيّل إليّ بأنه يُحتضر، رغم

t.me/qurssan

أنها طريقته «الطبيعية» والمعتادة في الكلام، أمّا لبنى فكانت على وشك التهامه بعينيها الباكيتين، ولم تتفوّه بحرفٍ واحد إلّا إذا كان لمساعدته على إتمام كلمة أو جملة متعسّرة، وبنشاطٍ لا مثيل له.

أصحيح أنها المرأة الكئيبة نفسها، التي قابلناها في منزلها بالرباط، وتابعت معها كريستين ما تبقّى من أطوار قصتها في كلية الآداب؟

أنا مؤمن بأنه لا وجود للحبّ إلّا في ما قرأته من روايات، ولكن ما رأيته أمام عيني الآن سيُجبرني على إعادة حساباتي من جديد...

وفجأة انهمرت القنابل، أو بالأحرى الطَّرقات العنيفة على باب المنزل، موشكة على اقتلاعه.

هرعت الغالية بخفّة لفتحه، فبلغ مسامعي صوت فتاة صغيرة تصرخ:

- شقيقي حسن وباقي التلاميذ محاصَرون في مدرسة الدوار المجاور!

تركتُ رفيق مع النسوة في الغرفة ولحقت بالغالية والفتاة الراكضتين، غير آبهٍ بالأمطار والبركتين المشكَّلَتين في نعلَي حذائي المتهالك، لأجدني أمام لفيف من ساكنة الدوار، واقفين بالقرب من الباحة المسقوفة في المسجد، وقد تحوّلت أصواتهم المتداخلة إلى ما يشبه ضجيج الأسواق الأسبوعية:

- يملك المعلم هاتفاً محمولاً، قال بأنه والأطفال بخير الآن، ولكن إلى متى؟ لقد حاصرت السيول القسم بالكامل!

- ارفعوا أياديكم بالدعاء...

- لن تحتمل أساساته الضعيفة، وقد تجرفه الفيضانات بمَن فيه!

t.me/qurssan

- اصمت أيها المنحوس!

- ماذا سنفعل؟

- اتّصلنا بالوقاية المدنية، فوعدونا بالمجيء، ولم يأتِ أحد!

- هيا بنا، سننقذ الأطفال بأنفسنا!

- غير ممكن، سكان الدوار المجاور أنفسهم عجزوا عن التدخل، واتصلوا أيضاً بالوقاية المدنية من دون جدوى. . .

- أرواح أطفالنا في خطر!

واكتمل المشهد بظهور نساء باكيات يردِّدن أسماء أطفالهن، وعَلَت أصوات العويل المتوقّع في مثل هذه الظروف.

فهمت كلّ شيء، فعدتُ إلى منزل الضاوية بحذاء شبه ممزّق، واقتحمت الغرفة هاتفاً:

- كريستين، هل يمكنكِ إجراء اتصال سريع بسفارة بلدك؟

* * *

t.me/qurssan

صفحات من المذكرة الزرقاء التي عثر عليها زهير بلقاسم مع الحاسوب المحمول داخل الحافظة الجلدية:

2019-01-05

أفكار أولية:

– محرك الكتابة: امتهان كرامة المغاربة (القهر – الهدر – فقدان الشباب للأمل في المستقبل)

– الموضوع: كارثة الزيوت المسمومة لسنة 1959. (البحث عن المعلومات وجمع المصادر)

– القالب السردي: تحقيق «بوليسي» أدبي. (رواية منسية – البحث عن روائي مفقود)

– إيجاد خيط ناظم يجمع المحرك والموضوع والقالب السردي.

2019-02-14

حبكة أولية 1:

– كاتبة أميركية تعاني من حبسة الكتابة (بداية كلاسيكية لكنها مناسبة للدفع بالأحداث نحو ما أريده)

– يهدد الناشر بمقاضاتها إن لم تقدّم مخطوط رواية جديدة وفق ما قبلت به في العقد الموقّع بينهما ~~(مع مقارنة بين وضعية الكاتب هناك وهنا و لا مجال للمقارنة طبعا!!!)~~

– يتدخل صديقها ووكيلها الأدبي السابق (علاقة عاطفية فرعية؟؟؟) مقترحاً تأليفها رواية تدور أحداثها في فترة عمل والدها كجندي في المغرب في خمسينيات القرن الماضي (إشارة إلى تغير مزاج القراءة في الولايات المتحدة الأميركية بعد أحداث 11 سبتمبر)

– تأتي إلى المغرب لتطبيق الفكرة وفكّ لغز بعض الصور الغامضة لوالدها عثرت عليها في منزل العائلة بدنفر (تجنب تكرار فكرة كتابة الوالد لمذكرات كما هو الشأن في ساعة الصفر)

t.me/qurssan

– تلتقي طالب دكتوراه تخصّص الآداب منعه المشرف من الاشتغال في بحثه على رواية معينة، مفضّلاً رواية أخرى لاستاذ آخر (المجاملات والمصالح المتبادلة)

– تهتم الكاتبة بالموضوع وتستعير نسخة من الرواية المترجمة إلى الفرنسية لقراءتها.

– تُصدَم بوجود والدها باسمه كشخصية ضمن أحداث الرواية. (نقطة التحول)

2019-03-11

حبكة أولية 2:

– البحث عن مؤلف الرواية لسؤاله: مفقود – توصل الناشر بمخطوط الرواية عبر البريد – عنوان وهمي.

– بداية تحقيق تتعاون فيه الكاتبة مع باحث الدكتوراه الشاب لحلّ لغز الاختفاء.

– تتبع خيوط اختفاء أستاذ رياضيات (تلاعب بالأسماء): أسرار عائلية – علاقة حب ثلاثية – دور الحب في تدمير الصداقة.

– كشف العلاقة بين مؤلف الرواية والجندي الأميركي ثم الوصول إلى كارثة الزيوت المسمومة لسنة 1959.

– فضيحة امتهان الكرامة الإنسانية للمغاربة ثم ربطها بالواقع الحالي (طبعاً لم يتغيّر شيء!!!)

– عودة الكاتب المفقود في النهاية.

1 أبريل 2019: تاريخ الانطلاق

الهيكل الأساسي للرواية:

الزمان:

– 1959 (الوجود الأميركي بالمغرب وكارثة الزيوت)

– 1988 إلى 1989: توصّل الناشر بمخطوط الرواية واختفاء مؤلّفها.

t.me/qurssan

– 2002: وصول الكاتبة الاميركية إلى المغرب وبداية التحقيق حول رواية أحجية مغربية.
– ضبط التواريخ بدقة (الاستعانة باليومية الإلكترونية في الحاسوب)

المكان:

الولايات المتحدة الاميركية:
– نيويورك (مانهاتن)
– دنفر

المغرب:
– الرباط. (فندق تقليدي – المدينة القديمة)
– الدار البيضاء (الحبوس) (اللقاء بالناشر السابق)
– القنيطرة (ابرز مواقع الوجود الأميركي بالمغرب) (رواية محاولة عيش لمحمد زفزاف)
– مكناس وضواحيها (اشهر المدن التي وقع سكانها ضحايا كارثة الزيوت المسمومة)
– ضبط كلّ ما له علاقة بالأحياء والشوارع والمدن وتفاصيل الحياة الاجتماعية (أكل، ملبس، إلخ...)

الشخصيات الرئيسة:

– كريستين: كاتبة أميركية (الراوية) (كل الأحداث من منظورها هي إلّا إذا تطلّبت بعض الفصول استخدام تقنيات سرد مغايرة) (عصبية – متسرعة – طيبة القلب – تائهة)
– براندون: صديق كريستين ووكيلها الأدبي (يحبّها سراً – قارئ ممتاز – كتوم)
– رشيد: باحث مغربي شاب في سلك الدكتوراه تخصّص الآداب (ذكي – سريع البديهة – خجول – ساخر – عدمي)
– شخصيات أخرى بحسب مسار الأحداث (الناشر السابق – نادل حانة الأركاد – مؤلف الرواية – صديقه – حبيبته)

t.me/qurssan

العنوان:

– أن يتصدّر كلّ فصل عنوان رواية أو كتاب لمؤلف آخر واقتباس مناسب لمحتوى الفصل.

– ترك البحث عن عنوان مناسب إلى ما بعد الانتهاء من كتابة ومراجعة الرواية.

تقسيم الفصول:

– 20 فصلاً.

– إدراج وثائق منفصلة قبل بداية كلّ فصل (نبذة عن الروايات السابقة للكاتبة – ~~قصة من تأليف الكاتبة~~ – بنود من عقدها مع مؤسسة النشر – مقتطف من أطروحة باحث الدكتوراه – فصول من رواية الكاتب المختفي – مقالات وأبحاث عن قضية الزيوت المسمومة...)

– معدل 6 صفحات لكلّ فصل (5 أو 7 بحسب ما تسمح به الأحداث مع تجنب الإطالة)

– خط Sakkal Majalla حجم 13 وورق Word بأبعاد A5.

2019–10–25

~~10~~ ~~9~~ ~~8~~ ~~7~~ ~~6~~ ~~5~~ ~~4~~ ~~3~~ ~~2~~ ~~1~~

20 19 18 17 ~~16~~ ~~15~~ ~~14~~ ~~13~~ ~~12~~ ~~11~~

– ماذا بعد؟ (اللقاء مع لبنى العفوي وفَهم العلاقة بين لحجية مغربية ورفيق خالدي وستيف ماكميلان وقضية الزيوت المسمومة)

– أين اختفى رفيق خالدي؟ سمير قاسمي وعائلة العم مسؤولون عن اختفائه طبعاً.

– قتلوه وأخفوا جثته في دوار الحاج قدور لذلك نطق سمير باسم الدوار قبل وفاته؟ (ممكن، ولكنني أريد عودته، لبنى المسكينة لا تستحق كلّ هذا العذاب!!!)

t.me/qurssan

– الاكتفاء بهذا القدر واعتباره مفقوداً إلى الأبد لسبب ما؟ (مستحيل: لن أكرّر ما جرى مع الراوي المجهول في ساعة الصفر)

– قرّر الاختفاء بمحض إرادته؟ (لا يوجد أيّ سبب منطقي لذلك، كان يستعدّ لخطبة فتاة يحبها، ويكتب رواية يطمح لنشرها وبدء مساره ككاتب...)

– فقد الذاكرة؟ (لا ومليون لا ... هذا ليس مسلسلاً تركياً أو مكسيكياً)

– أحد معتقلي سنوات الرصاص وتمّ الإفراج عنه فيما بعد؟ (فكرة مكرّرة ومستهلكة)

– ذهب إلى الولايات المتّحدة وقتل ستيف ماكميلان بالسمّ ثم انتحر؟ (فكرة غبية)

الخلاصة: إما أن أجدَ حلاً لمعضلة عودة الكاتب المفقود، أو ينهار كلّ ما بنيته!!!!

* * *

t.me/qurssan

(18) رحلة في أقاصي الليل

اقرأ إلى أن تكفّ عن التمييز بين
النص ونفسك.

يون كالمان ستيفنسن

الأربعاء 6 نوفمبر 2019
حي الرياض- الرباط:

اقتربتُ من غرفة نوم أمي، ثم فتحت الباب بهدوء مخافَة إيقاظها، فوجدتها راكعة على ركبتيها، فوق سجادة الصلاة، مكتفية بإضاءة خافتة، وحاملة بين يديها مصحفاً كبيراً، تقرأ منه بهمس خفيض:

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (107) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (108) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (109)﴾ صدق الله العظيم.

إذا كان ثمن الضرّ تذكيري بوجود ربّ قادرٍ على كشفه متى شاء، فأنا مستعدّ للتحمّل أكثر...

t.me/qurssan

اختلجَ قلبي بين ضلوعي مع قراءتي اسم سورة يونس أعلى الصفحة، ثم قبَّلْتُ رأسها، فداعبَت وجهي المبلَّل بأناملها النحيلة، وتوجّهت بنظرات متسائلة نحو الحافظة الجلدية السوداء التي أحملها في يدي اليمنى، فاكتفيتُ بتقبيل يدها ومغادرة الغرفة بصمت.

وضعتُ الحافظة على طاولة المكتب، واستخرجتُ الحاسوب والمذكرة الزرقاء بأصابع مرتجفة، وقد انشغل ذهني بالبحث عن طريقة مناسبة للتعامل معهما.

كان تصفّح المذكرة في أثناء انتظاري لوصول الترام منافياً لأبسط قواعد الاحترام والخصوصية، وإن أدركتُ في الأيام القليلة الماضية بأنّها لم تعُد ذات قيمة تُذكر، فأقنعتُ نفسي بأنّ الغرض ممّا فعلته هو البحث عن إشارة أو اسم أو عنوان مضبوط يقودني إلى معرفة هوية صاحب الحافظة الجلدية قصد إعادتها إليه بسرعة، من دون الحاجة إلى تسليمها لشرطة المخفر.

توقّعت أي شيء، مذكّرة بأرقام هواتف أو مواعيد (رغم انقراضها)، أرقام يانصيب، قائمة فواتير، نتائج مباريات كرة القدم، مسوّدة تمارين مدرسية، خواطر شخصية، أو حتى طلاسم سحرية.

أمّا مذكرة تتناول خطّة تأليف رواية، فذلك ممّا لم يدُر بخلدي قطّ...

صاحب الحافظة كاتب روائي إذاً!

وصل الترام إلى المحطة، فحسمتُ أمري وركبت إحدى العربات، عازماً على العودة إلى المكان نفسه صباح غد، ما دام البحث في ليلة ممطرة عن مخفر لا يعلم مكانه سوى سائق سيارة أجرة غريب الأطوار ضرباً من المستحيل.

لم أجد أدنى صعوبة في تشغيل الحاسوب المحمول، اعتماداً

t.me/qurssan

على ما أَلِفْته خلال الأيام السابقة من تعاملي مع هاتف أمي وحاسوبها، كما أشارت البطارية إلى قدرتها على الاحتمال أربع ساعات إضافية.

حاسوب فارغ تقريباً، إلّا من ملف مرقّم بـ 42، ويضم عشرين ملف Word مرقّمة بدورها تصاعدياً، 1، 2، 3. . . إلخ.

ما دلالة الرقم 42؟!

انتبهت إلى أنّ الجهاز لا يضمّ أيّ ملفّ آخر، ولا يحمل أيّ إشارة لاسم صاحبه، ففهمتُ بأنه حاسوب ثانوي صغير، يخصّصه المؤلف للكتابة فقط.

بدأت بالملف رقم 1، فطالعتني السطور المتوالية:

(1) أشياء تتداعى

أميركا بلد معقّد جداً، وإن كانت الأفكار المتداولة فيه بسيطة للغاية.

ماتي فينيش

الخميس 26 سبتمبر 2002

مكتبة ستراند بوك ستور - مانهاتن:

لا يملك أحد حقّ التشكيك في موهبتك الأدبية يا كريستين، لكنك لا تفقهين شيئاً في دهاليز النشر وحيل عقود الاحتكار، أرجوك، لا تطلقي وعوداً تعلمين جيداً بأنك ستعجزين مستقبلاً عن الوفاء بها. . .

جملة هَمَس بها براندون في أذني ذات مرة قبل ثلاث سنوات، وأعترف اليوم بأنها حكيمة، صادقة، وحاسمة.

t.me/qurssan

أشياء تتداعى عنوان رواية شهيرة للكاتب تشينوا أتشيبي، أمّا ماتي فيسنيتش فلم أسمع به قط، لكنها تفاصيل تُطابق ما أشار إليه المؤلف في مذكرته باعتماد عنوان رواية واقتباس لافتتاح كلّ فصل في مشروع روايته.

بدأت القراءة، وشيئاً فشيئاً غرقتُ في أحداث الرواية، بأسلوبها الواضح وفصولها القصيرة، وقد بدا لي بأنها تسير وفق ما خطَّطه لها الكاتب في مذكرته بدقة.

ولا أنكر بأنها مشوّقة فعلاً...

تفاعلت مع تحرّك الشخصيات داخل الفضاءات المرسومة لها، أثارت كريستين عصبيتي بتسرّعها وفوضويّتها، رغم منطقية إصرارها على براءة والدها، أعجبت بسرعة بديهة رشيد، تفهّمتُ تشاؤمه الصريح وعجزه عن توقّع مستقبل أفضل له ولأمثاله، كما أثارت مأساة رفيق تعاطفي، ولم أستغرب قتالية لبنى وتمسّكها بالأمل الضعيف في عودته.

أصحيح أنّ المغرب مرّ بهذه التجربة المرعبة، زيوت تشحيم طائرات حربية أميركية ممزوجة بزيوت مائدة، وضحايا بالآلاف، لا يتذكّرهم أحد اليوم؟

أقولها بسخرية مريرة، فما عايشته من أهوال في جحيم سيبيريا قَتَلَ أيّ صيغة للتعجّب في أعماقي من زمن طويل...

تقول القاعدة الشهيرة بأنّ مَن يقتل مرة، يقتل ألف مرة.

وأضيف أنا بأنّ مَن يتجاهل مصير مغربي واحد، سُجِنَ في كراسنوكامنسك ظلماً، قادر على تجاهل مصائر آلاف المظلومين غيره...

t.me/qurssan

وفي أحيان كثيرة، يكون التجاهل أشدّ وطأة على ضحاياه من القتل...

وصلتُ إلى الفصل 16، فنبّهتني بطارية الحاسوب إلى فراغها، ما أجبرني على البحث بسرعة في الملفات 17 و18 و19 و20، لأكتشف بأنها فارغة تماماً، قبل تحوّل الشاشة إلى السواد التام، مع إعلان ساعة يدي عن الثالثة فجراً.

الآن فهمتُ ما وردَ في الصفحات الأخيرة من المذكرة الزرقاء...

طبيعي جداً أن يمتلك الكاتب إجابة لكلّ سؤال، فهو كذاب بالفطرة، لكن المؤلف هنا أخفَقَ فعلاً في سعيه لإيجاد صيغة مناسبة يكشف بها مصير رفيق خالدي، وبالتالي إتمام ما تبقى من فصول روايته.

هو محقّ في إصراره على لَمّ شمل رفيق ولبنى، وإنهاء عذاب طالَ أكثر من اللازم.

القدر ليس ظالماً إلى هذا الحدّ، وحتى إن كان كذلك، فليكُن الخيال على الأقل رحيماً بنا!

نقطة واحدة أثارت انتباهي، لم أتمكّن من مراجعتها في الحاسوب، فعدتُ إلى المذكرة بسرعة للتأكّد منها.

أشار الكاتب إلى أنّ دوار الحاج قدور قريب من مكناس، لكن ما أعرفه أنا هو تموقعه بضواحي القنيطرة، اعتماداً على ما قاله السمسار عندما قابلته قبل ساعات قليلة فقط.

تنحدر الغالية من دوار الحاج قدور ضواحي القنيطرة، لا مكناس!

يعلم أيّ مغربي بأنّ المسافة بين القنيطرة ومكناس تتجاوز

t.me/qurssan

الـ 120 كيلومتراً على الأقل، ما يجعلني مستغرباً ارتكاب الكاتب خطأ شنيعاً كهذا...

ولكن مهلاً!

ماذا لو أنّ الأمر يتعلّق بقريتين تحملان اسمَين متشابهين؟

ألن يَضعنا ذلك أمام احتمال جديد لتفسير ما حاولَ سمير قوله قبل وفاته؟

فتحت درج المكتب، باحثاً عن أوراق بيضاء وقلم حبر، مستسلماً لفكرة لا تقلّ جنوناً عمّا جرى خلال الساعات الماضية، منذ قبولي لعرض سائق الأجرة بتوصيلي إلى المحطة.

قرأت الكثير من الكتب في السجن، ولم أفكّر مطلقاً في كتابة سطر واحد، كما أنّ لغتي العربية سيئة جداً، وقد أرتكب الكثير من الأخطاء الأسلوبية الفادحة، لكنني سأحلّ لغز اختفاء رفيق، وأضع تصوّري الخاص لظهور رفيق بعد طول غياب، كمقدّمة للقائي أنا بالغالية، بعد مرور سبعة عشر عاماً على غيابي.

سيكون دوار ضواحي القنيطرة مبتدأ الأحجية ومنتهاها، في رواية هذا الكاتب، وحياتي أنا...

* * *

t.me/qurssan

ما رواه رفيق خالدي عن ظروف اختفائه يوم السبت 30 يوليو 1988، وما جرى بعد ذلك من احداث (تمّت إعادة صياغة كلامه على شكل نقط مختصرة، فمعاناته من صعوبات في النطق تُجبره على تكرار الحروف والكلمات اكثر من مرة وببطء شديد):

– غادرت البيت متوجّهاً نحو محلّ الورود لإحضار الباقة، كآخر خطوة قبل الذهاب رفقة عائلة عمي إلى منزل لبنى.

– كنت على بعد شارع واحد من الوصول إلى المحلّ، عندما قابلتُ سمير صدفة.

– اعتصر الألم قلبي، فقد كان شجارنا الاخير عنيفاً، وانتهَت صداقتنا بقطيعة تامة. توقّعت ان نتحاشى النظر إلى بعضنا كما في مرات سابقة، ففاجأني باقترابه مني ومعانقتي، هنّأني بالخطبة، وتمنى لي حياة سعيدة مع لبنى، ثم أعرَبَ عن اسفه لما وقع، ورغبته في بدء صفحة جديدة في علاقتنا، ودعاني إلى منزله لشرب فنجان من القهوة التي يُتقن إعدادها، كبادرة حسن نية.

– اسعدني ما سمعته، فوافقتُ على الفور، ما دام الوقت مبكراً قبل الموعد المنتظر في التاسعة مساء.

– كعادتنا قبل الشجار، قادني إلى المكتبة الصغيرة في منزله، وقدّم لي نسخة جديدة من رواية **الحياة: دليل استعمال** لجورج بيريك، قائلاً بأنها هدية مُصالحة بسيطة، لعلمه بانني من محبّي مؤلّفها.

– كانت روح الدعابة حاضرة عنده، فضحكت عندما قال بأنّ **الحياة: دليل استعمال** انسب اختيار لي إن وجدتني ذات يوم معزولاً في جزيرة بعيدة.

– جلسنا لشرب فنجان القهوة، نستعيد أيام نقاشاتنا الادبية الجميلة، ففاجأني على حين غرّة مغص رهيب، انقطعت معه أنفاسي، وتصاعدت حدّة سعالي، حتى ايقنت بأنّ نهايتي قادمة لا محالة، من دون فَهم أو معرفة الأسباب.

– غامَ بصري مع اندفاعي الإجباري نحو حافة الانهيار، فاقترب سمير

t.me/qurssan

مني، وعلى وجهه ابتسامة مخيفة لم أعهَدها منه قبل تلك اللحظة. حاولتُ الصراخ فخانَني النطق المتعثّر، قبل استسلامي أخيراً لغيبوبة عنيفة.

– استعدتُ وعيي فوجدتني بغرفة مريعة ضعيفة الإضاءة، ومكان لا أعرفه مطلقاً، حاولت النهوض، ليُقعدني الألم الرهيب، وعجزتُ عن تحريك قدمي، مع مضيّ وقت طويل على تناولي آخر جرعة من دواء يمكّنني من تحمُّل آلام المشي.

– وجدت أمامي امرأة قروية رثّة الثياب، تتطلع إليّ بذهول غريب، خاطبتُها بما يسمح به لساني الثقيل، فاكتشفتُ بأنها بكماء، لا تتقن سوى بعض الإشارات المبهمة.

– لم يمضِ وقت طويل حتى فُتِحَ الباب، وظهر سمير، ليتقدّم بخطوات هادئة واثقة، ويجلس على مقعدٍ خشبي أمامي.

– كان شخصاً آخر، لا علاقة له بالصديق الحميم الذي عرفته، وعندما تكلَّم اكتشفتُ حجم المؤامرة التي حيكت خيوطها في غفلة مني، وبتحالف أقرب الناس إليّ...

– قال بأنني محظوظ، فأوّل فكرة راودت عمي قاسم كانت قتلي والتخلّص مني نهائياً، ما دام ذلك السبيل الأوحد لاستفادة الطرفين، باستيلاء الأول على المنزل وإتلاف الوثائق التي تثبت ملكيتي للعقار بعد وفاة أمي، واستفراد الثاني بلبنى، لكنه تمكّن من إقناع عمّي بأنّ الأنسب هو إبعادي عن المدينة بكاملها، وبطريقة تمنعني من العودة نهائياً.

– أضافَ بأنّ ذلك لم يكُن نتيجة صحوة ضمير مفاجئة، بل لأنّ القتل مرادف لقاعدة هابياس كوربوس الرومانية القديمة (التي لم يفهمها عمّي طبعاً)، فمتى ظهرت الجثة صارَ كلّ شيء ممكناً وصارت هناك بداية خيط، سيتمّ التعرّف على صاحب الجثة ومَن اختفى بهذه الصفات في المناطق المجاورة، وبالتالي التعرّف على أعداء المختفي لتضيق الدائرة حولهما شيئاً فشيئاً.

– فسَّر فكرته لعمي قائلاً بأنني أتناول ترسانة أدوية، بعضها يساعدني على تحمّل آلام المشي المبرحة، وقد يؤدّي حرماني منها إلى إصابتي بالشلل التام، وما دام لساني مضطرباً أصلاً، فسيصبح التخلّص مني من

t.me/qurssan

دون قتلي سهلاً، ويمكنهما عندئذٍ إبعاد الشبهات عنهما بنَشر إعلان الاختفاء في الصحف.

– كان تناولي للأدوية سراً أخفيته عن الجميع باستثناء سمير (وإن ظلَّت علاقتي بالزيوت المسمومة سرّي الأكبر)، مرَّت الأيام واستخدم صديقي هذا السرّ ضدي...

– قال بانني الآن في دوار منسي لن يعلَم احد بوجودي فيه، وانني لن اكون وحدي، لأنّ الضاوية البكماء، وهي إحدى قريباته من بعيد، ستعتني بي وتمنعني من الموت جوعاً، مستفيدة من وجود رجلٍ في بيتها، يحميها من الأطماع والأقاويل بعد وفاة زوجها، وإن كانَ معوّقاً مشلولاً لا خَوف منه على الإطلاق.

– قال جملته الأخيرة بنبرة تقطر تشفّياً، واضاف ساخراً قبل مغادرته، بانه ليس شريراً إلى هذا الحد، لذلك ترك معي رواية بيريك، التي لا تصلح سوى لقارئ فُرِضَت عليه عزلة إجبارية طويلة.

– كانت صدمتي عارمة بعد رحيله، وتمنّيتُ لو يكون الأمر مجرّد كابوس سخيف استيقظ منه في فراشي مبلّلاً بالعرق. لم أتوقّع ولو للحظة واحدة أن يكون سمير ممتلئاً بهذا الحقد والرغبة الجنونية في الانتقام مني وإذلالي.

– تجاوزت دهشتي تدريجياً، وفهمتُ بانها كانت بالفعل خطّة شيطانية مكتملة الأركان.

– إقامة جبرية في منزل منعزل بدوار لا أعرفه، مع حرمان من الأدوية التي تعينني على احتمال قسوة آلامي، مما سيقودني إلى فقدان القدرة على المشي نهائياً، وتقاسم شظف العيش مع امرأة بائسة بكماء تُعاني مثلي في صمت.

– تدهورت حالتي الصحية، ولم أعُد قادراً على مغادرة الفراش، تعتصرني آلام الروح والجسد والتفكير المتواصل في لبنى، الوحيدة الباقية لي في هذه الدنيا.

– توالت زيارات سمير المنتظمة بعد ذلك، إلى أن صعقني بخبر زواجه من لبنى ثم إنجابها طفلة جميلة منه، سمّاها جنان، ولم يكتفِ بذلك، بل

t.me/qurssan

حرص أكثر من مرّة على عرض صوره معهما أمامي، مطمئناً لعدم قدرتي على فعل شيء، بخاصة مع استفحال معاناتي مع مشاكل النطق، بما يمنعني حتى من الردّ على استفزازاته كما يجب.

– مرت ثلاث سنوات من العذاب النفسي الرهيب، وأنا أرى حبيبتي مع رجلٍ آخر يتفنّن في إذلالي، ليختفي بعدها فجاة، فجزمتُ بأنه اختار التجاهل التّام لتكون ضربةً أخيرةً يقضي بها على البقية الباقية من قدرتي على التحمّل.

– مرّت أربع عشرة سنة وأنا هكذا، أتجرّع العذاب على هامش النسيان، سجين الجدران والجسد، ورهين المحبسين كأبي العلاء المعري. لا يؤنس وحدتي سوى جهاز راديو عتيق، وكرسي متحرّك أحضرته الضاوية وفهمتُ من إشاراتها أنه لامرأة عجوز توفيت فتخلّص أبناؤها منه. صرت قادراً على مغادرة الغرفة بحرية أكبر، والجلوس أمام الطاولة ومحاولة كتابة أيّ شيء، حتى لو كان خربشات طفولية، رغم صعوبة ذلك على أصابعي المتصلّبة، بعدما تبرّعت هذه المسكينة أمر أقلام حبر وأوراق من بعض أطفال الدوار.

– هي سنوات طويلة لم يتغيّر فيها شيء، كصورة ملتقطة لغرفة في لحظة ثابتة، على منوال ما فعله بيريك في روايته.

– كان الوَغد على حق، رواية **الحياة: دليل استعمال** هي أفضل رواية تصلح لسجنٍ طويل، ما دامت رواية لا نهائية، تُقرأ أكثر من مرة وبأكثر من طريقة، ممّا يجعلها رواية متجدّدة دائماً.

– قرأتها مراراً، فَككتها وأعدتُ تركيبها في ذهني، فهمتُ كلّ الألاعيب الأوليبية والقيود الشكلية الصارمة لكاتبها، باستخدامه للمربع الإغريقو لاتيني، وتنقّله بين غرف العمارة مستعملاً مسألة حصان رقعة الشطرنج، وسرّ تعمّده الاكتفاء بـ 99 فصلاً عوض 100.

– قد يبدو لكم أمري غريباً، بحديثي عن رواية بكلّ هذا الحماس، لكنني لا أختلف في شيء عن السيد ب، سجين المعتقل النازي في رواية **لاعب الشطرنج**. هذه التفاصيل الحياتية الصغيرة هي التي أعادتني إلى الحياة، لم يُدرك الوغد باستهزائه بي عندما ترك معي الرواية طوال أربعة عشر عاماً بأنه منحني سلاح هزيمته بيده، فمَع تمكُّني من حلّ كلّ ألغاز بيريك المعقدة،

t.me/qurssan

شعرتُ بقوة غريبة، وامتلأت أعماقي بالرغبة في الانتقام من سمير وعمي قاسم، حتى لو بدا ذلك مستحيلاً.

– أنا اليوم كإدموند دانتيس بطل رواية **الكونت دي مونت كريستو**، ولم أتوقَّع أن يأتي الفرج يوماً ما وأتمكن من مغادرة سجني، بعد أربع عشرة سنة كاملة، كعدد السنوات التي قضاها إدموند في سجنه بالضبط!

– أخبريني يا لبنى: أين هو سمير؟ هل ما زلتِ زوجة له حتى الآن؟ والأهم من كلّ هذا، أما زلت محتفظة بمسوّدة **لحجية مغربية** غير المكتملة؟ فأنا لن أنسها مطلقاً، وما زلتُ عازماً على إتمامها!

* * *

t.me/qurssan

(19) آخذك وأحملك بعيداً

إن الإنسان لا يرث الكرامة ولا المهانة،
بل يصنعها بنفسه.

ماريو فارغاس يوسا

السبت 2 نوفمبر 2002
دوار الحاج قدور - ضواحي القنيطرة:

تواصل هطول الأمطار القوية، ففضّل رجال الدوار الدخول إلى المسجد وقراءة اللطيف، بعدما يئسوا من قدرتهم على فعل شيء سوى إجبار النساء الباكيات على العودة إلى المنازل المتناثرة، فيما احتميتُ أنا بالباحة المسقوفة، شاخصاً ببصري نحو السماء الغائمة، أنتظر فرجاً قد يأتي، أو لا يأتي...

مرّت نصف ساعة تقريباً، ليبلغ مسامعي صوت خافت، اقترب شيئاً فشيئاً، متحوّلاً إلى هدير يصمّ الآذان، فهرع بعض الرجال نحو باب المسجد باحثين بخوفٍ عن مصدره، لتظهر مروحية كبيرة، ظلّت على علوٍّ منخفض قليلاً، مواصِلَة تحليقها جنوباً، فخاطبتهم بثقة:

- اطمئنّوا، سيكون كلّ شيء على ما يرام إن شاء الله...

لم تمرّ سوى بضع دقائق حتى توالى وصول سيارات إسعاف

t.me/qurssan

وعربات إطفاء، حوّلت مدخل الدوار إلى ما يشبه الثكنة العسكرية، لتتبعها سيارة لاندروفر مجهّزة للتعامل مع التضاريس الوعرة، غادرها رجل يرتدي قبعة سوداء ومعطفاً شتوياً باهظ الثمن، اضطرّ للقفز فوق الأوحال بهدف الوصول إلينا، فرسم على وجهه تعبيراً متأفّفاً مع اتّساخ سرواله، وقال بامتعاض مَن لا يهمه أحد سوى نفسِه:

- المروحية مخصّصة للتعامل مع الكوارث الجوية. كلّ شيء تحت السيطرة، سيتمّ إنقاذ الأطفال المحاصَرين بالمدرسة مع أستاذهم...

هلّل السكان وكبّروا، وركض بعضهم نحو المنازل لإخبار الأمهات الخائفات، متجاهلين الأوحال وخطر الانزلاق، دون أن يحرّك فيه ذلك أي شعور بالتعاطف، مع إضافته:

- أين هي السائحة الأميركية؟

تبادل الباقون أمام باب المسجد نظرات مستغربة، فلم أجد بدّاً من التدخّل والرّد بحزم:

- السائحة الأميركية بأمان، ولم يُصِبْها أيّ مكروه، المهم الآن هو إعادة أطفالٍ وأستاذٍ يفترض أنهم مغاربة مثلي ومثلك إلى ذويهم.

ركّز بصره لبضع ثوان على حذائي الممزّق، قبل أن يقول ببرود مزيّف:

- ما هذا الأسلوب الذي تكلّمني به؟ ألا تعرف مَن أكون؟ أنا...

قاطعته بسرعة:

- أنا صديق الأميركية، وأنا الذي طلبتُ منها الاتصال بسفارة بلدها، ما دامت تلك الوسيلة الوحيدة لتحريك مروحياتكم وفرق

t.me/qurssan

إنقاذكم نحو مناطق يعلم أيّ طفل في الابتدائية بأنها تنتمي جغرافياً إلى المغرب، لا كوكب المريخ...

احتقنَ وجهه، وبدا كثمرة طماطم، فتخلّى عن هدوئه، وهجم عليّ ممسكاً بخناقي صارخاً:

- سأربيك أيها المتسوّل، حتى تتعلّم أبجديات الحوار مع أسيادك!

كانت قبضته قوية بالفعل، وربّما ندمت على صراحتي الزائدة معه، فحاولت التملّص منه دون جدوى، ليتدخّل عددٌ من رجال الدوار لتخليصي منه، مزمجرين بعبارات غاضبة ضدّه، بعدما فهموا أخيراً طبيعة ما يجري أمامهم.

انسحب، مفضّلاً العودة إلى مواقع سيارات الإسعاف وإصدار الأوامر لفرق الإنقاذ، وقد أشار بأصبعه نحوي مهدّداً:

- سألاحقك، وستندم على كلّ حرف تفوّهتَ به، لن يحميك مني أحد، والأيام بيننا...

أحاطَ بي رجلان لتهدئتي، فسيطرتُ على أعصابي، وقلت هامساً:

- كعادتكم، لا تتقنون شيئاً سوى الكلام، سنرى مَن سيندم منّا يوماً ما...

ثم ظهرت كريستين لاهثة، بشعرٍ مبلّل مبعثر ما أثار دهشة الواقفين أمام باب المسجد.

- رشيد، ما الذي يجري هنا؟

*

بدأ الجزء الثاني من السهرة بعد تراجع حدّة الأمطار، وعودة

t.me/qurssan

كلّ الأطفال إلى ذويهم بأمان، ثم تأكّد ذلك المسؤول من وجود كريستين معنا، لطمأنة رؤسائه في المدينة.

تناوبت مع كريستين ولبنى على سَرد أطوار ما جرى، لرفيق المتلهّف لمعرفة ما فاته، فيما تعاونت الغالية والضاوية على إعداد الشاي، الراعي الرسمي لكلّ سهرات النميمة المغربية.

ختَمَت لبنى سردها بالقول:

- ماتَ عمك قاسم قبل سنوات، وزوجة عمك طريحة الفراش الآن، معها ابنتها المطلقة وأطفالها الخمسة، ابنها الأكبر في السجن إثر ارتكابه جريمة سرقة بالإكراه، أمّا الأصغر فلا يفارق مدخل الحي مع شلّة من أقرانه، بعد مغادرته مقاعد الدراسة. باختصار، ولّت أيام ذلك المنزل...

وأردفت بنبرة خجولة ذات مغزى:

- ومعها كلّ اللحظات الجميلة التي شهِدَها...

تصفّحتُ نسخة رواية بيريك القديمة، منتبهاً لملاحظات رفيق وهوامشه المكتوبة بخطٍّ متعسّر يشبه خطوط أطفال الحضانة، وقلت:

- هنالك أشخاص لا يرون الحياة بالطريقة نفسها التي نراها بها نحن، ولا يولونها أيّ اهتمام وأي قيمة، وهم عاجزون تقريباً عن منع أنفسهم من ارتكاب أفعالٍ بمثل تلك الوحشية، تخلّص من رغبتك في الانتقام يا سيدي، فلن تفيدك بشيء، ما دام إدموند دانتيس نفسه قد وصلَ لهذه القناعة في نهاية المطاف...

ثم رفعتُ رأسي مبتسماً:

- وكما قال إيتالو كالفينو، فالعمل الكلاسيكي هو الذي لم ينتهِ أبداً من قول ما عليه أن يقوله. مرّت أربع عشرة سنة، ثم قادتنا إليك

t.me/qurssan

روايتك أحجية مغربية. كعادة كلّ الأعمال العظيمة التي لا تُكتب، بل تَخلق نفسها بنفسها!

تدخّلت كريستين، موجّهة كلامها إلى رفيق بالفرنسية:

- أعلم بأنّ كلّ كلمات الاعتذار لن تكفي للتعبير عن حَجم أسفي، ولا أدري ما حَجم تورّط والدي في مأساتك، لكنني مستعدّة لتقديم أي مساعدة تطلبها، وأقترح التكفّل بمصاريف علاجك في أفضل مستشفيات الولايات المتحدة الأميركية...

داعبت لبنى يَد رفيق وهي تتطلّع إلى وجهه بهيام العاشقة، ثم قالت:

- تمسّكت بالأمل في عودته، وعادَ أخيراً. لن أفقد الأمل أيضاً في علاجه. لكن القضية برمّتها بحاجة إلى حلّ جذريّ ونهائي، فالآلاف غيره يعانون بصمت، بعدما نسيهم الجميع...

ذكّرتني كلمة النسيان بنقطة غابَت عن ذهني المكدود، فبحثتُ في جيب معطفي عن صورة الشابة المغربية الغامضة، وقدّمتها للبنى، فساعَدَته على الإمساك بها بين أصابعه المرتعشة:

- نقطة أخيرة أودّ الاستفسار بشأنها، هذه الصورة، هل هي لوالدتك الحقيقية؟

ظلّ صامتاً للحظات طويلة، ثم قال بنطقه البطيء:

- لا، ليست هي...

رسمتُ على وجهي علامات الاستنكار، فأضاف باذلاً جهده في الربط بين الحروف والكلمات:

- كنت في الخامسة عندما رأيتها آخر مرة، وحاولتُ البحث عن أثرٍ لعائلتي في القنيطرة، بلا فائدة. لقد رحلوا جميعهم عن المدينة بعد مغادرة الأميركيين، وما جرى في القاعدة الجوية بداية

t.me/qurssan

السبعينيات. نعم، مضت سنوات طويلة، لكنني متأكّد تماماً من أنّ صاحبة الصورة ليست مليكة الفاروقي، أمي البيولوجية...

تطلّعت إليّ كريستين بتساؤل، منتظرة ترجمتي لما قاله، فاستندتُ بظهري إلى الحائط، مطلقاً زفرة قوية حمَلَت معها كلّ إرهاقي وحيرتي، ثم خاطبتها بالإنجليزية:

- يبدو أن سيرة والدك، الهادئ المملّ كما سميته، ما زالت حبلى بالقصص الغامضة!

* * *

t.me/qurssan

اهم حدث تاريخي لسنة 1099 ميلادية:

سقوط مدينة القدس بيد الصليبيين بقيادة جودفري بعد حصار دام شهراً وبضعة أيام، بين 7 يونيو و 15 يوليو، وذلك في إطار الحملة الصليبية الأولى (1096-1099)، مؤسّسين بذلك مملكة بيت المقدس.

لم يتمكّن المسلمون من استرداد المدينة إلّا بعد 88 عاماً، بقيادة صلاح الدين الأيوبي، بعد حصار استمرّ زهاء أسبوعين، بين 20 سبتمبر و 2 اكتوبر 1187.

* * *

t.me/qurssan

(19′) الحياة: دليل استعمال

احمِلْ الكتاب الذي تكتبه في مخيلتك،
ولكن أبقِ فمك مغلقاً.

روبرت ماسيللو

الخميس 7 نوفمبر 2019
شارع محمد الخامس- الرباط:

غادرت الترام بالقرب من محطة القطار الرباط المدينة، واتخذت الطريق مباشرة إلى المكتبة المقابلة لمبنى البرلمان، ملتزماً بإرشادات أمي، حول وجود مكتبة كبيرة، تمّ إنشاؤها بعد اختفائي بسنوات.

تلبّدت السماء بالغيوم، معلنة عن رغبتها في إفراغ حمولتها من جديد، دون أن يمنع ذلك جمعاً غفيراً من الشباب من التجمهر أمام ساحة المبنى، حاملين لافتات عريضة ومردّدين شعارات متناغمة، وقد وضعت قوات الأمن حواجزَ لمنعهم من التقدّم أكثر.

لم يفاجئني المشهد، فقد ألفته لسنوات، قبل ذهابي إلى روسيا، وكنت أسخر باستمرار من المتظاهرين، كلّما مررت من هناك بسيارة

t.me/qurssan

والدي، متعجّباً لإصرارهم على الصراخ بكلّ قواهم، مطالبين بأشياء لم أكُن أدرك معناها وقتئذٍ.

تغيَّر كلّ شيء هنا، واجهات المحلات التجارية، هندسة محطة القطار العتيدة، سكّة الترامواي الجديد، وظلّت الساحة المقابلة للبرلمان كما هي، الملجأ الوحيد لمن تحوّلت أحلامهم المستقبلية المشرقة إلى كوابيس واقعية مظلمة، في بلدٍ مواطنوه هم أرخَص ما فيه.

أقول «ما» وأنا متأكّد من عدم ارتكابي لأيّ خطأ لغوي...

دخلتُ إلى المكتبة، فطلب مني الحارس وضعَ الملف والحافظة الجلدية السوداء في دُرج مخصّص لأمتعة الزوار، ففعلت، ثم توجّهت مباشرة نحو شاب يرتدي سترة عليها شعار المكتبة، وسألته:

- من فضلك، هل توجد رواية كتبها مؤلف مغربي بعنوان ساعة الصفر؟

ردّ ببساطة:

- نعم، هي للكاتب عبد المجيد سباطة، تريد نسخة؟

أومأت برأسي، فقادني إلى جناح الروايات والتقط كتاباً، قدَّرت بعيني اقترابه من حاجز الخمسمائة صفحة، قائلاً:

- تفضل.

تمعَّنتُ قليلاً في الغلاف الأمامي، بعقارب ساعته وتمازج ألوانه البرتقالية والسوداء والرمادية، ثم قرأت ما كتب في نبذة الغلاف الخلفي.

المؤلف شاب من مواليد 1989، وسائق سيارة الأجرة قال بأنّ صاحب الحافظة شاب أيضاً...

أنا أسير في الطريق الصحيح إذاً!

t.me/qurssan

انشغل الموظف بمساعدة زبون آخر، فاقتربتُ منه سائلاً بخجل:

- معذرة، أعلم بأنّ سؤالي غريب قليلاً، لكنني بحاجة إلى مقابلة كاتب الرواية شخصياً، هل من وسيلة لمعرفة عنوانه؟

صمتَ قليلاً، علامةً على التفكير، ثم أجاب:

- لا أعرف صراحة، ولكن سباطة يزور المكتبة بشكلٍ شبه يومي تقريباً، وإن لاحظت اختفاءه مؤخراً، كعادته كلّما شرع في كتابة أو ترجمة رواية جديدة و...

ضاقت عيناه كمن تذكّر شيئاً، وأضاف:

- دقيقة من فضلك!

نقَرَ بأصابعه على شاشة هاتفه المحمول، ثم وضعه على أذنه قائلاً:

- كنت قد سجّلت رقم هاتفه قبل فترة، عندما طلب حجز نسخة من رواية لم تكُن متوفرة عندنا، سأتّصل به حالاً...

لحظات قليلة مرّت، ليقول:

- أهلاً أستاذ سباطة، كيف حالك؟ أنا... آه عرفتني، رقمي مسجّل عندك إذاً، معذرة، لكن معي الآن شخص يريد مقابلتك في المكتبة، ممكن؟

مرَّر إليّ الهاتف، فبلغ مسامعي صوت مهدج:

- آلو؟ مَن معي؟

لم أكُن بأقلّ اضطراباً منه، مع ردّي المتردّد:

- أستاذ عبد المجيد... أنا.. الحاسوب الضائع... مشروع الرواية... الحافظة الجلدية السوداء...

*

t.me/qurssan

مرّت خمس وأربعون دقيقة، تجوّلت خلالها بين الأروقة، أملا عيني وذاكرتي بعناوين الروايات والكتب الجديدة، قبل أن يجتاز باب المكتبة شاب سلَّم على الموظف بسرعة، والتفتَ إليّ، تسيطر على كلّ شبر في وجهه علامات الحيرة والتساؤل.

شعر أسود غزير، يبدو أنه غير مهتمّ بتصفيفه، عينان سوداوان يظهر إرهاقهما بوضوح رغم وضعه لنظارات بإطارات كبيرة، ولحية مبعثرة ذكرتني بأيام اعتقالي في كراسنوكامنسك، كان بإمكانه تشذيبها على الأقل لتبدو أفضل.

يرتدي سترة زرقاء وسروال جينز أسود، وينتعل حذاء رياضياً أبيض لا يناسب الأجواء الماطرة في الخارج.

لا يبدو من مدّعي البوهيمية، فهندامه لا بأس به، لكنه يُشعِرُك بافتقاره للمسة الأناقة، وعدم اهتمامه بمظهره كما يجب، بغضّ النظر إنْ كان تجاهله لهذه التفاصيل عرضياً مؤقّتاً أم اختياراً دائماً...

كانت الصورة التي رسمَتْها مخيلتي للكاتب الشاب مختلفة إذاً عن الواقف أمامي، فقفز إلى ذهني اسم واحد مع تدقيقي في ملامحه:

رشيد بناصر...

هو يشبهه إلى حدٍّ كبير، وسيخيّل لمَن قرأ الرواية ثم قابل كاتبها بأنّ أحدهما قد نجح في التأثير على الآخر بشكلٍ ما.

- مرحباً، أصحيح أنك عثرت على حافظتي الجلدية، ومعها الحاسوب والمذكرة الزرقاء؟

قالها بخوف ولهفة، فصافحته مبتسماً، في محاولة لإضفاء جوّ من الثقة على حديثنا:

t.me/qurssan

- اسمي زهير. اطمئن، هي في الحفظ والصون، كما تركتها بالأمس في سيارة الأجرة.

أطلقَ زفرة ارتياح كشفت حجم ترقّبه، ثم انطلق في شرحٍ مستفيض:

- من عادتي تذكر أرقام سيارات الأجرة وربطها بحوادث تاريخية شهيرة، لم أنسَ الرقم 1099. وبحثتُ عن السائق في الموقف، ليُخبرني زملاؤه بتغيّبه عن عمله. ذهبت إلى المخفر معتقداً بأنه ترك الحافظة هناك، فلم أعثر على شيء. لستُ مهتماً بضياع الحاسوب، فهو قديم الطراز ولن يفيد أحداً بشيء، لكن محتواه بالغ الأهمية بالنسبة لي. كنت مرهقاً مشوّش البال بسبب بعض المشاكل الشخصية، فنسيته في المقعد الخلفي للسيارة بكلّ سذاجة.

- قانون الحياة بسيط جداً: ما نعتقد بأننا نملكه، قد نفقده في رمشة عين، وإلى الأبد...

رفع حاجبيه وخفضهما بسرعة، مع يقينه ربما من أنها جملة تشبه ما يورده كتاب الروايات على ألسنة شخصياتهم، وطرح سؤالاً حذراً:

- ولكن، كيف تمكّنت من الوصول إليّ؟ لماذا لم تسلّم الحافظة لشرطة المخفر بكلّ بساطة؟

- سأقول إنّ بحثي عنك كان أسهل بكثير، مقارنة بما بذله رشيد وكريستين من مجهود سعياً وراء كشف مصير مؤلف أحجية مغربية المفقود. قادتني إليك روايتك **ساعة الصفر**، كررت اسمها أكثر من مرة في مذكرتك الزرقاء. لم أكُن أعرف سوى رواية لآغاثا كريستي بالعنوان نفسه، ثم جئتُ إلى المكتبة للتأكد من الأمر، والبقية تعرفها!

t.me/qurssan

منحت الدهشة ملامحه المرهقة شكلاً غريباً، فقلت بنبرة أقل اندفاعاً:

- الواقع أنني مطالَبٌ بالاعتذار، فقد سمحت لنفسي بالتلصّص على محتوى الحاسوب والمذكرة، وأرغب في عرض وجهة نظر متواضعة، إن سمحت طبعاً...

*

لم يتفوّه بكلمة واحدة في أثناء قراءته لمحتوى ما انهمكت في كتابته طوال الليل، ونحن جالسان في مقهى قريب من المكتبة، بناء على اقتراحه هو.

- هذا ما كنت أبحث عنه بالفعل، فكرة خارج الصندوق كما قال براندون في حديثه مع كريستين بسنترال بارك. وجّهت تركيزي نحو الدوار الذي وقع سكانه (وسكان دواوير ومدن أخرى طبعاً) ضحايا الزيوت المسمومة، ولم أتوقّع وجود قريتين تحملان الاسم نفسه، واحدة في نواحي مكناس وقريبة من الحاجب، والأخرى نواحي القنيطرة، كيف عرفتها أنت؟

- أعرف شخصاً عزيزاً هناك، انقطعت علاقتنا بسببي، وأعتزم زيارته قريباً لمصالحته...

ثم راوغته بسرعة، متظاهراً بمتابعة احتجاجات الجموع المحتشدة أمام البرلمان من كثب، مع تدخّل القوات العمومية لتفريق المتظاهرين:

- المهم الآن هو رأيك أنت، كيف وجدت النهاية؟

نزع نظارته وفرك عينيه قائلاً:

- جميل وصفك لمعاناة رفيق في سجنه طوال أربعة عشر عاماً، كما أعجبني استخدامك للفكرة الشهيرة حول إمكانية اصطحاب رواية

t.me/qurssan

الحياة: دليل استعمال إلى جزيرة معزولة وقراءتها أكثر من مرّة بطرقٍ مختلفة عديدة، تكاد توحي إليّ بأنك عشت التجربتين بنفسك!

ابتسمت، مع تذكري لنسخة الرواية التي قرأتها أكثر من مرة في كراسنوكامنسك، لكنه عاد وغيَّر من نبرته مضيفاً:

- ولكنني لم أحبّذ اللجوء إلى رشيد راوياً عوض كريستين، مما أفسد القيد الشكلي الذي وضعته من البداية، مع توقفك في الفصل 19، رغم تقبّلي للأسباب. لم أفهم أيضاً سرّ إقحامك لشخصية الفتاة التي سمّيتها الغالية. عموماً أرى بأنها نهاية لابأس بها، لكنها ناقصة.

أزعجني استفزازه، فسألته بحدّة لم أفلح في مداراتها:

- ماذا تقصد؟

شعر ربما بخطأ تسرّعه، فتراجع مفسّراً:

- هي نهاية مرضية لمعظم أبطال الرواية، كريستين ماكميلان عثرت على فكرة مناسبة لتأليف روايتها رغم صدمتها بوجود مسؤولية معينة لوالدها ستيف في قضية الزيوت المسمومة، رفيق عاد لحبيبته لبنى وابنته جنان، كما عرضت كريستين نقله إلى الولايات المتحدة الأميركية للعلاج، كمساهمة رمزية منها في التكفير عن ذنب والدها، لكن ماذا عن رشيد؟

أجبتُ بتلقائية:

- سيُقنع أستاذه المشرف بصواب اختياره لرواية أحجية مغربية، وسينجز أطروحته عنها كما أرادا

صمت طويلاً، وبدا ساهماً سابحاً في عالمه الخاص، وإن ركّزت عيناه على المحتجين أمام البرلمان، ثم قال:

t.me/qurssan

- وماذا بعد؟ سيأتي إلى هذه الساحة مطالباً بحقّه في العيش الكريم مثل هؤلاء وغيرهم، ممّن لا تتجاوز قيمتهم 42 فرنكاً في بلد كهذا. . .

ربط ذهني مباشرة بين عبارته الأخيرة وترقيم ملف حاسوبه، فيما فتح هو مذكرته الزرقاء، مستخرجاً من جيب سترته قلم حبر:

- ما دمت أوّل قارئ لمسوّدة الرواية، بل ومساهمة في كتابة ثلاثة فصول منها، فلن أجد حرجاً في مقاسمتك بعض الأفكار التي راودتني مؤخراً. قرأت قبل فترة آخر رواية كتبها بول أوستر، بعنوان 1 2 3 4 ورغم ضخامتها وتشعّب أحداثها، إلّا أنها تعتمد على فكرة رائعة ومغرية جداً لكلّ الأدباء، أي مسار كان ستّتخذه حياتنا، لو كانت قراراتنا مختلفة عمّا فعلناه سابقاً؟ يتخيّل الكاتب أربع مسارات مختلفة لشخصٍ واحد اسمه آرتشيبالد فيرغسون، مرّة بطل رياضي، ومرة ناشط، ومرة كاتب، ومرّة صحافي. ماذا لو كرّرنا الأمر مع رشيد؟

- فكرة جميلة وقابلة للتطبيق، ولكن كلّ الطرق هنا ستؤدّي به إلى نهاية واحدة. . .

أطلق ضحكة ساخرة صافية، فأضفتُ بجدية:

- لأنّ المغرب يشبه رواية كتبها فرانز كافكا. الحبكة بسيطة، لكنّ التعمّق في أحداثها يعني الدخول إلى متاهة لا نجاة من تفاصيلها. وبمجرّد اقترابك من حلّ العقدة، تُصدَم بأنّ الحبكة غير مكتملة أصلاً. . .

- معذرة يا سيد زهير، ولكن طريقة كلامك توحي بأنّ علاقتك بالأدب أقوى بكثير ممّا أتصورا

t.me/qurssan

شعرتُ بأنّ شكّه وإلحاحه سينجحان في التحرّش برغبتي في الحكي، عاجلاً أم آجلاً، فحسمتُ أمري وغيرتُ دفّة الحديث:

- لاحظت تضمينك إشارة عابرة لحادثة مسرح دوبروفكا في الفصلين 10 و11...

قال بحماس طفل في الخامسة:

- أجل، كنت في الثالثة عشرة من عمري عندما وقعت الحادثة، وتابعت تفاصيلها باهتمام شديد وقتها، الرهائن والمفاوضات والغاز الغامض الذي أودى بحياة العشرات ولم يكشف الروس عن طبيعته حتى الآن. ظلّ مشروع كتابة رواية عنها مؤجلاً لعدة أسباب، أبرزها عدم وجود مغاربة ضمن الرهائن، فاكتفيتُ بتعليق الناشر واقتراحه على كريستين تأليف رواية عن الحادثة، ما دامت أحداث روايتي متزامنة مع حصار المسرح، شهر أكتوبر 2002.

- أنت مخطئ يا أستاذ عبد المجيد، لقد وُجِدَ مواطن مغربي بمسرح دوبروفكا، ليلة الأربعاء 23 أكتوبر 2002، عاشَ تفاصيل الحصار لحظة بلحظة، قبل أن يقوده قدره إلى سجن سيبيري لا شكّ عندي في أنك لم تسمَع به من قبل...

كاد يقفز من مقعده هاتفاً:

- مغربي في سيبيريا! يا إلهي، مَن هو؟ أين هو الآن!

غمرتني نشوة الانتصار، مع نجاحي في إثارة حاسّة فضوله الروائي، فقلت بهدوء يقطر استفزازاً:

- الجالس أمامك الآن!

* * *

t.me/qurssan

ماذا لو؟ (مساران مختلفان لشخصية رشيد بناصر)

فكرة المسار الأول: زهير بلقاسم.

فكرة المسار الثاني: عبد المجيد سباطة.

t.me/qurssan

فضّ اعتصام معطلين من حملة شواهد الدكتوراه وإصابات بليغة في صفوف المحتجين

(صحيفة الوقت الراهن – صفحة أخبار المجتمع – عدد الجمعة 2 أبريل 2010)

تحوّلت عملية فضّ اعتصام معطلين من حملة شواهد الدكتوراه بشارع محمد الخامس بالرباط إلى مواجهات دامية أسفرت عن إصابة عدد من المحتجين بحالات إغماء وجروح متفاوتة الخطورة، استدعت نقل بعضهم إلى المستشفى لتلقي العلاجات الضرورية، مع دخول حالة واحدة إلى العناية المركزة إثر إصابة بليغة في الرأس.

وكان المحتجّون قد أعلنوا في وقتٍ سابق عن خوضهم إضراباً مفتوحاً عن الطعام، كخطوة رمزية للفت الانتباه إلى معاناتهم المستمرة مع البطالة والتهميش والإهدار المتعمد لطاقاتهم، دون أن يجد ذلك آذانا صاغية من المسؤولين عن الملف، ليقرر المعطلون التصعيد والاعتصام بالساحة المقابلة للبرلمان، ما استدعى تدخل قوات الأمن لإخلائها وطردهم بالقوة.

t.me/qurssan

(20) مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور

كم هو محزن أن نرى أمماً كبيرة
تتسوّل قدراً إضافياً من المستقبل.

إميل سيوران

الخميس 1 أبريل 2010
شارع محمد الخامس - الرباط:

تفرقت جموع المعتصمين، وتساقطت لافتات شعاراتهم ومطالبهم على الأرض، لتدوسها أقدامهم وأقدام مطارديهم على السواء.

ركض رشيد بكلّ قوته هارباً، وقد تساقطت الدموع من مقلتيه بلا وعي منه.

لم تنفعه شهادة الدكتوراه التي حصل عليها بامتياز، وصارت مجرد قطعة من الورق المقوى يعلوها الغبار، وحولها الذباب إلى منصّة إقلاع وهبوط لطلعاته الجوية.

استغنى مدير الفندق عن خدماته، بعدما رفض تحويله التدريجي من مستخدم إلى عبدٍ تمنّى المدير (الذي يستمتع بتعذيبه فقط لأنه لم يتجاوز الشهادة الابتدائية) لو يشغّله بالمجان.

t.me/qurssan

حاولوا إقناعه بأنّ تخصّصه الأدبي بلا قيمة، وأنّ ما أنجزه في أطروحته حول رواية أحجية مغربية وتقنيات السرد في الرواية الجديدة مجرّد كلام فارغ لن يهتمّ به أحد.

وربما كانوا على حق...

قالوا إن أصحاب الشواهد العلمية والتقنية أكثر حظاً من الأدبيين، تمرّ الأيام فيكتشف أنهم جميعاً في سلّة بطالة واحدة، في مساواة حقيقية قَلّ نظيرها...

ذهب لمقابلات وظيفية فاستبعدوه، مبرّرين قرارهم بعدم ملاءمته للمعايير المطلوبة، فيفهم تدريجياً بأنّ المقصود بالمعايير قد يكون اسماً عائلياً أو اتصالاً هاتفياً أو صدراً بارزاً.

اقترح عليه أحدهم الانضمام إلى شبيبة حزب سياسي، لكونه سبيلاً لتسلّق المراتب وتحقيق الطموحات بسهولة أكبر، فأدرك بأنّ هذه السهولة تعني تملّق زمرةٍ من الفاسدين، قد يستغلّون قدراته لوضعه كواجهة مهمّتها تلميع صورهم وتلطيخ وجهه بقذاراتهم.

أن يكون سترة مقاومة للرصاص، يستخدمونها وقت الحاجة، ثم يتخلّصون منها متى شاؤوا...

لعق الأحذية موهبة، لا يملكها هو، ولن يُتقن أسرارها إن فكّر يوماً في امتلاكها.

تمسّك بالأمل في غدٍ أفضل، وارتبط بفتاة هادئة ارتاح لها عقله قبل قلبه.

صبرت المسكينة طويلاً، قبل أن تستسلم لضغوط والديها والتساقط السريع لأوراق عمرها، وتقبل الزواج بآخر لا محلّ له من الإعراب سوى امتلاكه أوراق إقامة في الخارج.

ولم يكُن ليلومها على ذلك...

t.me/qurssan

ألم يؤمن طوال سنوات عمره بأنّ الحب كان وسيبقى مجرّد أكذوبة جميلة صنعها الأدب؟

هو اليوم في السادسة والثلاثين، وما زال مستقبله ضبابياً، يعيش حالة اللااستقرار والخوف ممّا ستحمله الأيام القادمة من جديد...

وقف فجأة، واستدار نحو مطارِدِه، صارخاً بكلّ ما في أعماقه من تعب وقهر:

- كفى!

ولم يكَد يُنهي صرخته حتى هَوَت الضربة على رأسه...

سقط على الأرض بقوة، فتراجع الآخر خائفاً، وعادَ ليحتمي بصفوف زملائه، شاعراً بفداحة ما فعلَه.

تحلّق الشبان حول جسد رشيد المسجّى، وبحّت حنجرة شابة بالصراخ:

- يا إلهي! اتصلوا بسيارة الإسعاف، إنه ينزف بغزارة!

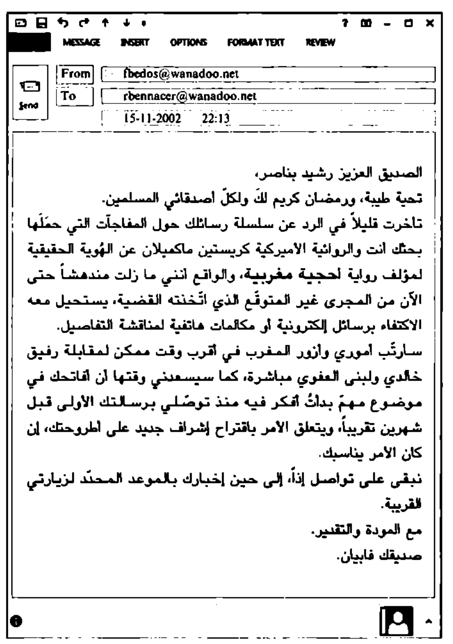
غام بصره، موشكاً على فقدان وعيه، وسمعه معظم المتحلّقين حوله وهو يهذي بكلام غير مفهوم:

- لن تصل... لن تصل... إلّا إذا اتصلت كريستين بالسفارة...

* * *

t.me/qurssan

رسالة إلكترونية توصّل بها رشيد بناصر، الطالب الباحث في سلك الدكتوراه تخصّص الآداب المعاصرة من الدكتور فابيان بيدو، الباحث الفرنسي المتخصّص في الدراسات العربية بجامعة السوربون بباريس:



MESSAGE INSERT OPTIONS FORMAT TEXT REVIEW

From: fbedos@wanadoo.net
To: rbennacer@wanadoo.net
15-11-2002 22:13

الصديق العزيز رشيد بناصر،
تحية طيبة، ورمضان كريم لكَ ولكلّ أصدقائي المسلمين.
تأخرت قليلاً في الرد عن سلسلة رسائلك حول المفاجآت التي حمَلَها بحثك أنت والروائية الاميركية كريستين ماكميلان عن الهُوية الحقيقية لمؤلف رواية لحجية مغربية، والواقع انني ما زلت مندهشاً حتى الآن من المجرى غير المتوقّع الذي اتّخذته القضية، يستحيل معه الاكتفاء برسائل إلكترونية أو مكالمات هاتفية لمناقشة التفاصيل.
سأرتّب اموري وأزور المغرب في أقرب وقت ممكن لمقابلة رفيق خالدي ولبنى العفوي مباشرة، كما سيسعدني وقتها أن أفاتحك في موضوع مهمّ بداتُ أفكر فيه منذ توصّلي برسالتك الأولى قبل شهرين تقريباً، ويتعلق الامر باقتراح إشراف جديد على أطروحتك، إن كان الأمر يناسبك.
نبقى على تواصل إذاً، إلى حين إخبارك بالموعد المحدّد لزيارتي القريبة.
مع المودة والتقدير.
صديقك فابيان.

t.me/qurssan

(20́) الوصية الفرنسية

الكتّاب أشخاص بائسون، حتى وإن ولدوا
لعائلات غنية، أو فازوا بجائزة نوبل.

روبرتو بولانيو

الخميس 1 أبريل 2010
بين جامعة السوربون باريس 3 وأحد المطاعم المطلّة على نهر السين:

أنهى رشيد محاضرته عن أدب الروايات غير المكتملة، مقدّما قراءته المعمّقة حول **الإنسان الأول** لألبير كامو، **القلعة** لفرانز كافكا، **لغز إدوين دروود** لتشارلز ديكنز **ولوسيان لوين** لستندال، مع إشارة إلى خصوصيّة **أحجية مغربية**، الرواية التي بدأها الكاتب رفيق خالدي قبل اختفائه، فأكملتها الكاتبة لبنى العفوي، حبيبته وزوجته فيما بعد.

هَمَّ بالانصراف، فحاصرته طالبة عشرينية نشيطة بأسئلة إضافية، أجابَ عنها بصبرٍ وأناة، متحاشياً نظراتها المعجبة، ثم نصَحَها بمراجعة رواية **53 يوماً** لجورج بيريك، بوصفها نموذجاً حديثاً لرواية بوليسية غير مكتملة، وخاضعة للقوانين والقيود الشكليّة المعقدة

t.me/qurssan

لجماعة أوليبو الأدبية. تولى هاري ماتيو وجاك روبو نشرها عام 1989، في طبعة تضم 11 فصلاً مكتملاً، وملفاً تمّ العثور عليه في مكتب الراحل، يضم إشارات ومسودات وملاحظات منظمة لما كان ينوي كتابته في ما تبقى من الفصول الـ 28، قبل أن يُعاجله الموت عام 1982.

انشغل بجمع أوراقه وإغلاق محفظته، ليفاجئه الصوت المتكلم بالإنجليزية:

- هل يسمح وقت الدكتور بناصر بتقديم شروحات إضافية لطالبة قديمة؟

التقطت أذناه النبرة فعرَفها، رغم مرور سنوات طويلة على سماعها مباشرة...

رفع رأسه بسرعة، فتهلّلت أساريره مع رؤيته للواقفة أمامه، ليهتف بسعادة لا تخلو من بعض الدهشة:

- كريستين!

*

لم تفقد الكثير من جاذبيتها، رغم اقترابها من الخمسين، وزحف التجاعيد لمحاصرة جانبَي عينيها وزاويتي فمها الصغير، لكن تمعّنه في ملامحها المتعبة أثبتَ له بأنها ليست في أفضل حالاتها...

طالَ صمتها، وقد ألصقت وجهها بنافذة المطعم المطلّ على نهر السين، متأمّلة الأفق البعيد، فسألها بلهجة ودية:

- كيف حال رونالد وسيندي وبراندون؟

أجابته باستخفاف ظاهري:

- رونالد وسيندي بخير، نتبادل الاتصالات والزيارات أحياناً،

t.me/qurssan

أمّا براندون فقد طردته من البيت، ولا أعتقد بأنني سأسمح له بالعودة إليه مرة أخرى...

حاول تصنع الجدية، مع بذله مجهوداً ضخماً لمداراة ضحكته الساخرة:

- يقول الكاتب الأميركي الرائع جون فانتي: لا يمكنك أن تكون شريراً وكاتباً كبيراً في الوقت نفسه. يصعب أن تجدي رجلاً مخلصاً بكلّ جوارحه لكِ، وإن كان صادقاً في حبّه، سامحيه...

التفتَت نحوه هاتفة باستنكار:

- ومَن قال بأنني أقصد الخيانة العاطفية؟ الموضوع مختلف تماماً!

تحوَّلَت جديته المصطنعة إلى انتباهٍ تام، تابَعَ معه كلامها:

- هل تذكر اهتمامه بالبحث عن مصائر أصدقاء والدي في الصورة القديمة؟

- أجل، واكتشف وفاتهم جميعاً، باستثناء جنديّ واحدٍ أصيب بألزهايمر...

استطردت بانزعاج:

- لقد كذب عليّ، كان توني فاجنر على قيد الحياة، والتقى به في دار للعجزة بديترويت، وسمع منه الكثير عن ماضي والدي، فاختارَ الصمت عوض مصارحتي. عثرتُ على شريطٍ صوتي سجّل فيه كلّ ما قاله الجندي السابق، وعندما واجهته بالأمر ادّعى بأنه فعَلَ ذلك لمصلحتي...

عقد ساعديه أمام صدره معلقاً:

- ربما كان محقّاً في تصرّفه، المهم هنا هو ما قاله توني، هل حمَلَ كلامه معلومات جديدة عن ستيف؟

t.me/qurssan

- أجل، تحدَّث عن تورطه في صفقة براميل الزيوت المسمومة، والشابة المغربية التي وقع في حبّها، وهو ما نعرفه جميعاً. لكنه أشارَ أيضاً إلى ماضيه في تكساس، قبل سفره إلى المغرب، وهو ما أهملناه مع انشغالنا بقضية اختفاء رفيق خالدي...

- هل تقصدين تلك الصورة التي تجمعه بالفتاة الشقراء التي حمَلَت في يدها نسخة من رواية بطل من زماننا لميخائيل ليرمنتوف؟

افترّ ثغرها عن ابتسامة باهتة لم تكُن لتخفي عصبيّتها:

- كالعادة، لم يساورني أيّ شك في قوة ذاكرتك رغم مرور السنوات. اسم الفتاة إديث بورجي، هي من أصول فرنسية، فرّت إلى الولايات المتحدة الأميركية مع اندلاع الحرب العالمية الثانية، واستقرّت مع عائلتها في تكساس. التقت بوالدي، المراهق ذو الطباع الريفية القاسية، ووقعت في غرامه، لكنه انزعج ممّا اعتبره تفوّقاً معرفياً وحضارياً عندها، مقارنة بمستواه المتواضع، فشعَرَ بالدونية، وعامَلَ الفتاة بشكلٍ سيئ للغاية...

ثم أطلقَت زفرة حمَلَت كلّ علامات الضعف والاستسلام مضيفة:

- ليت الأمور توقّفت عند هذا الحدّ، فقد رحل مع أفواج الجنود المتوجّهين إلى شمال أفريقيا من دون إخبارها، في اليوم نفسه الذي اعتزمت فيه إخباره بحَمْلها. راسلته في المغرب أكثر من مرة، وكان يتوصّل ببرقياتها ورسائلها بانتظام، قبل أن تُخبره في رسالتها الأخيرة بعودتها إلى فرنسا مع عائلتها وابنها...

لم ينطق مخاطبها بكلمة واحدة، لتردف:

- قال توني بأنّ ستيف تعامَل مع رسائل إديث باستخفاف، معتقداً بأنها حيلة أنثوية مكشوفة، ولم يصطدم بالحقيقة إلّا بعد عودته

t.me/qurssan

إلى الولايات المتحدة، فحاوَلَ البحث عنها رغم بدئه علاقة جديدة مع أمي، من دون جدوى...

اتّضحت الصورة في ذهن رشيد، فسألها بحذر:

- لا تقولي بأنكِ...

قاطعته برجاءٍ يقترب من حافّة التوسّل:

- نعم، جئت إلى فرنسا لأبحث عنها وعن شقيقي المفترَض، ولن أجد أفضل منك لمساعدتي!

* * *

t.me/qurssan

إشارات:

– ما زالت قصة زهير بلقاسم الغريبة مسيطرة على تفكيري حتى الآن. تؤكّد كلّ المصادر عدم وجود أي مغربي ضمن رهائن مسرح دوبروفكا، لكنّ التفاصيل الدقيقة لما عاشه في موسكو وكراسنوكامنسك، مع إجادته التامة للغة الروسية، تجعلني أقرب إلى تصديقه.

– لم أفهم سبب اللامبالاة الغريبة للبروفسور يونس بلقاسم، الذي لم يرافق زوجته إلى روسيا بحثاً عن الابن المفقود، وواصَلَ انغماسه في علاقاته المتعدِّدة حتى الموت، كما لو كانت علاقته بابنه قد انقطعت، أو أنها غير موجودة أصلاً، فهل أخفى عني زهير بعض التفاصيل الجانبية حول والده؟

– التقيت بزهير آخر مرة بعد عودته من دوار الحاج قدور ضواحي القنيطرة. لم يجد الغالية هناك، وأخبره السكان برحيلها قبل سنوات طويلة، مع تضارب أقاويلهم، بين مَن أخبره بوجودها في طنجة، ومَن أقسمَ على رؤيتها في أكادير.

– لم يظهر له أثر بعد ذلك، مع إغلاقه أو ربما تغييره لرقم هاتفه المحمول، وعدم وجود وسائل أخرى للتواصل معه، فأدركت بأنه سيكرّس كلّ وقته وجهده لتقفّي أثر الخادمة المظلومة، وأتمنّى عودته يوماً ما لإخباري بمآل بحثه عنها.

– وردت ضمن أحداث روايتي مسألة إنجاز لبنى العفوي لأطروحة دكتوراه حول قضية الزيوت المسمومة، وهذا من وحي الخيال طبعاً، لكن وجبت الإشارة إلى وجود بحثٍ حقيقي لنيل شهادة الماستر في تاريخ الزمن الراهن، تمّ نشره (لتميّزه) ضمن سلسلة منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، للباحثة مديحة صبيوي بعنوان: **كارثة الزيوت المسمومة بالمغرب (1959–1960)**

t.me/qurssan

- كان هذا البحث المميّز ذا فائدة عظيمة لي، في إطار جمعي للمعلومات والمَصادر حول القضية، مما مكّنني من إغناء الحبكة الروائية بأفكار جديدة. انصح كلّ المهتمين بقراءته، وهو متوفّر في مكتبة الكلية بثمن رمزي. مع شكرٍ خاص للأستاذ الروائي والصديق عبد الكريم جويطي، الذي شجّعني وأرشدني لهذا المرجع المهم بعد تحمّسه لفكرة اشتغالي على قضية الزيوت المسمومة روائياً، وأشكر أيضاً الصديق الصحافي محمد أحداد، الذي لم يبخَل عليّ بمعلوماته، لكونه من الصحافيين الشباب القلائل الذين اهتموا بالموضوع وأجروا عنه تحقيقاً مفصّلاً قبل سنوات.

عبد المجيد سباطة

2019-12-05

t.me/qurssan

فهرس

(أو قائمة بالكتب التي أوصى محسن الفاضلي بقراءتها
ونقلها رشيد بناصر إلى مذكرته)

t.me/qurssan

t.me/qurssan

t.me/qurssan

عبد المجيد سباطة



لا فرق عندي بين الكاتب ولاعب الشطرنج، كلاهما يخوض معركة عقلية عنيفة ضد غريمه، وعلى رقعة تتسع مساحتها الصغيرة المخادعة لتشمل العالم بأسره!

ولأنّ حسابات الربح والخسارة في لعبتَي الشطرنج والكتابة نسبية ولا تخضع لأيّ منطق، فقد وجدتني مجبراً على رفع الراية البيضاء عوض مواصلة القتال في معركةٍ اجتمعت كلّ الظروف لتقودني إلى خسارتها، وإن احتميتُ لبعض الوقت بعبارة مضحكة يلجأ إليها كلّ المهزومين: الانسحاب التكتيكي...

لكنني لستُ رجل سياسة يكذب على جماهيره لإخفاء الحقيقة، أنا كاتبٌ يكذب ليكشف لقرائه الحقيقة!

ولا مناص هنا من توقيع صك الاعتراف بها، وإن كانت إقراراً صريحاً مني بالاستسلام.

أنا عاجز عن إتمام مشروع رواية بدأتُ كتابتها يوم الاثنين 1 أبريل 2019، ما يعني -إذا نزعتُ عني ثوب الكاتب وارتديتُ ثوب المهندس المدني الذي خلعته منذ سنوات لأنه لا يناسب مقاساتي- انهيار بناء بذلتُ كلّ ما في وسعي لتقوية أساساته واحترام الجدول الزمني لتقدّم أشغاله.

انهار البناء مخلِّفاً تحت أنقاضه ضحية واحدة فقط: أنا!

❖ ❖ ❖

عبد المجيد سباطة، كاتب ومترجم من المغرب، صدرت له عن المركز الثقافي العربي رواية **ساعة الصفر 00:00** (جائزة المغرب للكتاب 2018) ورواية **فتاة الرحلة 5403** (ميشيل بوسي، ترجمة) ورواية **لن ننسى أبداً** (ميشيل بوسي، ترجمة).

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5168
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com

t.me/qurssan